اقرأ

محمد عفيفي

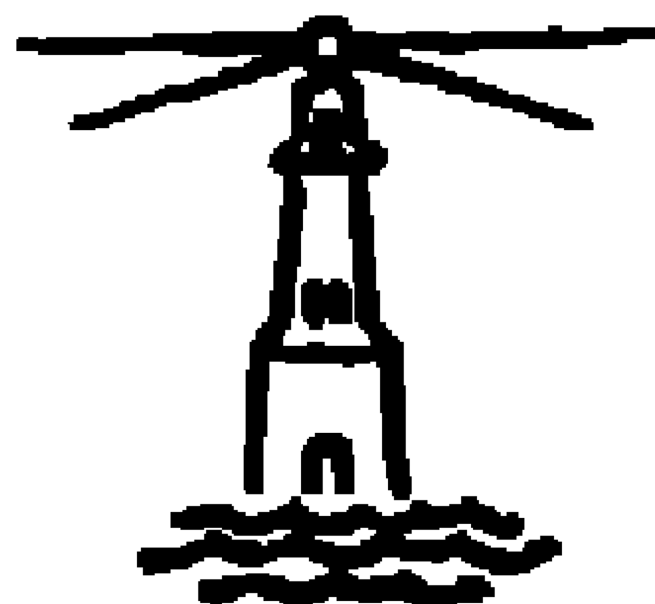
التفاحة والجمجمة





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



محمد عفيفي

التفاحة والجمجمة

اقرأ ٣٦٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٥ — مارس سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

الفصل الأول

أعتقد أن الوقت قد حان لكى أدون قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة الفذة ، وإن كنت أشك فى إمكان وصولها — قصتى — إلى أى إنسان ، لأننى بعد أن أكتبها لن أقدمها إلى الناشر كما يفعل سائر كتاب القصص ، بل سوف أضع الأوراق فى كيس من النايلون ، ثم أضع الكيس فى جرة بدائية تشبه القلة ، ثم أسد تلك القلة سداً محكماً ، وذلك توطئة لإلقاء القلة نفسها فى البحر العريض لتحملها أمواجه إلى حيث يشاء القدر . هذا بالطبع إذا أتيح لى أن أتم كتابة القصة نفسها قبل أن يفنى القلم الرصاص الذى أكتبها به ، وقبل أن ينفد الورق الذى أدونها عليه ، فهل تصدق أننى أكتبها على الظهور البيضاء لعدد من الشيكات القديمة ؟ وبعد أن تمتلىء الظهور سوف أواصل الكتابة على الوجوه بين السطور المطبوعة التى تقول : ادفعوا لحامله مبلغاً وقدره ! وبعد ذلك سوف أكتب على كعوب الشيكات ثم على غلاف الدفتر ، تلك العملية التى تلزمنى أن أوجز فى بعض الأحيان أشد الإيجاز ، وهو ما سأفعله من فورى بصدد غرق السفينة التى كنت فوقها .

فى جوف الليل والناس نيام ، انفجار رهيب زلزل أركان السفينة ، ثم هرج ومرج وصراخ وعواء ، وعشرات من الناس يقفزون إلى البحر بالبيجامات والجلاليب وبعضهم نصف عرايا . لكننى لم أكن قط من الناس الذين يفقدون عقولهم ساعة الخطر . كنت وقتها — بسبب الحر — نائماً وحتى بالملابس الداخلية ، فأسرعت بارتداء بنطلون البيجامة .

إذا كان لا بد أن أغادر السفينة ــ قلت لنفسي ــ فجدير بي أن أغادرها بكرامتي . سواء كنت سأموت وأقابل الله أو أعيش وأقابل الناس ، فلماذا لا أكون فى الملابس اللائقة ؟ بالبنطلون والفانلة ذات الحمالات خرجت إلى سطح السفينة التى مالت على جنبها وأوشكت أن تغرق ، فوقفت لحظة أنظر إلى البحر الذى امتلأ بناس بعضهم يسبح وبعضهم يصرخ وبعضهم يغطس ويقب . لكننى لم ألق بنفسى بينهم ، طول عمرى أحب الوحدة حتى عندما أغرق . لذلك قصدت إلى ناحية بعيدة عن الناس واعتليت سور السفينة ، وناظراً إلى السماء حيث يسطع القمر أخذت شهيقاً عميقاً ثم ألقيت بنفسى فى الماء . وهناك فقط تذكرت أمراً كان يجب أن أتذكره من قبل ، وهو أننى لا أعرف السباحة .

لحظة من الفزع الأسود حين تذكرت هذه الحقيقة وأنا أرتطم بالماء ، ثم وأنا أغطس تحته توطئة لأن أقب ، وأغطس مرة ثانية وأقب ، عالماً أنه ما هى إلا عدة غطسات مماثلة ثم أغطس لكيلا أقب أبداً . الماء سوف يتسلل إلى صدرى ويخنقنى ، ثم يهبط بى إلى القاع الغامض الرهيب ، وسط آلاف من الأسماك والكابوريات التى تصفق فرحاً بهذه الوليمة الفاخرة . خيالات مزعجة قطعاً ولكنها لم تنجح هى الأخرى فى أن تفقدنى صفاء ذهنى . من ناحية تذكرت الاسم العلمى لهذه الميتة وهو الاسفكسيا ، ومن ناحية أخرى تذكرت المثل الذى يتحدث عن تعلق الغريق بالقشة فبدأت أضرب بذراعى هنا وهناك باحثاً عن القشة المذكورة . عدة ضربات طائشة ثم وقعت يدى اليمنى على جسم غريب سرعان ما تشبثت به تشبث الشعرانة ــ إذا سمحت لى بهذا التشبيه ــ بجلد الحصان . ما هو هذا الجسم لم أعرف للوهلة الأولى ، لكننى عرفت فى الوهلة الثانية أنه نوع من القماش . وهو قماش ملتصق بجسم بشرى ، وبناء عليه فهو ثوب يرتديه صاحب ذلك الجسم . وهو فيما يبدو واسع مبحبح ، إذن فهو إما جلابية على جسم رجل وإما فستان على جسم

سيدة . وبما أنه ناعم كالحرير فأغلب الظن أنه فستان .

فبينما أنا أتخبط بين تلك الأفكار إذ أحسست يداً تمسك يدى وتحاول أن تنزعها عن الثوب ، لكن هى مين ؟ فلما يئست اليد من انتزاع يدى أحسست بها تهجم على رأسي ، تمسك شعرى بقوة وتجذبني منه إلى أعلى . فبرزت على سطح الماء وأنا ألهث وأسعل ، وصوت أنثى قرع أذنى وهى تصرخ قائلة : « امسك الخشبة ! امسك الخشبة ! » .

خشبة كبيرة طافية بادرت إلى التعلق بها ، بجانب الأنثى التى كانت تتعلق بها قبلى ، والتى لا أدرى من أين حصلت عليها .

ــ عايز تغرقنى معاك ؟ (صرخت فىّ غاضبة) .

فأجبتها بموجة من السعال الذى به أطرد ما تسلل إلى صدرى من الماء : « أصلى (قلت وسط شهقاتى) معرفش أعوم » .

ــ يا فرحتى !

واصطدمت قدمى بقدمها تحت الماء فأسرعت بإبعادها تحشماً منى ، إذ كنت دائماً جنتلماناً . ورأيتها ترفع يدها إلى شعرها الذى ألصقه الماء بعينيها وكان شعراً ذهبياً ، أزاحته عن عينين واسعتين لمعتا فى ضوء القمر بنور بين أزرق وأخضر . حسناء رائعة الحسن وأكاد أقسم إننى أعرفها . نعم أعرفها ، رأيتها فى السفينة كثيراً بصحبة شاب طويل وسيم أسمر . . آه ! عرفتها . هى الممثلة السينمائية عزيزة فهمى الشهيرة بزازا .

ــ حضرتك (سألتها مستوثقاً) زازا ؟

ــ أيوه يا سيدى (أجابتنى بنبرة ساخرة) وسيادتك ؟

ــ أحمد عبد الغفار ، مهندس سفن .

ــ تشرفنا (أجابت ساخرة) لازم انت اللى بانى السفينة دى !

فقهقهت ، طالما قرأت فى الصحف عن ذكاء زازا وحبها للتريقة . كذلك قرأت عن كثرة عشاقها من كل صنف ولون ، وحسدتهم

وتمنيت ـ عالمًا أنى أتمنى المستحيل ـ أن أجدنى واحداً منهم . وها هو ذا الغرق لم يمنعها من شقاوة الكلام ، فترى هل يمنعها أيضًا من سائر ضروب الشقاوة ؟

ـ أنا نسيت أقول لك متشكر .

ـ يا سيدى العفو . ده واجب علينا !

واعتمدت بذراعيها على الخشبة واشرأبت إلى أعلى لتأخذ نفسًا عميقًا ، وكانت ذراعاها العاريتان بلون اللبن الحليب . إذن لم أتشبث ـ حين تشبثت ـ بفستان وإنما بقميص نوم .

ـ الحمد لله ان الدنيا صيف (قالت زازا) .

ـ والقمر طالع كمان (نبهتها) .

قرص مستدير فضى ينظر إلينا بلا اكتراث ، أناس يغرقون فى البحر ـ يقول لنفسه ـ مالى أنا ؟

ـ عارفة احنا عاملين زى إيه ؟ (سألتها) .

فلم تجب ، فأجبت نفسى : « زى نملتين بيغرقوا فى كباية ميه ! »

ـ دى مفروض أنها نكتة ؟ ـ لأ ، دى فلسفة .

ـ طب خلى فلسفتك لروحك ، واضرب برجليك علشان الخشبة تمشى .

ـ إنتَ عندك فكرة الخشبة دى رايحة على فين ؟

ـ بايخة !

فقهقهت ثانيًا وأحسست أننى سعيد .

ـ أنا مبسوط منك جداً (أخطرتها) لأنك موش خايفة .

ـ انت خايف ؟

ـ ابداً ، أنا حاسس انى السندباد البحرى رايح مغامرة عجيبة . وعلى فكرة أنا سعيد جداً بأنى غرقت معاكى انتِ !

فلم تجب . وسمعت صوت اصطكاك أسنانها ، مسكينة بدأت تبرد .

ــ تسمحى لى ؟ (قلت لها وأنا أحيط كتفيها بذراعى) .
حاولت أن تتخلص لكننى تشبثت بها .
ــ ده إجراء طبى محض ، (شرحت لها مطمئناً) .
وتوخيت فعلا أن تكون ضمتى لها ضمة طبية ، حضن رسمى لا يرمى إلى شىء سوى توزيع الحرارة بيننا بما يكفل لها الدفء وفقاً للقانون الثانى للديناميكا الحرارية . لم أسمح لها بأن تشعر بالثورة التى بدأت تزمجر فى أعماقى وقد أحاطت ذراعى بذلك الكيان الرائع . شفتاى قريبتان من خدها لكننى لن أحاول تقبيلها ، جنتلمان مثلى يستغل أنثى غارقة ؟ ومن عنقها الفاتن كان ينبعث عطر مسكر لم تفلح مياه البحر فى إزالته .

ــ شانيل ؟ (سألتها) . ــ أربيج ، (أجابتنى) .
وسرنى أنها تبتسم ، وناظراً إلى « بروفيلها » الفاخر أدركت أننى واقع فى حبها لا محالة ــ إن لم أكن قد وقعت فعلا . لحظات من السعادة الغامرة وأنا أنهل من عطرها وأنظر إلى القمر الفضى الذى بدأ ينحدر بسرعة نحو الأفق ، فى حين بدأ يشيع فى السماء نور آخر هو نور الفجر المقترب .

ــ دفيت (قالت وهى تتخلص من ذراعى) .
ــ بسرعة كده ؟ (سألتها لائماً) .
فلم تجب ، ولا أدرى لماذا اتجه ذهنى إلى الشاب الأسمر الذى كان يصاحبها فى السفينة : « مين الجدع اللى كان معاكى فى المركب ده ؟ »
ــ وده يهمك فى إيه ؟ (سألتنى فى برود) .
ــ مجرد فضول ، هو سر ؟ ــ ح يكون مين ؟ واحد .
ــ مالوش اسم ؟ ــ اسمه توتو ! (قالت ضاحكة) .
ــ توتو ؟ ! ــ سامع ؟ ! (هتفت فجأة) .
ــ سامع إيه ؟ ــ سمعت صوت طائر !

فأنصت وفعلا سمعت صرخة طائر رفرف بالقرب منا .

— نبقى قريبين م الأرض (هتفت فرحة) دايمًا أشوف كده فى الأفلام !

ورحت أتلفت حولى باحثًا عن الأرض ، لكننى لم أر شيئًا فى ضوء الفجر الذى ما زال شاحبًا . كل شيء صامت حولنا ، أصمت بحر عاينته فى حياتى . وكان القمر قد انحدر إلى الأفق وغاص نصفه فى الماء ، شاحبًا يغرق فى البحر مثلنا .

— يا رب ! (قالت زازا فى ابتهال) يا رب !

دقائق من اللهفة اللاهثة ثم بدأ النور ينتشر فى السماء ويكسوها بلون أبيض جليل ، فالتفتنا خلفنا جهة الشرق ننتظر شروق الشمس . قوس صغير أحمر بلون الدم برز عند الأفق ، مثل شفة مخضبة بالروج لامرأة أسطورية . ثم صار القوس نصف كرة أحمر ، ثم كرة كبيرة حمراء ، بالون خرافى رائع ، بطيخة هائلة نزع عنها قشرها . لا عجب أن القدماء عبدوها ، الشمس الخالدة التى تهبهم النور والدفء .

وعدنا نتلفت حولنا فسرعان ما هتفنا معا فى فرح وحشى : أرض ! أرض قريبة لا يفصلنا عنها إلا دقائق من السباحة السريعة ، فما أسرع ما كنا نضرب الماء بأرجلنا المحمومة . دقائق من الكفاح ومن اللهفة المجنونة ثم ملمس الأرض تحت أقدامنا العارية ، أجمل ملمس فى الدنيا لو كنت تدرى ما هو الغرق . عليها تواثبنا وسط المياه الضحلة كأننا نرقص ، فلما صار الماء بارتفاع الركبة بدأنا نتعثر فيه ونترنح توطئة لأن نرتمى على الأرض ونحن نلهث ونلهث . أصابعى العشرة غرستها فى الرمال الرطبة الناعمة ، كبشتها وعصرتها فى شوق أليم . الأرض العزيزة ، أمنا الأرض .

وزازا أراحت خدها على الرمال وهى تلهث ، شيئًا فشيئًا أخذت أنفاسها تهدأ . عيناها التقت بعينى فى نظرة طويلة صامتة ، نظرة التفاهم

العميق بين اثنين ذاقا سويا طعم الموت والحياة . ودفء جميل نحسه فى جسمينا تحت أشعة الشمس التى تتسلق السماء من خلفنا . إذا كانت الأرض أمنا فالشمس أبونا ، بأشعتها فوق البنفسجية غرست بذرتنا فى أمنا الأرض .

– موش غريبة (سألتُ صاحبتى) أن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية ؟

فتقلصت زاوية فمها اليسرى ، راحت تحدق فىّ حيناً ثم تصعبت ، مجنون يحدثها فى هذا الظرف عن فقه اللغة ؟ . .

ثم رأيت تباشير النوم فى عينيها ، ذبلت أجفانها وتقاربت ، وإلى هذه اللحظة لم أعرف هل هما – عيناها – زرقاوان أو خضراوان . فمددت يدى برفق وجذبت بها يدها المودعة على الرمال ، أدنيتها من شفتى وقبلتها فى حنان وامتنان . وأجفانى أنا الآخر ثقلت وانطبقت ، ما هى إلا لحظة حتى راح كلانا فى سبات عميق .



الفصل الثانى

صَحَوت ولا أدرى كم من الزمن نمت ، ساعتين بالراحة بدليل الشمس التى ارتفعت فى السماء ، شمس الضحى الشابة الساطعة . شمس ساخنة لكنها لذيذة ، ونسمة لطيفة تهب من البحر الصامت . . أين زازا ؟.

تلفت يميناً وشمالا فرأيت شاطئاً رملياً يمتد قليلا ثم ينعطف ويستدير كأننى جالس على رأس جزيرة . ثم نظرت ورائى فرأيت جذعاً هائلا لشجرة مقطوعة وراقدة على الأرض ، كتلة ضخمة من الخشب نزعت عنها كافة الغصون والأوراق ، وبجانب الجذع على الرمال أداة صخرية مسننة تشبه المنشار ، وفوقه طرف قميص حريمى وردى اللون ، قميص زازا الذى لا بد أنها نشرته هناك لكى يجف ، فأين هى بدونه ؟

— زازا (ناديت مستطلعاً) .

— خليك عندك ! (أتانى صوتها من وراء جذع الشجرة محذراً) إوع تيجى هنا ! أنا بانشف هدومى .

فحدثتنى النفس الشقية — مع ضربة قلب جامحة — بأن أنهض لأفاجئها . . لكننى قلت لنفسى « عيب ياواد » !

— كويس إنك صحيت (قال لى صوتها) عشان تمسك لى المراية !

ومن فوق جذع الشجرة برز رأس زازا دون سائر جسمها ، وكان فى يدها مشط تسرح به شعرها الذى كان بلون الذهب .

— ما تيجى !

فنهضت وقصدت إلى جذع الشجرة ، نظرت عبره إلى عينيها فاكتشفت أنهما لاخضراوان ولا زرقاوان . مزيج نادر من اللونين ، كأنني أنظر فى بحيرة عميقة صافية . وأنف سوى مدبب كأنما نحت من العاج ، وشفتان ورديتان دسمتان طوبى لمن التقت بهما شفتاه . ومن وراء الجذع مدت بالمرآة الصغيرة ذراعاً بيضاء عارية ، فتناولتها وثبتها على الجذع أمام عينها . وهنا تنبهت إلى أن هناك شيئاً غريباً . . فسألتها فى دهشة :

— جبتى المراية دى منين ؟! — مرايتى ! (قالت ببساطة) .

— والمشط ؟ — مشطى !

— جايباهم معاكى م المركب ؟

— طبعاً ! أنا مجنونة أنط فى البحر من غير مراية ومشط ؟ !

وتركت المشط لكى ترشق فى شعرها بنسة ، وابتسمت فارتسمت على خدها غمازتان رائعتان .

— وبنس كمان ؟! (سألتها) . — وقلم روج !

— وازاى ماغرقوش ؟ — جايباهم فى كيس نايلون!

— والله عال ، ماكنتى تجيبى التسريحة نفسها !

— ما تهزش المراية !

وانتهت من تسريح شعرها فانخفضت وراء الشجرة واختفت ، ثم ارتفعت وفى يدها قلم الروج الذى راحت تطلى به شفتيها .

— تصور أن الجزيرة دى كلها ما تجيش فدان ؟ (قالت زازا) .

— جزيرة ؟ ! إحنا فى جزيرة ؟

فلم تجب من فورها ، مشغولة بلحس شفتها السفلى . وقالت أخيراً :

— آه مافيهاش مخلوق غيرنا . — ياخبر اسود .

— اسود ليه ؟

ـ قصدى أبيض ، غلطت فى اللون . وحدنا خالص ؟

ـ إحنا وشوية ميتين ! ـ ميتين ؟ !

ـ آه ، ميتين من زمان قوى . ما فيش غير عضمهم ويظهر كان فيهم واحدة ست .

ـ وعرفتى منين أنها ست ؟

ـ لقيت غويشتها ، حتى آهيه !

ولوحت لى بساعدها الأيسر الذى تحيط به غويشة بيضاء من العاج .

ـ تلبسى غويشة واحدة ميتة ؟ !

ـ بأقول لك ميتة من زمان قوى ، وماتهزش المراية كده !

فتصعّبت ولم أدر ماذا أقول لهذه الأنثى اللامعقولة . وسرح بصرى عنها إلى الجزيرة حولنا ، كانت فعلا لا يمكن أن تزيد عن فدان . رقعة أرض مستديرة يحيط بها البحر من كل الجهات ، لا أثر للحياة فيها إلا شجرة بعيدة وكوخ من الخشب .

ـ رحتى العشة دى ؟ ـ آه ، فاضية .

وكانت قد أتمت زينتها فسحبت قميصها واختفت به وراء بجذع الشجرة ، ذراعاها ارتفعتا وهى تدخلهما فى القميص . ثم نهضت ودارت حول جذع الشجرة ، برزت أمامى فى القميص الوردى الشفاف ، باسمة تسير على مهل وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، منظر كان محتوماً أن يبدو أثره على وجهى .

ـ ما لك فاتح بقك كده ؟! (سألتنى بخبث) .

فأقفلت المذكور وأنا أبتلع ريقى . وسألتها : « ممكن أعرف ، كنتى خايفه أشوفك من غير القميص ده ليه ؟! » . . فضحكت وسوت بيدها شعرها ، ومن يدها الأخرى تدلى كيس النايلون الذى يحتوى على أدوات الزينة . وقالت بمرح : « تعال بقى اما أفرجاك على الميتين » !

وسارت ، فسرت وراءها متعثراً فى نبضات قلبى ، أمامى فيما يبدو مستقبل رائع إلى درجة أنه رهيب .

ــ ألذ تفاح عمرى ذقته (قالت وهى تشير إلى الشجرة) .

كتلة رائعة من الخضرة المزينة ببقع التفاح الأحمر ، كأنها شجرة الكريسماس . والشجرة بجانب الكوخ الخشبى الذى كان بابه مفتوحاً ، من خلاله رأيت ما يشبه سريراً واطئا من الخشب ، وبعض الأوعية المنحوتة من الخشب . وبالقرب من الكوخ عين مياه ، وبجوارها تلك الجرة التى حدثتك عنها من قبل . . فسألتها : « دى ميه حلوة » ؟

ــ زى العسل !

ــ غريبة أن جزيرة صغيرة كده فيها ميه حلوة .

ــ ليه ؟ ــ وغريبة كمان إن التفاح يطرح فى الصيف .

ــ إنت كل حاجة عندك غريبة ؟ يمكن تفاح صيفى !

ودرنا حول الكوخ ورأيت العظام التى تحدثت عنها زازا ، وأبرز ما فيها جمجمة كبيرة مقلوبة على وجهها . وحولها تنتشر تشكيلة غريبة من العظام ، عظمة ساق طويلة وأخرى قصيرة ، وجزء من قفص صدرى ، وعظمتان قد تكونان من الذراع ، وعدد من الأصابع . عسير على الإنسان أن يحاول تركيبها فى شخص واحد ، فلا بد أنه كان يوجد فى هذه الجزيرة أكثر من شخص ماتوا وتبعثرت على مر الزمان عظامهم . . وقالت زازا فى إشفاق : « نفسى أعدل الجمجمة المقلوبة دى » !

ــ ليه بقى ؟

ــ موش عجبانى مناخيرها اللى فى الرمل !

ــ هى الجمجمة ح تتنفس ؟

وانحنت زازا ومدت إلى الجمجمة يداً مترددة ، ثم قلبتها بسرعة لكى تواجهنا بابتسامة الموت الرهيبة ، ومكان العينين فجوتان تنبعث منهما رائحة الفناء . . فقلت : « يا ساتر يا رب ! أعوذ بالله » !

— والنبي دمها خفيف ! (قالت زازا) يا ترى كان راجل ولا ست ؟

— وإيه أهميتها بعد الموت ؟ هو الموت فيه دكر ونتاية ؟

— غالباً كان راجل ، جمجمة كبيرة قوى .

— طيب يالله بينا من هنا ، أنا بدنى قشعر !

وابتعدنا وهى تضحك من فزعى ، وقصدت زازا إلى شجرة التفاح فشبت على قدميها وقطفت تفاحتين ، قذفت إلىّ بواحدة منهما وهى تقول : « اشقط » !

— عمرى ما شفت شجرة تفاح واطية كده (قلت لها وأنا آكل) .

وكانت تفاحة كالشهد ، أكلتها وأنا أتلفت حولى إلى البحر العريض الصامت الذى يحاصر الجزيرة من كل جهة . لا أثر للأرض فى أى مكان ، أفق واحد مستدير يحيط بنا إحاطة السوار بمعصم زازا . . وقلت راجياً : « إياك تفوت مركب وتشوفنا » .

— إيه ، السندباد زهق قوام ؟ داحنا ما بقالناش ساعتين .

فتذكرت ساعتى ونظرت إليها فخفق قلبى . شىء غريب يجرى فى ساعتى ، شىء غريب جداً . عقرب الثوانى يجرى على الميناء بسرعة فذة كأنه مكوك لا عقرب ، وعقرب الدقائق يلاحقه بالسرعة التى كان يجب أن يسير بها عقرب الثوانى ، وعقرب الساعات قفز تحت بصرى فجأة من الساعة الرابعة إلى الخامسة ! فلما رفعتها إلى أذنى سمعتها تئز أكثر منها تدق . . فهتفت فى ذهول : « زازا ! ساعتى اتجننت » !

ووضعت الساعة أمام عينيها ، تفحصتها لحظة ، ثم هزت كتفها وقالت باستخفاف « لازم الميه خسرتها » .

— وما وقفتش ليه ؟

فقلبت شفتها السفلى وهزت كتفها من جديد . . فسألتها : « معقول تكون الساعة خمسة » ؟

— يا أخى خسرت (أجابت فى ملل) . — معاكى ساعة ؟



– أعمل بها إيه ؟ تسمح تناولنى تفاحة ؟

فنهضت ومددت يدى إلى تفاحة كبيرة حمراء تتدلى من الغصن نفسه مع تفاحة صغيرة خضراء . . فسألتنى زازا وهى تمضغ : « بقى لك أد إيه ما حلقتش دقنك » ؟

– دقنى ؟ – آه ، طويلة قوى .

فرفعت يدى لأتحسس لحيتى ، ولشد ما كانت دهشتى عندما لمست تلك الغابة الكثيفة من الشعر . . فهتفت : « موش معقول ! دنا لسه حالقها امبارح ! »

– امبارح ؟ دى بتاعة جمعة على الأقل . شوف ؟

وناولتنى المرآة التى نظرت فيها فهالنى ما رأيت ، اللحية النامية والشعر الطويل المنكوش والمنظر الذى يسم البدن . فصرخت : « الحقينى بالمشط ! » . . فناولتنى إياه ، ورحت أعمله فى شعرى وأنا أعجب كيف طال بهذه السرعة المذهلة . وقالت زازا : « وضوافرك عايزة تتقص ، إنت مهمل فى روحك قوى » . . فنظرت إلى أظافرى ، وهالنى أن أجدها هى الأخرى أشبه بالمخالب . فهتفت فى ارتباك : « والله لسه قاصصها من يومين » !

– طب ناولنى كمان تفاحة .

فنهضت لأقطف التفاحة لكننى لم أقطفها ، ووقفت أنظر إلى الشجرة فى ذهول ، متسائلا : « الشجرة دى رخره مجنونة ! »

– بتخرف تقول إيه ؟

– تصورى أن التفاحة اللى كانت صغيرة وخضرة بقت كبيرة وحمرة ؟ !

وحكيت لها الحكاية فهزت كتفها ساخرة : « لازم شفت تفاحة تانية » .

– أبدا والله ، هى بعينها . – طب بلاش دوشة وناولها لى .

فناولتها إياها ، راحت تأكل منها وهى ترمقنى فى استنكار : « إنت دايمًا كده » ؟

ـ دايمًا إيه ؟

ـ دايمًا تاعب نفسك ؟ تشوف حاجات غريبة وتقول كلام غريب ؟ حتى فى البحر تقول لى إن الشمس أبصر إيه مؤنثة ؟ انت إيه !

وابتسمت أجمل ابتسامة بين أجمل غمازتين ، فأدركت فجأة أننى مجنون حقًا حتى أضيع الوقت فى الكلام الفارغ . وتناولت زازا الجرة الشبيهة بالقلة ، رفعتها لتشرب منها وخيوط الماء تسيل على عنقها الأبيض وتتسلل إلى صدرها . منذ حين ـ حيث نمنا على الرمال ـ تناولت يدها وقبلتها فلم تعترض ، يجب فعلا أن أكف عن ملاحظاتى وأفكارى الغريبة . وسألتها : « عارفة إحنا عاملين زى إيه » ؟

ـ إيه ؟ ـ زى اتنين فى صورة كاريكاتير . . المركب اللى غرقت ، والجزيرة الصغيرة فى وسط البحر ، وولد وبنت وحدهم . . فابتسمت زازا ورفعت يدها لتمسح الماء عن عنقها ، ثم أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت تنظر إلى طويلا ، ما زالت تبتسم . متكئة براحتيها على الرمال ، رأسها مال على كتفها وهى تنظر إلى وتبتسم ، عيناها بحيرتان صافيتان فيهما نظرة نداء . فركعت بجانبها خافق القلب ، أدنيت وجهى من وجهها وملأت صدرى من عبيرها . وسألتها هامسًا : « قلتى شانيل » ؟ . . فأجابتنى باسمة : « قلت أربيج » ، . . فطبعت قبلة صغيرة على شعرها . لم تعترض . فمددت يداً مرتعدة ألمس بها كتفها العاجية ، ويداً ثانية إلى الكتف الأخرى ، هممت بأن أضمها إلى صدرى لكننى لم أفعل . كيف أفعل وقد وقع بصرى فجأة على ذلك المنظر الغريب ، منظر الرأس البشرية التى أطلت فى حذر من وراء الكوخ القريب متلصصة علينا ؟

الفصل الثالث

أوهمني الفزع للوهلة الأولى أنه عفريت يسكن الجزيرة ، أو أنه صاحب الجمجمة وقد دبت فيه الحياة فجأة ، ثم اتضح لى أنه لا هذا ولا ذاك . إذ برز من وراء الكوخ فعرفت فيه الشاب الأسمر الذى كان مصاحبًا لزازا على السفينة ، « توتو » إذا ارتضينا هذا الاسم لشاب طويل عريض برنزى اللون ، مفتول العضل فى رشاقة تؤهله لبطولة كمال الأجسام . وجهه وسيم وشعره أسود فاحم ، والماء يقطر من جسمه بما يدل على أنه قد خرج لتوه من البحر . لباسه الوحيد مايوه عادى أسود ، فهل كان ينام بالمايوه ساعة غرق السفينة ، أم تراه قد ارتداه لزوم سباحة المسافات الطويلة ليجمع بين الغرق والرياضة ؟ لاشك أنه وغد إذ اختار هذه اللحظة ليطلع لى من البحر ، أنا الذى كنت على وشك أن أطبع قبلتى الأولى على خد زازا . فلعلك تعذرنى إذا أحسست بالبغض الشديد له ، وأسفت من أعماق على أننى لا أملك مسدسًا أقتله به ! . .

لكن شعور زازا كان مختلفًا عن شعورى ، ما كادت تلتفت وتراه حتى نهضت كالمجنونة تجرى نحوه ، هاتفة فى فرح : « توتو ! توتو ! توتو ! » . . وألقت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به تقبله : « أنا افتكرتك غرقت يا توتو ، سلامتك ياحبيبى » ! . . فراح يطبطب على ظهرها مطمئنا إياها على سلامته ، ومن فوق كتفها انفغر فمه عن ابتسامة عريضة لمعت خلالها أسنان قوية بيضاء : « تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا » !

هذا كل ما علق به على ترحيبها به ، بصوت تينور عميق يوحى بالثقة بالنفس . . فسألته : « إنت لسه طالع م البحر دلوقت » ؟

— تزاتزا . (أجابها) . — لازم تعبان قوى يا مسكين .

— تزاتزا !   — ما تقعد ترتاح ؟
— تزاتزا !   أهذه هى الكلمة الوحيدة التى يعرفها ذلك الوغد ؟
— تعال أما أعرفكو ببعض (قالت له زازا) .

وجذبته نحوى وأقبل يصافحنى ، دقيقة كاملة وهو يعصر يدى يكاد يفعصها ، ويهز ذراعى يكاد يخلعها ، ويبتسم طبعاً . . فسألت زازا : « هو ما بيعرفش يتكلم » ؟

— بيعرف طبعاً ، بس لغة معرفهاش . — هو جنسيته إيه ؟
— ما قالليش ، وأنا يهمنى إيه من جنسيته ؟

وطبطبت على صدره ، فقال « تزاتزا » ، كأنه عروسة من عرائس الأطفال التى تضغط عليها فتقول « ماما » ! . . فسألتها : « جربتى تكلميه إنجليزى » ؟

— وفرنساوى ، مافيش فايدة .
— إمال عرفتى منين أن اسمه توتو ؟
— أنا اللى سميته كده !   — يعنى مابتتكلموش خالص !
— ونتكلم ليه ؟   — بتحبيه كتيمى ؟
— لو تعرفه زيى كنت تلاقى مفيش لزوم للكلام ! أجيب لك تفاحة يا توتو ؟

ومدت يدها إلى الشجرة فقطفت له تفاحة لم تأخذ منه — والله — سوى قضمة واحدة . وفى دقيقة لا غير كان قد التهم سبع تفاحات دون أن يبصق منها بذرة . ثم رأى الجرة فرفعها إلى فمه وراح يجرع ، لم يتركها إلا خالية . ثم تكرع ومد يده ليقطف التفاحة الثامنة .

— ياعينى (قالت زازا) ، ده جعان بشكل !
— بالسم إن شاء الله ! (قلت أنا) .

وبينما هو يرفع يده نحو التفاحة التاسعة لاحظت للمرة الأولى أن فى معصمه ساعة ، فسرعان ما كنت أقرب منه ..

— قولى له يوريني ساعته ، (قلت لزازا) .

— هات إيدك ياتوتو .

وناولتنى معصمه لكى أنظر فى ساعته ، ويبدو أنها كانت هى الأخرى وتر بروف ولذلك لم تتوقف ، ولكنها كانت تدور بنفس سرعة ساعتى . عقرب الثوانى يجرى بسرعة كالمكوك ، وعقرب الدقائق يلهث وراءه لكى يلاحقه .

— شايفة ساعته ؟ هى كمان اتجننت !

فنظرت إليها ولم تزد على أن هزت كتفها كما فعلت من قبل .

— خسرت زى ساعتك (قالت فى استخفاف) .

— وفيه حاجة تانية غريبة ، ساعته مضبوطة على ساعتى ، الاتنين ستة ونص وخمسة . بص كده ياسى توتو ؟

وأدنيت الساعة من عينيه فراح يحملق إليها حيناً فى بلاهة ثم ابتسم .

— تزاتزا ! (قال توتو) .

— موش شايف فيها حاجة غريبة ؟ (سألته فى غيظ) .

فنظر إلى زازا حائراً . فقالت له « ماتاخدش بالك منه ، أصله تعبان شوية . تيجى أفرجك على الجزيرة ؟

وجذبته من ذراعه فلم ينجذب ، بل جلس على الأرض ودعاها إلى الجلوس بجانبه فجلست ، ذراعه امتدت وأحاطت بكتفها فلم تعترض ، بل مدت بوزها — السافلة — إلى خده الأسمر وقبلته .

— إيه قلة الحيا دى ؟ ! (صرخت فيها ثائراً) .

— شىء بارد ! (أجابتنى وهى تنظر إلى من فوق لتحت) ، إنت مالك ؟

— يعنى إيه أنا مالى ؟ !

— أنت جوزى ؟ أبويا ؟ لك حقوق على ؟ !

— لأ ، (أجبتها فى كبرياء) ، بس من شوية كنت أنا اللى بابوسك !

فلم تجبنى ، وابتسمت له وقبلته ثانيًا . فلعلك تعذرنى إذا بدأت أغلى من جديد ، كل خلية فى جسمى تهيب بى أن أهجم عليه وألقى به إلى البحر الذى طلع منه، لكننى كنت دائمًا حكيمًا . نظرت إلى طوله وعرضه وعضلاته وأدركت أن الهجوم على ثور كهذا لا يخرج عن كونه عملية انتحارية محضة . ويبدو أن الوغد قرأ خواطرى ، إذ فتح جيبًا فى المايوه وأخرج منه خنجراً لامعًا من النحاس الأصفر ، بسط راحة يده وراح يسنه عليها وهو يرمقنى بابتسامة صفراء . خنجر جميل مزين بالنقوش ، حلية تصلح للمتاحف لكنها تصلح للقتل أيضًا . فاكتفيت — أنا الحكيم — بأن نظرت إليه فى ازدراء ثم أوليته ظهرى وواجهت البحر .

— قوم أفرجك ع الجزيرة قوم ، (أتانى صوت زازا) .

يبدو أنها قد خشيت وقوع الصدام بيننا فآثرت أن تسحبه من هنا ، ترى هل خافت على ؟ والتفت لأراهما ينهضان ويبتعدان وهى تتأبط ذراعه ، تابعتهما بنظرة تقطر مرارة وحسداً . ضاعت منى زازا ، اللقمة الطرية اللذيذة خطفها الوغد من فمى خطفًا . . حزينًا جريحًا جلست تحت شجرة التفاح ، لكن الحزن — مثل الخوف والغضب — لم يكن من شأنه قط أن يفقدنى صفاء ذهنى . رفعت بصرى إلى الشجرة وقلت لنفسى يجب أن أكتشف سرها . سوف أثبت عينى على هذه التفاحة الصغيرة الخضراء ، ولا أرفعها عنها حتى أستوثق من أنها لن تتحول — كما خيل إلى من قبل — إلى تفاحة كبيرة حمراء . فاستلقيت على ظهرى عاقداً يدى تحت رأسى ، ورحت أرقب التفاحة . هى ما زالت صغيرة خضراء لم يطرأ عليها تغيير ، لكن شيئًا طرأ على أنا . وجدتنى أتثاءب وقد حل بى تعب مفاجىء ، وجفونى ثقلت وبدا من أمرى أننى سأنام . أليس غريبًا أن يدهمنى النوم وأنا الذى صحوت من ساعتين على الأكثر ؟ بصعوبة شديدة نزعت يدى من تحت رأسى ومددتها إلى التفاحة ، بظفرى أحدثت بها شقًا صغيراً أعلمها به ، ثم تثاءبت واستسلمت للنوم .

الفصل الرابع

صَحَوت وفى أنفى رائحة نار ودخان وشيء يشوى ، ومن خلال عين نعسانة رأيت كومة من الأخشاب المشتعلة وفوقها عدد من الأسماك التى يقلبها توتو بسن خنجره اللامع . فلما أحس بنظراتى إليه بادلنى إياها وهو — عليه اللعنة — يبتسم . فجلست أتلفت حولى وأنظر إلى الشمس التى مالت إلى الأفق الغربى ، نمت إذن قرابة ساعتين . وبالنظر إلى ساعة يدى وجدتها ما برحت تدور كالمجنونة ، وقفز عقرب الساعات فجأة ليسجل الساعة الثانية عشرة !

جذبنى صوت زازا وهى مقبلة من ناحية البئر بالجرة التى ملأتها ، تهتز فى يدها وهى تسير فتتساقط قطرات الماء على الرمال .

— السمك ده منين ؟ (سألتها مستفسراً) .

— البركة فى توتو ! (قالت فى فخر) .

— تزاتزا ! (قال المذكور) . — هو اللى اصطاده ؟

— وهو اللى ولع النار ربنا يخليه !

وشرحت لى كيف وقف فى البحر ساعة يصيد بخنجره هذا السمك ، ثم انتزع قطعة من جذع الشجرة المقطوع وراح يحكها بالخنجر حتى اشتعلت ، ثم جلس ليعد هذه الوليمة الفاخرة .

— كل ده وحضرتك نايم تشخر ! (اختتمت كلامها ساخرة) .

فزغرت لها ولم أجب ، فى حين جلست هى رافعة مرآتها الصغيرة أمام وجهها .

— ده كل اللى عمله وأنا نايم ؟ (سألتها فى ريبة) .

— اللاه ! هتفت متجاهلة ، ريحة السمك حلوة بشكل !

وكانت رائحته شهية حقـًا ، ترى هل يجود اللعين على بسمكة ؟
— باقول لك الراجل ده كله فوايد، قالت زازا، مش كده ياتوتو ؟
— تزاتزا ! أجابها باسمـًا .
— ناكل سمك ونحلى بتفاح ، (أضافت) ، فيه حاجة ألذ من كده ؟
وذكرت التفاحة التى علمتها فرفعت بصرى إليها ، وما توقعت أن أراه رأيته . التفاحة الصغيرة الخضراء قد تحولت خلال نومى إلى تفاحة كبيرة حمراء ، وعلى قشرتها نفس الشق الذى أحدثته بظفرى . وبالتداعى نظرت إلى أظافرى فتأكدت أنها طالت بدرجة مذهلة . قلت لها : « تسمحى لى بالمراية » ؟

فناولتنى إياها ورفعتها أمام وجهى فكدت أصعق . لحيتى غابة كثيفة ، وشعرى متهدل كأننى لم أحلقه منذ شهور ، وفيه نسبة من الشيب لا أذكر أنها كانت هناك من قبل ، أكاد أقسم وأنا أتأمل وجهى إننى قد كبرت سنتين . (قلت لها وأنا أعطيها المرآة) : « خدى ! اوعى تخلينى أبص فيها تانى ! »

ونظرت إلى توتو فلاحظت أمراً فاتنى ، لحيته هو الآخر قد نمت مع أنه لم يكن فيها — حين برز من البحر — شعرة واحدة . كانت الساعتان كافيتين لكى تطول لحيته ، كما وقع لى فى أول ساعتين لى فى الجزيرة .
— زازا (قلت لها يائسـًا) الجزيرة دى مسحورة !
— والله ؟ (سألتنى فى سخرية) — والله مسحورة ! بصى لدقنى وشعرى وضوافرى ، وبصى لدقنه وشعره وضوافره !
فنقلت النظر بيننا حينا ثم هزت كتفها .
— كل الدقون وكل الشعور وكل الضوافر دايمـًا تطول .
— بالسرعة دى ؟ فقلبت شفتها فى غير احتفال . فقلت : « طب والتفاحة دى » ؟
وحكيت لها حكاية التفاحة التى علمتها فلم تثرها بدورها .

— لازم علمت تفاحة كبيرة وانت مش واخد بالك .

فيئست من إقناعها ، ونظرت إلى ساعتى لكى أرى عقرب الساعات وهو يقفز من الثانية عشرة إلى الواحدة .

— يا حلاوة ! هتفت زازا ، السمك استوى .

وتركت المرآة وخفت إلى السمك الذى بدأ توتو يغرس فيه سن الخنجر ليرفعه من على النار ، ويودعه على فرشة من ورق الشجر كان قد أعدها لذلك . فمدت زازا يدها إلى السمك ثم جذبتها سريعاً وهى تطرقع أصابعها متأوهة ، فى حين أطبق الوغد على أكبر الأسماك وراح يمزقها بسهولة كأنها خارجة من الثلاجة .

— ماتيجى تاكل (قالت زازا) مستنى عزومة ؟

فهززت رأسى ناظراً إليها فى كبرياء .

— موش أنا اللى أبيع كرامتى بأكلة سمك !— إنت حر ، توفر .

لكن توتو لم يفهم المسألة على أنها كرامة ، إذ رأيته ينتقى سمكة كبيرة ويضعها وحدها فى ناحية ، مشيراً إليها وإلىّ بما معناه أنها سمكتى آكلها حين أجوع ، فأصارحك القول بأنها كانت لفتة جعلتنى أبدأ فى مراجعة مشاعرى نحوه . هو عمل واجتهد وتعب وأنا نائم ، فماذا يجبره الآن أن يختصنى بهذه السمكة الكبيرة ؟ فرحت أرقبه وهو يلتهم السمك وخيل إلى أننى لم أعد أبغضه ، بل خيل إلىّ مدى لحظة أننى قد بدأت أميل إليه . ما ذنبه إذا كان قد عرف زازا قبل أن أعرفها أنا ؟

— أما سمك ! (هتفت زازا وهى تمضغ) .

لكننى لن آكل سمكتى الآن ، سأنتظر حتى أنفرد ثم آكلها ، دقائق قليلة وكان توتو قد أتى على السمكة الثانية فنهض وقصد البحر ليغسل يديه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح وبدأ يقطف وينهش . عسى أن تكون هذه الشجرة مطابقة لفكرتى عنها فى سرعة النماء وإلا فما هو إلا يوم آخر ونجد أنفسنا بلا تفاح ، ويصبح اعتمادنا كاملا على السمك

الذى يصطاده هو . فلما رآنى أراقبه تبسم ثم تجشأ ، ثم جلس على الأرض مسنداً ظهره إلى جذع الشجرة . ثم انفغر فمه كالكهف وهو يتثاءب ، ورأيت عينيه حمراوين خلال جفونه التى بدأت تثقل ، فى حين مال رأسه على صدره مرتين . ثم مال هو نفسه على جنبه واستلقى على الأرض ، ورأيته يمد يده إلى جيبه ليتحسس الخنجر ، توطئة لأن ينقلب على الجنب الآخر ليجعل الخنجر محصوراً بينه وبين الأرض ، ما زال الخبيث يشك فى نواياى . وما هى إلا لحظة حتى رددت شخيره أرجاء الجزيرة ، فلن يكون عجيباً لو أنه لفت إلينا أسماع سفينة عابرة .

— انت ح تأكل سمكتك ولا آكلها أنا ؟ (سألتنى زازا منذرة) .

— لا ياشيخة ! والنبى ؟

وهجمت على السمكة أنهشها لحماً وجلداً وتقريباً شوكاً .

— أمال كرامتك راحت فين ؟ (سألتنى ساخرة) .

— السمك ما يتعارضش مع الكرامة لما يكون مشوى ! (قلت لها وأنا أنهش) . فضحكت زازا وأسعدتنى ضحكتها . وبينما أمضغ وأبلع رأيتها تنظر إلى طويلا وهى تبتسم .

— انت منغاظ قوى من توتو ؟ (سألتنى بعد حين باسمة) .

— ده وقت يطلع لى فيه ابن الإيه ؟ ! (سألتها وأنا أخرج شوكة من أسنانى) .

— معلهش (قالت زازا بمكر) أنا أصالحكم على بعض .

ثم تثاءبت ورفعت ذراعيها تتمطى .

— آخ ! الأكل خلى النوم يكبس على .

وتثاءبت ثانية وانطرحت على جنبها ، ضمت ركبتيها إلى بطنها وعقدت ذراعيها على صدرها ، تكورت كقطعة صغيرة نائمة .

فما هى إلا دقيقة حتى انتظمت أنفاسها وانفغر فمها فى بلاهة النوم .

فلآكل سمكتى ، آه لو كان معها رغيف وحبة ملح وصحن طرشى !

الفصل الخامس

انتهيت من السمكة فاتجهت عيني إلى زازا النائمة وراحت تتفسح هناك ، الكيان الرائع الذى كان يمكن أن أحوزه لولا ذلك الوغد النائم تحت الشجرة . زازا تتنفس فيرتفع القميص الوردى على صدرها ثم يهبط فى إيقاع فاتن ، وشعرها المبعثر على الرمال خيوط من ذهب . والشمس وراءها قد انحدرت نحو الأفق البعيد وصبغته بحمرة الشفق ، التى الشفق بقميص زازا فى مزيج من الحمرة الخالدة .

المرآة ملقاة بجانبها لكننى لن أقربها ، صورتى التى رأيتها فيها شيء لا يطاق . لماذا تطرأ تلك التغييرات على أنا وتوتو ، فى حين تظل زازا كعهدها ؟ لماذا لم يطل شعرها أو أظافرها مثلنا ؟ إنى أريد أن أرتب أفكارى ، وهى لن تترتب طالما أنا أنظر إلى زازا النائمة ، فلأقم من هنا .

قمت أتمشى فى الجزيرة وأفكر . أتكون هذه الجزيرة — تساءلت — مسحورة حقاً كما قلت لزازا ؟ فمتى كانت توجد الجزر المسحورة خارج حواديت ألف ليلة ؟ ومع ذلك فالساعات فيها تجرى بسرعة فذة كأنها تسابق الزمن ، واللحى والشعر والأظافر تنمو بجنون ، والتفاحة الصغيرة الخضراء تصبح فى ساعتين كبيرة حمراء . كل شيء يجرى بسرعة مذهلة ، فهل يمكن أن يكون لهذه الجزيرة — لسبب ما — زمنها الخاص بها وحدها ؟ أشياء كهذه قرأت عن احتمال حدوثها فى كوكب آخر غير كوكبنا ؟ فهل يمكن أن يختلف زمن جزيرة واحدة عن زمن سائر الجزر فى كوكب واحد ؟

وصلت فى تجوالى إلى جذع الشجرة الراقد على الأرض وبجانبه المنشار الصخرى . أناس عاشوا هنا وقطعوا هذه الشجرة ، فلماذا

قطعوها ؟ وعلى السطح العلوى للجذع آثار لأدوات بدائية عملت فيه بالحفر والنحت ، فماذا كان أولئك الناس يقصدون ؟ هل كانوا — مثلا — يحاولون تفريغ جذع الشجرة وتحويله إلى زورق كبير ؟ إذا كان هذا هدفهم فلماذا بدأت عمليات النحت ثم توقفت ؟

واتجه ذهنى إلى العظام وراء الكوخ فسرعان ما كنت أقصد نحوها ، شىء ما فى قبحها الرهيب يجذبنى إليها . وهناك واجهتنى الجمجمة وقد انفغر فمها بابتسامة الموت المفزعة . ترى من كان صاحب تلك الجمجمة ، وهل هو الذى وقف يوماً يعمل بتلك الأدوات الصخرية فى جذع الشجرة ؟ وما هذا الشق فى أعلى الجمجمة ؟ هل تلقى الرجل قبل أن يموت ضربة قاتلة ؟ رعدة سرت فى بدنى فابتعدت عن المكان ، وقصدت إلى موضعى الأول ورحت أرقب الرجل والمرأة النائمين . هنا لحم ودم وحياة ، خاصة تحت هذا القميص الوردى . أمعقول أن الغويشة التى أخذتها زازا كانت لأنثى مليئة بالحياة مثلها ، رفعت بالغويشة يدها لكى تسوى شعرها وفى عينيها نظرة نداء ؟ ألا ما أتعس تلك الأنثى لو أنها لم تستمتع بكل لحظة من حياتها .

نزعت عينى عن زازا وصوبتها إلى اللعين توتو حيث ينام تحت الشجرة وسط زوبعة من الشخير ، ترى ماجنسيته ومن أى بلد جاء ؟ بسهولة جداً يمكن أن يكون هندياً من آسيا ، وبسهولة جداً يمكن أن يكون هندياً من أمريكا ، وربما كان مغولياً أوسلافياً أو حتى آرياً مولداً ، من الممكن أن يكون أى شىء . ومهما كان من أمره فنحن رجلان ومعنا أنثى واحدة . أنا الآن لا أكرهه ولكنه لا يثق بى ، الرجل للرجل إما صديق محبوب وإما منافس مرهوب ، والله لأقول هذه الحكمة لزازا . فجدير بى أن أجعله يحبنى أو يرهبنى ، أو على الأقل يحترمنى . يجب أن أحوز صداقته ولو عن طريق المغامرة . كان قد انقلب على الجنب الآخر الذى يكشف عن جيب المايوه حيث يوجد الخنجر ، فمه مفتوح

فى بلاهة وهو يغط ، فماذا لو قصدت إليه فانتزعت الخنجر من جيبه ؟ هى مغامرة خطيرة بلا شك ، لو انتبه إلىّ لكان فى ذلك نهايتى . سيظن أننى أريد أن أقتله ، ويكون معذوراً إذا هو سبق إلى قتلى . مغامرة رهيبة ، معركتى مع هذا العملاق الأسمر ، لكنها ضرورية .

على أطراف أصابعى تسللت نحوه ، أكاد أسمع بأذنى دقات قلبى . وفى الطريق توقفت على صوت سمعته لكنه لم يكن إلا صوت زازا وهى تحلم . خطوتين أخيرتين وأشرفت على الرجل النائم ، ما أعجز الرجل حين ينام . جثوت فى حذر بجانبه ، ومددت إلى جيب المايوه يداً ترتعد . جسمى كله يرتعد من إحساس المغامرة ، المهندس المسكين الذى لم يعرف المغامرة إلا على الورق . ثم دسست إصبعين متوترتين فى جيب المايوه ، وعرق بارد تصبب على وجهى . بالإصبعين قبضت على سن الخنجر وسحبته برفق ، كاد قلبى يتوقف عندما رأيت الرجل يتحرك . تفزز فجأة وزمجر ، ورأيت الموت فى عينيه المقفلتين . كان فيما يبدو يحلم ، ترى أى أحلام عجيبة تدور فى تلك الدماغ الغامضة ؟ تفزز ثانياً ثم سكن ، وعادت أصابعى إلى سن الخنجر ، جذبته برفق حتى أخرجته من جيب المايوه ، ووقفت به وأنا ألهث . بالخنجر أقف بجانب الرجل النائم ، سيد الموقف ومالك زمام الأمور . بضربة واحدة أستطيع أن أقتله وتصبح زازا والجزيرة كلها لى . ضربة واحدة ويتحول هذا الجسم النابض إلى جثة هامدة ، وعدة أيام أخرى ويصبح فى الجزيرة هيكل جديد .

أفكار ألوكها وأنا أعرف أنها مضحكة ، لست أنا الذى يقتل الرجل نائماً كان أو صاحياً . لم أستطع أن أبغضه فهل أستطيع أن أقتله ؟ لكننى سعيد بنجاحى فى المغامرة ، فرحة صبيانية ترقص فى صدرى . لماذا لا أقص أظافرى طالما أن الخنجر فى يدى ؟ قصصتها ثم خطر لى أن أحلق لحيتى وعند ذلك عرفت فائدة الصابون . أمكننى أن

أشذبها فحسب ، أما حلقها فمستحيل . ولماذا أحلقها وسوف يصبح لمنافسى بعد حين لحية مثلها ؟ إنى لأنظر إليه فيخيل إلى أنها تنمو تحت بصرى ، مثل التفاحة المتدلية من الشجرة فوق رأسه . فرشقت الخنجر فى الأرض على مقربة من الرجل النائم ، وعدت لأجلس فى موضعى الأول أمام زازا . هى تنقلب على جنبها ، تفتحتا ونظرتا إلى الرمال ، ثم حادت ببصرها إلىّ . ثم استوت جالسة تستوعب الدنيا ، وبسطت ذراعيها تتمطى .

— أنا نمت كتير ؟ (سألتنى متثائبة) . — موش قوى .

— وانت قاعد هنا من كتير ؟ — برضه مش قوى .

— طب هات لى أشرب .

فقصدت إلى الجرة وفى طريقى مررت بالخنجر المرشوق فى الأرض . ثم عدت فوجدت عينيها مصوبتين إلى الخنجر ، تنقل النظر بينى وبينه فى دهشة .

— إيه اللى طلع الخنجر ده ؟ (سألتنى) .

— أنا ، (أجبتها فى بساطة) .

— ليه ؟ — فابتسمت فى غموض وناولتها الجرة ، لكنها لم تشرب .

— ليه ؟ (سألت ملحة) .

— علشان أقص ضوافرى ، قلت باستخفاف وأنا أجلس بجانبها .

فراحت تتفرس فىّ حيناً ، تنقل النظر بينى وبين الخنجر وصاحبه النائم ، تقلب فى ذهنها مختلف الاحتمالات .

— أنت شخص غريب ، (قالت لى حين فهمت) .

فعربدت الفرحة فى صدرى أكثر من قبل ، رأيت فى عينى زازا نظرة احترام ، عرفتنى على حقيقتى أو على الأقل كما يجب أن أكون . لست ذكياً وشجاعاً فحسب ، وإنما نبيل أيضاً . أسلب غريمى سلاحه ثم

أرده إليه ، جنتلمان فى البر والبحر وكل مكان .

— كلت السمكة ؟ سألتنى وهى تتلفت حولها .

— آه .

— اخص عليك ، (قالت فى دلع) ، موش كنت تخلى لى حتة ؟

— حقك على ، (قلت لها) ، كنت جعان قوى .

ورفعت الجرة وشربت ، خيوط الماء سالت من جديد على عنقها وتسللت إلى صدرها .

فلما أنزلت الجرة مددت إصبعًا إلى عنقها العاجى أمسح الماء ، نظرت فى استسلام وابتسمت .

— انت حلقت دقنك كمان ؟

ومدت يدها تتحسس وجهى ، فجذبت يدها إلى شفتى وقبلتها . ونظرة حنان سبحت فى بحيرة عينيها ، فأدنيت شفتى من وجنتها وطبعت قبلة مرتعدة . « أحبك يازازا » ، (قلت لها) ، « أحبك » ، وهممت بأن أطبع قبلة ثانية فابتعدت قائلة : « توتو صحى » !

فتابعت نظرتها لأراه جالسًا يدعك عينيه من النوم ويتثاءب ، ثم امتدت يده بحركة لا شعورية إلى جيب المايوه . لم يكن الخنجر هناك طبعًا ، وهو ما يفسر نظرة الفزع التى ارتسمت فى عينيه . ثم وقع بصره على الخنجر المرشوق فى الأرض ، حملق إليه فى ذهول ثم نقل بصره إلىّ أنا ، ثم إلىّ الخنجر ثم إلى كأنه لا يصدق عينيه . وبسرعة خطفه من الأرض وراح يتأمله محاولا أن يستوعب الموقف . فلما نظر إلى فى المرة التالية تبسمت له ، فظل يرمقنى مدى حين فى دهشة ثم ابتسم . ثم وقف وهم بأن يضع الخنجر فى جيبه لكنه عدل ، ألقى الخنجر ورشقه فى الأرض كما كان .

— تزاتزا ! (قال بلا مناسبة وهو يبتسم) .

ونظرت إلى زازا فوجدتها هى الأخرى تبتسم ، ثم تحولت ابتسامتها

إلى ضحكة فرح ، موجة سعادة غمرتنا كلنا فجأة . وقصد توتو إلى البحر ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح فقطف ثلاث تفاحات ، اثنتان منهما قذف بهما إلينا وهو يتبسم . ثم أولانا ظهره وابتعد ، عملاق برنزى جميل مرسوم على الأفق الأحمر . إلى جذع الشجرة المقطوع ذهب ، دار حوله واختفى . ثم ارتفع صوته بأغنية غريبة ، بصوت تينور عميق مطرب ، فالتفت إلى زازا وابتسمت . ضوء الشفق الأحمر يصبغ وجهها بسحر عجيب ، فضممتها إلى وقبلتها ثلاث قبلات . فإنى لأهم بالقبلة الرابعة إذ انقطعت أغنية توتو فجأة وصدرت منه صرخة نشاز ، فنظرت لكى أراه واقفاً يلوح بذراعيه إلى البحر ويصرخ . وفى البحر كان شيء يتحرك ، نعم شيء يتحرك فى البحر . فوثبت زازا لترى ماذا هناك ، فى حين أقعدتنى عن الوقوف خيبة أمل قاتلة . صرخت « ياعالم ! ياهوه ! هو أنا كل ماجى أبوسك يطلع لى م البحر غريق ؟ ! » فضحكت زازا ونكشت بيدها شعرى ، ثم انطلقت تجرى إلى البحر .



الفصل السادس

كان منظراً غريباً حقاً ، ذلك الذى رأيناه يقترب منا فى ضوء الشمس الغاربة . رجل جالس — متربع — على ما يشبه خشبة كبيرة طافية ، والخشبة تنزلق على الماء وحدها بدون أن يبذل الرجل أى مجهود . فلما اقتربت منا أدركنا ما الذى يحركها ، عندما سمعنا صوت يد تضرب الماء ووقع بصرنا على الرجل الذى يسبح خلف الخشبة ويدفعها إلى الأمام . فلما اقتربت أكثر سمعنا صوته وهو يلهث وينهج ويعتل كشيال يصعد السلم بحمل ثقيل .

— شد حيلك ياكرشة ! قال الرجل الجالس مستحثاً ، خلاص فاضل خطوتين .

فلما صار الراكب قبيل الشاطئ بخطوة أدلى الرجل الجالس ساقيه من فوق الخشبة ونزل فى الماء ، شامراً إلى أعلى ذيل جلبابه الأبيض الفضفاض ، ثم خرج إلى الشاطئ فترك الجلباب يتدلى ورفع يديه إلى السماء .

— الحمد لله رب العالمين ! الحمد لله رب العالمين ! ألف حمد وألف شكر لك يارب ، ألف حمد وألف شكر . الحمد لله رب العالمين !

رجل طويل عريض أبيض يناهز الأربعين ، فى وجهه مسحة من المهابة رغم زراية منظره العام فى الجلباب نصف المبتل . وبينما وقف يردد أدعيته كان الرجل الآخر قد خرج من الماء وتهالك على الأرض وهو يلهث ، وكان هو الآخر يلبس جلباباً من قماش رخيص مخطط . أسمر اللون قصير ، إلا أنه عريض الكتفين سميك الرقبة كأنها رقبة ثور . جبهته ضيقه مائلة إلى الوراء ، وصدغان عريضتان وشفتان

غليظتان ، وبلاهة عامة فى وجهه الأسمر الجلف . ثم كف الرجل الآخر عن الأدعية وصوب عينيه إلينا ، راح ينقل بيننا نظرات مسترِيبة مع اختصاص لزازا بنظرة أطول نوعـًا .

ـ سلامو عليكم ، (قال لنا بصوت غليظ تشوبه بحة) .

فرددنا السلام .

ـ حضراتكو من أهل البلد دى ؟

فشرحت له مالا يعرف من أمر البلد ، كيف أنها جزيرة لا بلد ، وكيف أننا كنا مثله فى الباخرة التى غرقت . ثم عرفته بنفسى وعرفنى بنفسه ، الحاج طلبة حسنين من ذوى الأملاك .

ـ وسيادته ؟ سألنى الحاج طلبة مشيراً إلى توتو .

ـ ده واحد غرقان زى حالاتنا ، (أجبته) ، ما بيعرفش عربى واسمه توتو .

ـ طوطو ؟ ! هتف المدعو كرشه ، إلا طوطو دى !

وكان صوته غليظـًا قبيحـًا ككل شىء فيه .

ـ يعنى ماهوش مسلم ؟ (سألنى الحاج مواصلا اهتمامه بتوتو) .

ـ والله معرفش ، لغاية دلوقت ماشفتوش بيصلى !

فابتسمت زازا وسرنى أنى تسببت فى ابتسامتها .

ـ والهانم جماعتك ؟ (سألنى الحاج) .

سؤال محرج كما ترى ولذلك تظاهرت بأنى لم أسمع .

ـ أفندم ؟ (تساءلت) . ـ باقول الهانم جماعتك ؟

ـ أ . . أيوه ، (أجبته بعد لحظة تردد) .

ونظرت إلى زازا فخيل إلىّ أننى رأيت فى عينيها نظرة اعتراض ، والحقيقة أننى لا أدرى لماذا قلت أيوه . ربما كان ذلك لأننى أردت أن أعطيها مركزاً اجتماعيـًا يحميها من تطفل الأغراب ، وربما لأننى وجدتها فرصة صالحة لاكتساب حق رسمى فى التبسط معها علنـًا .

— طيب يا أخى موش تلبسها حاجة تسترها ؟ سألنى الحاج طلبه فى لهجة لوم يشوبه ازدراء .

— والله كنت أحب ألبسها ، أجبته ساخراً ، بس أصلنا نسينا نجيب معانا دولاب الهدوم !

فزغر لى الحاج ثم وقف حيناً يفكر .

— كرشة ! (قال أخيراً) ، إقلع جلابيتك !

فالتفت الآخر إليه فى دهشة حيث جلس على الأرض .

— هه ؟ تساءل فى بلاهة . — بأقول اقلع جلابيتك .

— جلابيطى ؟ — آه ، عشان الست تلبسها .

فتردد كرشه لحظة ثم نهض ليخلع الجلباب ، كشف عن صدر عار غزير الشعر كصدر الغوريلا ، وعن كتل غليظة من العضلات المكدسة على ذراعيه وكتفيه كأنه ممن « يشيلون» الحديد . والحمد لله أنه كان يلبس تحت الجلباب سروالا أسود ذكرنى بسراويل أهل الإسكندرية .

— أما الجلابية تنشف خلى الست تلبسها ، قال لى بلهجة الأمر وهو يناولنى الجلباب .

— أنا ألبس الجلابية دى ؟ ! صرخت زازا فى استنكار .

فلم يجبها الحاج إلا بنظرة قاسية أسكتتها .

— أيوه يازازا ، (قلت لها أنا بلهجة حزم زوجية) ، موش أحسن ماتبى عريانة كده ؟

فزغرت لى ولم تقل شيئاً .

— مافيش هنا حاجة تتاكل ؟ (تساءل كرشة فجأة) .

فأشرت إلى شجرة التفاح ، فقصد إليها بسرعة وهو يدب على الأرض وقد تدلت ذراعاه كالغوريلا . أما الحاج طلبة فتربع على الأرض وشرع يخرج محتويات جيوبه . أخرج أول ما أخرج سبحة من الكهرمان

وضعها بجانبه على الرمال ،، فقلت فى نفسى هذا والله رجل ورع يستحق الاحترام . ثم أخرج شيئاً تبينت أنه دفتر صغير من نوع ما .

– كل حاجة اتبلت ، قال الحاج طلبة متأففاً ، حتى دفتر الشيكات .

دفتر شيكات ؟ إنه إذن يستحق الاحترام جداً . ثم أخرج الشيء الثالث الذى عرفت منه أننى لن أستطيع أبدا أن أفيه حقه الكامل من الاحترام – أخرج مسدساً كبيراً أسود فتحه وسحب منه مشط الرصاص ليفحصه ، ثم رد المشط إلى المسدس ورفع فوهته إلى أعلى . طراخ ! رددت الجزيرة دوى الرصاصة التى أطلقها ، فشهقت زازا فى ذعر وتوترت عضلات توتو الذى وقف يرقب المشهد فى صمت .

– الحمد لله ماخسرش م الميه ، (قال الحاج طلبة) .

– إنت ديماً شايل مسدس فى جيبك ياحاج ؟ (سألته بسخرية مستترة) .

– شغلنا عايز كده ، أجابنى باقتضاب ، ما تعرفش القبلة فين ؟ فأشرت إلى الشمس التى غاصت فى الماء عند الأفق ، وبمراجعة الجهات الأصلية عرفنا أين توجد القبلة . فانتظر الحاج حتى اختفى قرص الشمس ثم رد السبحة والدفتر والمسدس إلى جيبه ووقف ينوى الصلاة . طويل عريض مهيب فى جلبابه الأبيض ، فخور فى صلاته أكثر منه خاشعاً . أشرت إلى زازا وانتحينا جانباً ، وتبعنا توتو معتبراً نفسه من نفس الشلة .

– أنا قلت إنك مراتى لأنى . . .

– لأنك سافل ! (قاطعتنى بسرعة) .

. . . فشرحت لها فائدة الأمر فى حمايتها من هؤلاء الأغراب ، لكنها لم تقتنع .

– حد قال لك إنى محتاجة لحماية ؟ وإذا كان ضرورى حماية ، ليه ما قلتش إنى مرات توتو ؟ أنت أعنى ولا هو ؟

ـ هو أعمى لكن أنا لى لسان . (فسكتت مفحمة) .

ـ والله لما يعمل إيه مانا لابسة الجلابية دى ! قالت بعد حين فى عناد .

لكنها كانت تعرف أنها سوف تلبسها . . الحاج طلبة كما شعرت زازا وشعرت معها قد قرر أن يفرض نفسه زعيماً على جماعتنا الصغيرة ، لسبب ما يشعر الرجل أن عنده من المسوغات ما يرشحه بالبداهة لتلك الوظيفة .

ـ ما فيش حبة ميه ؟ أتانا صوت الحاج وقد انتهى من الصلاة .

فانتقلنا إلى حيث توجد عين المياه ، رفع الحاج الجرة إلى فمه وراح يجرع منها ويمصمص الماء بصوت غلب على ضجة كرشة الذى ما برح يقرش التفاح .

ـ ناولنى تفاحة يا كرشة ، (قال الحاج بعد أن شرب) .

فأحضر له كرشة ثلاث تفاحات .

ـ أما طفاح يا حاج ! لوظ والله ، لوظ !

وبينما الحاج يأكل نظر إلى الكوخ وبدا أنه يفكر .

ـ العشة دى تساعنا كلنا ؟ (سألنى بأمل) .

ـ يا ريت يا حاج ، (أجبته بأسف) ، دى يا دوب سايعانى أنا ومراتى .

فسكت الحاج مفحماً .

ـ على كل حال الدنيا دفا ، (قلت له مهوناً) . فلم يجب .

ـ وبرضه نقدر نتبادلها ، (أضفت) ، إحنا ليلة وانتو ليلة .

فلم يجب .

ـ إلا طبعاً إذا كنت تحب تاخدها لوحدك ! (أضفت ساخراً) .

ـ ودى تيجى يا أستاذ ؟ (أجابنى مستنكراً) ، ألست تنام بره ونا يا راجل أنام جوه ؟ فوجهت إلى زازا نظرة ذات معنى .

— الحاج يعرف إنجليزى ؟ (سألته فهز رأسه بالنفى) .
— عرفى فايدة الجواز ؟ (قلت لزازا بالإنجليزية) .
فلم تعلق ورأيت كرشة يزغر لى .
— النبي عربى يا أسطاز ! (شخط فىّ من بعيد) .
فنظرت إليه بازدراء ولم أعلق . وأخرج الحاج سبحته وراح يداعب حباتها متمتماً ، وكرشة واصل التهام التفاح حتى بدأت أخاف على المحصول . لكنى لم أقل له شيئاً . ثور كهذا ليس من الحكمة أن تقال له الأشياء .
— (تزاتزا ! قال توتو لزازا باسماً) .
— تظاظا ؟ ! (قلده كرشه مستهزئاً) نكطة قوى الراجل ده !
وخيمت على الجزيرة عتمة المساء ، لم يخفف منها إلا قرص القمر الشاحب الذى برز عند الأفق الشرقى ، والذى ما برح شحوبه أن تحول إلى لون فضى جميل يرتعش على ماء البحر . فأدركت أن الساعة قد حانت ونهضت متثائباً كمن كبس عليه النوم .
— يالله بينا يازازا ، قلت بالبساطة الزوجية المناسبة .
وسحبتها من ذراعها فترددت لحظة ثم انقادت . جذبتها وقصدنا إلى الكوخ على مهل ، زوج وزوجته يتجهان إلى بيتهما ، ما الغرابة فى ذلك ؟ لكن قلبى كان يدق كالطبل بين ضلوعى ، على إيقاعه المجنون ترقص فى صدرى فرحة وحشية معربدة . أرأيت فى حياتك رجلا يقتنص لنفسه هذه العروس الرائعة بتلك السهولة المعجزة ؟

الفصل السابع

ما كدت أنفرد بزازا فى الكوخ حتى أخليت سبيل الضحكة المكتومة فى صدرى ، رحت أضحك وأضرب بكفى على فخذى من شدة الطرب ، بصوت منخفض بالطبع كيلا يصل إلى سمع الآخرين فى الخارج .

— والله العظيم إنك سافل ! (قالت زازا بغيظ) ، أسفل راجل عمرى شفته !

لكن صوتها كان يدل على أننى لست سافلا إلى هذا الحد ، وعلى أن غضبها ليس أصيلا . ورأيتها تجلس على السرير الخشبى الواطئ ، وشعاع من القمر تسلل من كوة فى أعلى العشة وأنار وجهها . فذهبت وجلست بجانبها .

— إبعد عنى ! (قالت لى ببقية من الغيظ) .

فابتعدت قائلا لنفسى على مهلك ، أمامنا الليلة كلها .

— والله لما يموت مانا لابسة الجلابية دى !

فشرحت لها مالا تعرف عن أهل الورع والتقوى ، كيف أنهم لا يتذوقون الجمال بنفس الطريقة التى نتذوقه بها نحن . شعاع النور الذى ينبعث من قميصها الوردى ويسحرنى ، لا يمكن لرجل مثل الحاج طلبة أن يرى فيه سوى شعلة من نار جهنم ترتعد فى يد إبليس .

— انتى عاوزة الراجل كل ما يبص لك يتنقض وضوه ؟!

فلم تجب زازا مباشرة ، كانت تفكر .

— دمه تقيل ! قالت أخيرا فى تقزز .

وتفكرت لحظة أخرى ثم ابتسمت .

— ومع ذلك تعرف إن فيه حاجة جذابة كده ؟ !

— لا ياشيخة ! (قلت لها بغيظ) ، ما تقولى لى بالمرة إن كرشة راخر فيه حاجة جذابة .

— طب وانت يعنى بتقول فيها ؟ (قالت ضاحكة) ، كل راجل وفيه حاجة ! ثم تصعبت وهبت واقفة تتأفف .

— ياباى ! السرير ده ناشف بشكل ! دى الأرض أريح .

وكان هذا صحيحاً ، ولحسن الحظ كان الكوخ بلا أرضية من خشب أو غيره ، مجرد جدران أقيمت حول مساحة من رمال الجزيرة الناعمة .

— ما فيش شك أن الأرض أريح ، (قالت زازا وهى تجلس على الأرض فى شعاع القمر) .

فجلست بجانبها باسماً . — تسمح تدير وشك للحيطة وتنام ؟

— أدير وشى للحيطة ليه يا أبلا ، أنا عملت حاجة ؟

فابتسمت زازا ، وعندما تبتسم زازا أحس كأن الشمس قد طلعت بعد يوم مطير . أجمل ابتسامة على أجمل شفتين بين أجمل غمازتين ، ونور الجنة يرقص فى عينها .

— أحبك يا زازا ، قلت لها بصدق .

— حبك برص ! (أجابت فى غضب مصطنع) .

وتناولت يدها فلم تعترض ، رفعتها إلى شفتى وقبلتها وقلت لها أحبك من جديد . فى عينها تراءت نظرة حنان غمرتنى بسعادة رهيبة ، فأدنيت شفتى من وجهها ثم توقفت .

— خايف أبوسك يطلع لنا م البحر غريق تانى ! ضحكت وقرصت خدى .

— ساعات يبقى دمك خفيف .

— ستات كتير قالوا لى كده ، (أجبتها) وهممت بالقبلة فأوقفتنى

طرقة مفاجئة على الباب .
— ياأستاذ أحمد ! أتانى صوت الحاج طلبة من الخارج ، افتح يا أستاذ أحمد !
— الله يخرب بيتك ! (قلت وأنا أغلى) ، ده وقته ياجرم ؟
ووراء الباب وجدت الحاج طلبة وبجانبه كرشة .
— أى خدمة ؟ سألته ببرود .
— لا مؤاخذة يا أستاذ بس أصلى آه . . هاه . . هاه . . هاتشى !
أبعدت وجهى عن طريق العطسة فى اللحظة المناسبة .
— أصلى يظهر خدت برد من مية البحر ، قال الحاج .
— طب وأنا اعمل إيه ؟ سألته بنفس البرود .
— طعمل إيه يعنى إيه ؟ زجر فىّ كرشة ، تبيطه معاك فى الضفا !
— أبيت مراتى مع راجل غريب ؟ أجبته بغلظة .
فعطس الحاج ثانيًا وثالثًا ، وبين عطساته يعتذر لى عن هذا الاقتحام الذى لم يكن يحب أن يبدر منه لولا الظروف اللعينة . هو ضعيف الصدر — شرح لى — بسبب إصابته منذ شهور بالتهاب رئوى حاد ، فلو لم يعتكف بهذا الزكام الطارئ لتعرض للموت بردًا .
— إن شالله اللى يكرهك يا رب ! (قال كرشة وهو يحملق إلى بعينين جاحظتين . وأشار الحاج إلى السرير الخشبي الواطئ قائلا إنه من الممكن وضعه على جنبه ليقسم العشة إلى قسمين ، كما أنه من الممكن تعليق جلباب كرشة فوقه ليكون بمثابة ستار بيننا .
— وعلى كل حال الأمر أمرك ، (قال الحاج فى النهاية) .
— الأمر أمره يعنى إيه ، جأر كرشة ، هو بيت أبوه ؟ بانيه ولا شاريه ؟ — من فضلك بلاش قلة أدب ! (قلت له بحدة) .
— لا ياشيخ ! زأر كرشة وهو يقتحم الكوخ .
جبينه وضعه على جبينى وأنفه على أنفى وراح ينفخ بتهديداته فى فمى .

ـــ انت فاهم نفصلك إيه ياأسطاز ؟ ده الحاج طلبه اللى بيكلمك ! ده لولا ظوقه كان رماك بره ونام مطرحلك . أنا طجرمة صحيح !

ـــ سيبه ياكرشة (قال له الحاج طلبة) .

ـــ والله العظيم الواحد يوضبه ! قال كرشة وهو يبتعد عنى .

ـــ زازا ، قلت لها بحزم ، يا الله يينا من هنا .

وجذبتها وغادرنا العشة فجذبنى الحاج طلبه من حمالة فانلتى .

ـــ على فين يا أستاذ ؟

ـــ نبات بره ، قلت له ببرود ، مالناش حتة هنا .

ـــ ودى تيجى يا أستاذ ؟ بقى معقول اطرد راجل ومراته من بيتهم ؟ والله ما يمكن أبداً .

ـــ أما تخف إن شاء الله نبقى نرجع بيتنا .

ـــ والله ما يمكن أبداً ، ياسلام ؟ أنا اللى أبات بره وزى ماتيجى .

ـــ لأ ، احنا اللى حنبات بره ، يالله يازازا .

هو يجذبنى وأنا أجذبه فى مباراة فى الكرم والمروءة ، وأخيراً نفخ الحاج طلبة فى استسلام .

ـــ ياسلام ياأستاذ أحمد ، لو كنتش عنيد كده !

وعطس من جديد ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات .

ـــ مادام ح تباتوا برة (قال لى وهو يفتح الدفتر) ، أنا ح آخذ العشة بالإيجار .

فظننت أنه يمزح لكنه كان جاداً ، إذ فتش فى جيبه حتى عثر على قلم من الرصاص ، ثم تهيأ لكتابة الشيك .

ـــ عشرين جنيه فى الشهر كويس ؟

ـــ خليهم تلاتين ، (أجبته متهكما) .

ـــ تلاتين ! زمجر فى غيظ ، لا هو انا بأجر فيللا مفروشة ؟ دى عشة فاضية كحيانة !

— ما تزعلش ، قلت ضاحكًا ، هات اللى تجيبه .
فهم بالكتابة ثم بدا عليه التردد .
— ومع ذلك موش ح ازعلك ، خليهم تلاتين ! أجرة ما شحططتك م البيت .
وشرع يكتب الشيك .
— هو على بنك إيه ؟ (سألته) . — الأهلى .
فألتفت إلى زازا .
— هو البنك الأهلى فاتح فرع هنا يازازا ؟
فضحكت زازا لكن الحاج لم يضحك .
— هو احنا ح نقعد هنا على طول يا أستاذ ؟ (قال لى فى غيظ) ، ضرورى ح تفوت مراكب وتأخذنا . وناولنى الشيك .
— ويمكن تيجى مركب بعد يوم ولا اتنين ، أضاف بلهجة مازحة ، تبقى خدت إيجار شهر على يومين . حلال عليك ياعم ، تصبحوا على خير . ودخل فأغلق الباب عليه .

— آل يبيطوا الحاج بره ! (برطم كرشة وهو يحرقنى بنظراته) .
فسحبت زازا وابتعدنا ، قصدنا إلى جذع الشجرة وجلسنا وراءه ننظر إلى البحر الذى يلمع فى ضوء القمر . لكننى لم أجد فى نفسى أية ذرة من الشاعرية ، كرهت كلا من البحر والقمر . وفجأة سمعت زازا تضحك .

— فيه إيه يضحك ؟ سألتها فى غيظ .
— إنت ! (أجابتنى وسط ضحكها) ، لو كان كرشة مسكك كان فعصك فعص !
فسكت فى غيظ بينما أنهت هى ضحكها .
— وريني الشيك كده ؟ فناولتها إياه .
— ده ع البنك الأهلى صحيح .

ــ هه ! نفخت ساخرا ، وايش عرفنا إن له رصيد ؟

ــ إنت وبختك بقى .

وطوت الشيك ودسته فى صدر فانلتى ، وأنا أواصل صمتى الكئيب .

ــ يا أخى فرفش بقى ! قالت زازا بعد حين ، ولاّ اقوم أدور على توتو ؟

فرأيت أن أفرفش ، ماذا تجدى الكآبة وما حدث قد حدث ؟ فابتسمت لأستدرج الفرفشة ، ومددت ذراعا أحطت به كتف زازا وطبعت قبلة على خدها . فإننى لموشك على أن أطبع الثانية إذ أتانى صوت كرشة الغليظ .

ــ عيب كده يا اسطاز !! قال كرشة الذى برز فجأة من وراء الجذع ، انت موش لوحدك .

وأمامى وقف نافشاً عضلاته الغليظة وسط غابة من شعر الغوريلا .

ــ إنت قدامك رجالة يا أسطاز !

فى تحد سافر يحملق فى وجهى ، ويتمنى أن أرد على تحرشه فتكون فرصته للفتك بى . مكتوب على ألا ألتقى فى هذه الجزيرة اللعينة إلا بالعمالقة والفتوات .

ــ إنت جاى تقف جنبنا وتقول لى عيب ؟ (سألته بلهجة أردتها أن تكون لهجة غضب فطلعت لهجة عتاب) .

ــ أنا حر اقف مطرح ما يعجبنى .

وكنت أعرف أنه حر حقاً ، عضلات الحرية تصرخ فى كل سنتى من جسمه .

ــ قومى بينا يا زازا (قلت لها وأنا أنهض) .

نهضنا وقصدنا إلى شجرة التفاح فجلسنا تحتها ، ما هى إلا لحظة حتى رأينا كرشة يأتى ويجلس بالقرب منا . فى حقد بالغ نظرت إليه ، وفى استخفاف مهين رد نظرتى بعينين تهدلت عليهما جفونه الغليظة المنفرة .

ـــ أما والله ! (قالت زازا وهى تفلت ضحكة) .

وفى تلك اللحظة ظهر توتو ، أقبل فجلس أمامنا صامتًا . كرشة نظر إليه فى كراهية ولم يقل شيئًا ، أحد منا لم يقل شيئًا . ثم تنخم كرشة وبصق واستلقى على جنبه متهيئًا للنوم ، ما هى إلا دقيقة حتى رددت شخيره القبيح أرجاء الجزيرة .

ـــ تزاتزا ! (قال توتو وهو يبتسم) .

فأجابته زازا بابتسامة ، ورحت أنا أنقل بصرى بين الاثنين لحظة ثم نهضت فى صمت . « على فين » سألتنى زازا بنبرة استهزاء .

فلم أجبها . كنت أشعر بالمهانة وأريد أن أخلو لنفسى . قصدت إلى ما وراء الكوخ حيث توجد العظام ، جلست بالقرب منها ألوك أحزانى . أمامى ترقد الجمجمة صامتة صابرة خالدة ، فى ضوء القمر تصوب إلى ابتسامة لا أدرى لماذا خيل إلى أنها ساخرة .



الفصل الثامن

من شدة همى وغمى لم أحاول عندما كبس النوم على أن أبتعد عن العظام بل نمت بينها ، وصحوت بعد حين فوجدتنى أضع يدى على الجمجمة فى حنان ، كأننى مرسوم فى صورة سيريالية . لكن لماذا صحوت بهذه السرعة ؟ يخيل إلى أن هناك ضجة غريبة أيقظتنى . نعم هناك ضجة بالقرب منى ، صوت أنفاس مضطربة وزمجرة وحشية وتلاطم أجسام عارية فيما يشبه المعركة . فنهضت على عجل ودرت حول الكوخ لكى أكتشف أنها معركة فعلا ، بين توتو والثور الآخر كرشة . كان الأخير حين وصلت مطوقاً خصر توتو بذراعى أخطبوط كأنه يريد أن يعصره ، فى حين كان توتو مطبقًا بيديه على عنق كرشة لكى يخنقه . فلما أدرك كرشة أنه سيختنق ترك خصر توتو ورفع يده إلى وجهه لكى يدخل إصبعًا فى كل من عينيه . فأخلى توتو سبيل عنق كرشة وأمسك بشعره ليشده منه إلى الوراء ، وفى الوقت نفسه صوب إلى بطنه لكمة عنيفة لو أصابت جبلا لهدته ، فانثنى كرشة نصفين من الألم . لكنهُ لم يسقط ، بل هجم برأسه على توتو فنطحه فى بطنه نطحة جعلته هو ينثنى نصفين ، ثم طارت قبضة كرشة إلى وجه توتو بلكمة سفلية علوية ألقت به على الأرض . فإنه ليهم بالانقضاض عليه إذ طارت ساق توتو إلى وجه كرشة برفصة ولا رفصة البغل ألقته هو الآخر على الأرض . وهناك التحم الاثنان وراحا يتمرغان على الرمال ، فم كل منهم ملتصق بكتف الآخر بما فهمت منه أنه يعضه .

لم أكن قد انتبهت إلى أن هناك متفرجا آخر على المباراة هو زازا ، إذ وقفت عن قرب وهى تعض إصبعها وترتعد . فقصدت إليها لأطمئنها .

— يظهر أنهم بيتخانقوا (قلت لها باسمًا) .
— بيتخانقوا ؟ ! صاحت زازا فى فزع ، دول ح يموتوا بعض !
— محتمل (وافقتها) ، وأرجو أن القتيل يكون كرشة .
— وأنت واقف كده ليه ؟ موش تروح تفض الخناقة ؟
— أنا ؟ ! (هتفت فى ذعر) .
— إمال أنا ؟ — يا بنتى صلى ع النبى ، دنا خايف اتعور م الفرجة !
— طيب روح ساعد توتو . — موش شايف أنه محتاج لأى مساعدة .
— بقى بذمتك أنت راجل ؟ — أنا طول عمرى عندى مبدأ ، أخبرتها ، إنى أحتفظ برجولتى لحاجات أنفع من الخناق !

فسكتت وهى ترمقنى فى ازدراء ، و عدنا نتفرج على المباراة . كان الرجلان قد وقفا من جديد وعادا إلى الوضع الأول ، كل منهما يمسك برقبة الآخر محاولا أن يخنقه . وفى تلك اللحظة سمعت صرير باب الكوخ ، وبرز الحاج وهو يدعك عينيه من أثر النوم . راح يربش حينًا نحو المتعاركين ، فلما اكتشف حقيقة الموقف أخرج المسدس من جيبه وقصد إليهما بسرعة . دار بالمسدس حتى صار وراء توتو ثم رفعه وأهوى به على رأسه بضربة شديدة ، فسرعان ما رأيت توتو يترنح ويسقط على الأرض . فلم يرحمه كرشة ، بل انقض عليه وركب فوقه مطبقًا بيديه على رقبته لكى يكمل عليه .

— سيبه يا كرشة ! (صرخ الحاج) .

لكنه لم يتركه ، فأسرع الحاج إليه وشده من شعره .

— إنت مجنون ؟ عاوز تعمل لنا جناية ؟

فنهض كرشة وراح يتفحص الأرض حوله وهو يلهث كالثور المجنون ، ثم انحنى والتقط شيئًا تبينت أنه خنجر توتو الذى لا بد أنه حاول استعماله فى بداية المعركة وفشل .

— وديني أفتح كرشه ! زأر كرشة وهو يلوح بالخنجر فوق بطن توتو . — هات الخنجر ده ! (أمره الحاج) ، هات باقول لك .

فناوله كرشة الخنجر ، وكانت عينه وارمة من أثر رفصة توتو ، ووجهه كله — مثل وجه توتو — قد أصبح شوارع .

— إيه الحكاية ؟ سأله الحاج مستفسراً .

— كله م المقطف ده ! (قال كرشة وهو يشير ناحيتي) .

نظرت خلفي أتلمس شخصاً آخر يقف هناك لكنني لم أجد أحداً ، ليس في الجهة أي مقطف آخر . وشرع كرشة يحكي الحكاية ، كيف أنه صحا من النوم ليأكل تفاحة ويشرب ماء ، فإنه ليسير إذ لمح أبشع منظر يمكن أن يراه الإنسان ، منظر توتو وهو يضم زازا إلى صدره ويقبلها في ضوء القمر .

— وصيادته نايم زي البرش ! أضاف مشيراً إلى من جديد .

هو نايم والتاني ناظل فيها بوص !

فراح الحاج طلبة ينقل النظر بين زازا وبيني .

— صحيح الكلام ده يا هانم ؟ (سألها أخيراً) . فتنمرت زازا

— صحيح ولا موش صحيح انت مالك ؟ صرخت في وجهه

— بقى كده ؟ — آه كده .

— وإيه رأي سيادتكم ؟ (قال ملتفتا إلى) .

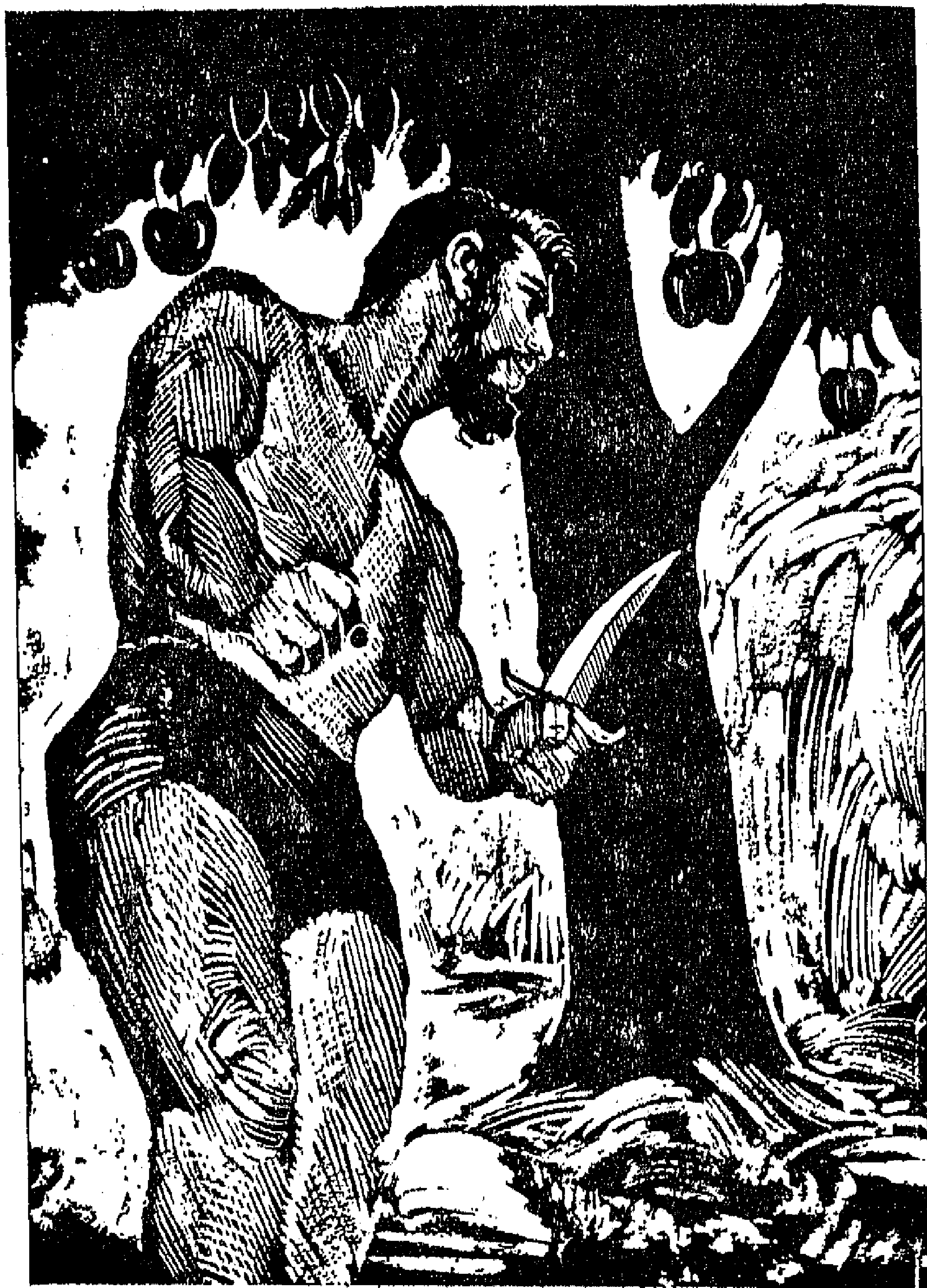
عند ذلك أدركت أنني يجب أن أصحح الوضع وأرد الأمور إلى نصابها : الكرامة .

— بقى صلي ع النبي يا حاج ، (قلت له) ، أنا كذبت عليك لما قلت إن زازا مراتي . أنا لا جوزها ولا هي مراتي ، آه .

فانفغر فم الحاج وجحظت عيناه .

— لا انت جوزها ولا هي مراتك ؟ (سألني بدهشة بالغة) . — آه .

— وواخدها جوه تبات معاها ليه ؟ سألني في ذهول .



— ما تدقش ، (أجبته ببساطة) . فواصل الحاج حملقته إلى .
— تبقى ندل ! (قال لى فجأة) . — لا ياحاج ، ماتطولش لسانك.
— لا ياشيخ ! تستغفلنى وتستكردنى وتقول لى ما تطولش لسانك ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ . . . قوادين ولا إيه ؟
— أنا عارف انها كانت باردة منى ، (قلت معترفًا) ، إنما الحكاية انتهت . من هنا ورايح زازا حرة فى نفسها ، تتصرف على كيفها .
فسكت الحاج مفكراً . — إنتى يا بت! (صرخ فى زازا فجأة).
— بت فى عينك ! (صرخت هى فيه) .
فراح يحملق إليها بعين تطلق شرراً ، وفجأة رفع يده وأهوى على وجهها بقلم شديد . — لمى لسانك يا ...! » (جأر الحاج فى وجهها) .
واضعة يدها مكان الصفعة رأيت الدموع تترقرق فى عينيها ، ذقنها ترتعد كطفل صغير يبكى .
— أما سماجة صحيح ! (هتفت أنا فى حنق) ، تمد يدك على واحدة ست ؟ هى مراتك ؟ تقرب لك إيه عشان . . .
ولم أكمل كلامى بسبب أنى وجدتنى فجأة جالسًا على الأرض ، على أثر لكمة شديدة فى صدرى من قبضة كرشة .
— ماتطولش لصانك على الحاج يالوح !
ورفع قدمه يهدد برفصى فسكت ، وأبصرت زازا تجرى نحو الكوخ وهى تبكى ، دخلت وصفقت الباب وراءها . وواصل الحاج الغاضب صياحه بصوته الذى زاد الغضب من بحته .
— ودينى وأيمانى إن شفت واحد منكو هوب عليها مافى غير دهه !
ولوح بالمسدس أمام وجهى ، ومشيراً به إلى توتو الذى مازال نائمًا .
— ودينى لأربيكو ياولاد الكلب ! أضاف الحاج وهو يولينى ظهره ويبتعد . لكنه توقف وقد ذكر شيئًا .
— هات منه الشيك ! (صاح الحاج يكلم كرشة) :

وقبل أن يصل كرشة كنت قد أخرجت المذكور من عبى .

ـ هاط جطلك البلا ! (قال كرشة وهو ينتش الشيك من يدى) .

وقصد به إلى الحاج الذى مزقه ونثره على الأرض ، ثم ابتعد ووراءه كلبه كرشة . والتفت لأرى توتو وقد بدأ ينتبه ، استوى جالساً وراح يهز رأسه ليفيق ، ثم رفع يده يتحسس ما فى وجهه من جراح .

ـ كان ضرورى م البوس الليلة دى ياسى زفت ؟ ! (قلت له بغيظ) . فلم يتدم توتو ، لأول مرة واجهنى بوجه عابس . ثم نهض فى صمت واتجه إلى البحر ، انحنى ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه . قبيل الغروب رأيته يفعل ذلك ، قبل أن يجلس لينشد أغنيته الغامضة الجميلة . راحت عليك ياتوتو ، ياأيها التمثال البرونزى الجميل . ويبدو أنها راحت على أنا الآخر وعلى زازا . فنهضت وجلست وراء الكوخ بين العظام ، تبادلت نظرة طويلة مع الجمجمة التى تأكدت أن ابتسامتها كانت ساخرة .



الفصل التاسع

صحوت فى الصباح جائعًا فقصدت إلى شجرة التفاح ، وجدت الحاج متربعًا تحتها والسبحة فى يده ، دفتر الشيكات منشور بجانبه فى الشمس لكى يجف . باب الكوخ مقفل على زازا التى يبدو أنها خاصمتنا ، وكرشة يتسكع فى آخر الجزيرة عند البحر ، وتوتو غير ظاهر ، لا بد أنه فى مكانه المختار وراء جذع الشجرة .

مررت بالحاج متجاهلا إياه ، ومددت يدى إلى الشجرة لأقطف التفاحة . بالرغم من كل ما التهمه كرشة من التفاح مازالت الشجرة محملة بتفاح جديد بين أحمر وأخضر .

— صباح الخير ، (قال لى الحاج فجأة) . فتظاهرت بأننى لم أسمع .

— صباح الخير يا أستاذ ! (قال ملحًا) .

— صباح الفل يا سيدى ، (أجبته بتريقة) .

وهممت بأن أبتعد بالتفاحة فنادانى : « يا أستاذ ! تسمح بكلمة » ؟

— أفندم ؟ ؟ (سألته ببرود) . فابتسم الحاج .

— أنا عارف أنك زعلان منى لكن حقك على ياسيدى .

فلم أجب ، اكتفيت بأن نظرت إليه فى كبرياء .

— إنت غلطت ف حقى ، (أضاف) ، وأنا غلطت ف حقك والمسامح كريم . وشرح لى كيف أنه كان مضطرب الأعصاب بسبب حادث الغرق ، وكيف أنه لا يصدق حتى هذه اللحظة أنه قد كتبت له النجاة ، بالإضافة إلى أننى قد ضاعفت من اضطراب أعصابه بالفصل الذى عملته فيه أنا وزازا ، إلى آخر هذا النوع من الكلام .

— خلاص يا سيدى ، (قلت له لأريحه) ، اللى فات مات .

وهممت بأن أبتعد فاستوقفني .

— إلا بحق يا أستاذ ، هو شوك السمك ده جه منين ؟

فابتسمت فى سخرية . « من السمك اللى كلناه امبارح » .

— والسمك جه منين ؟ — م البحر .

— ما انا فاهم أنه من البحر ، (قال محاولا كتمان غيظه) ، لكن مين اللى اصطاده ؟ — توتو . فسكت الحاج لحظة مفكراً .

— اصطاده بإيه ؟ — بالخنجر بتاعه .

فتفكر الحاج لحظة أخرى — كرشة ! (صاح مناديًا) ، كرشة !

فالتفت كرشة نحونا ورأى إشارة الحاج فأقبل مسرعًا ، غوريلا شنيعة المنظر تدب على الرمال نحونا . — ماتنزل يا كرشة تصطادلنا سمكتين ؟

— صمكتين ؟ واصطادهم بإيه ؟ — بالخنجر ده .

وأخرج الخنجر من جيبه . — خنجر ؟ هو الخنجر يصطاد صمك ؟

— آه . الراجل ده بيصطاد بيه ، إنت أقل منه ؟

— عمرى ماصمعت إن الصمك ينصاد بخنجر ! — روح جرب .

— أروح . . (قال وهو يهز كتفيه فى غباء) .

وتناول كرشة الخنجر واتجه إلى البحر . وصرير باب الكوخ وبرزت زازا بقميصها الوردى ، وقع بصرها علينا فانقلب وجهها ، وراح الحاج طلبه يتفحصها بنظرة غاضبة .

— مالبستيش الجلابية ليه ؟ (سألها الحاج بحدة) .

فلم تجبه زازا ، نظرت إليه فى ازدراء من فوق لتحت .

— ما تردى على ! فأصرت على الصمت والازدراء .

— أنا السه متوضى ! (صرخ الحاج) ، عايزه تدنك عريانة خليكى جوه العشة .

فراحت تزغر له حيناً ثم بصقت ودخلت صافقة الباب خلفها .

وأسرعت أصابع الحاج تداعب حبات السبحة ، واشتغلت شفتاه بالدمدمة . كانت لحيته قد تضاعف طولها ، فرفعت يدى إلى لحيتى

التى حدث لها الشيء نفسه .

— ما حسستش على دقنك النهارده ياحاج ؟ (قلت له) .

فرفع يده إلى لحيته وسرعان ما بدت عليه دهشة يمازجها الخوف .

— وبصيت لضوافرك ؟

فرفع أظافره يتأملها بعين تضاعف ما فيها من الحيرة والخوف ، فسرنى المنظر حتى ضحكت . — بتضحك ليه ؟ (سألنى) .

— لا ولا حاجة . — ليه صحيح ؟ (سألنى بضعف) انت مخبى على حاجة ؟

— لا ، بس حبيت أديلك فكرة عن الجزيرة دى !

وخطر لى أن أحكى له عن التفاح لكننى أمسكت ، حسبه اليوم هذه الجرعة من المعلومات . وكان الخوف ما زال مرتسما فى عينيه اللتين راح يجيلهما حوله وهو يتشمم الهواء .

— يمكن الجو هنا فيه حاجة بطالة ؟ (سألنى فى ارتباك) .

— الله أعلم .

فصمت وزادت سرعة كل من أصابعه وشفتيه ، يستعيذ بالخالق من شر ما خلق .

— ما فيش فايضة ، (قال كرشة وقد وصل فجأة) ، ولا صمكة راضية تنصاد . فصوب الحاج إليه نظرة ازدراء .

— ما انت طول عمرك حمار ! (قال بغيظ) .

— ياحاج طلبة هو إيه . . حد صمع إن الصمك ينصاد بجنجر ؟

— واشمعنى هو صاده ؟

— اكمنه ابن . . ! (قال كرشة شارحاً) .

فسكت الحاج على مضض ، ودقيقة من التفكير ثم التفت إلى بإبتسامة سخيفة .

ـ ماتخلى أخينا ده يصطاد لنا سمكتين ؟ (قال برقة غير لائقة عليه) .

ـ حلوة دى ! (أجبته ساخراً) ، امبارح ترفعوه علقة والنهارده عايزينه يصطاد لكو سمك ؟

فالتمعت فى عينه نظرة غيظ لكنه كبحها .

ـ كلمه يمكن يرضى ، (قال مغريـًا) ، نراضيه بقرشين .

ـ إنت معاك فلوس ياحاج ؟ ـ أكتب له شيك .

ـ والله معرفش إذا كان توتو يفهم فى الشيكات ولا لأ .

ـ وشيك عشان إيه ؟ (جأر كرشة معترضـًا) ، هو موش ح يطفح معانا ؟

ـ أيوه لكن ح يشتغل (قال الحاج بلهجة إباء) ومادام ح يشتغل لازم ياخد أجرته . . . ثم التفت إلى بظرف زائد .

ـ قوم كلمه والنبى ياسى أحمد !

سى أحمد ! وبالأمس ـ قبل أن يجوع الوغد ـ كنت نذلا . وتناول الحاج دفتر الشيكات وبدأ يكتب .

ـ عشرة جنيه كويسين ؟ (سألنى) .

ـ عشرة جنيه ! (قال كرشة محتجـًا) دول يجيبو طرناطة صمك ! فتفكر الحاج لحظة و وقال بلهجة سخاء . ـ طب والله لادى له عشرة !

وكتب الشيك وناوله لى فنهضت قاصداً به إلى توتو ، أنا الآخر جعت واشتهيت السمك .

ـ تاخد ده وتصطاد لنا سمكتين ؟

فرفع إلى نظرة بلهاء من حيث جلس مستنداً إلى جذع الشجرة ، وأحسست أنا الآخر أن سؤالى بالغ السخافة .

ـ عاوزين ناكل يابنى (قلت له مناشداً) جعنا .

وأشرت إلى البحر وإلى فمى وإلى بطنى الخاوية ، فلم يزد الوغد

عن أن هز رأسه وابتسم . أدركت بعد حين أننى أنفخ فى قربة مقطوعة .
— أما ابن . . . . صحيح ! (قال الحاج فى غيظ حين عرف نتيجة مسعاى) . ثم التفت إلى بنظرة يمتزج فيها الرجاء بالخجل .
— ما تكلم اسمها إيه (قال مشيراً برأسه نحو الكوخ) .
— زازا ؟ — آه ، يمكن تقدر تقنعه !
فواجهته بابتسامة صفراء ، صفراء إلى الدرجة التى جعلته يغض النظر .

— بقى بعد ما ضربتها امبارح (قلت له ساخراً) عايزها النهارده تتوسط لك ؟

— وهى موش ح تاكل معانا ؟ (سألنى فى غيظ) ، وهو أنا ح اشغلها ببلاش ؟ هى رخره ح ادفع لها قرشين .
فأدركت أنها فرصة لكى أرى مشهداً لطيفاً .
— زازا ! (صحت منادياً) ، زازا ! فلم ينفتح باب الكوخ .
— زازا ! أعدت النداء ، تعالى عايزينك فى كلمة .
فانفتح الباب عن زازا ، واضعة يدها على خصرها تنظر إلينا متحدية .
— ممكن تيجى لحظة ؟ (صحت أكلمها) الحاج عايز منك حاجة .

فوقفت حيناً ترمقنا فى ازدراء ، ثم بدأت تتقدم منا متقصعة ويدها ما برحت على خصرها . نمرة متحفزة تقترب منا ، روح التحدى تتناثر من كل هزة فى كل جزء من جسمها تحت القميص الوردى . الحاج ثبت بصره عليها لحظة ثم أشاح عنها بوجه مكفهر .
— أفندم ؟ (سألتنا فى برود حين وصلت)
— الحكاية وما فيها ، (أخطرتها باقتضاب) ، إننا جعنا وعايزين توتو يصطاد سمك .
— طب وانا مالى ؟ (قالت أخيراً) شأنى إيه أنا ؟

ـ أصلى كامت توتو فى حكاية الصيد ما رضيش (شرحت لها) والحاج طلبة شايف يعنى ان لكى دالة عليه ، فبيقول يعنى لو أمكن يعنى تروحى له انتى وتحاولى تقنعيه .

ـ بقى كده ؟ (نطقت آخر الأمر بلهجة تقطر سمًّا) سى الحاج جاع وعايزنى أكلم له توتو ؟ وسكتت لحظة ثم استرسلت :

ـ واشمعنى أنا اللى اروح أقنعه ؟ ما تعرفش تقنعه أنت ياسى الحاج ؟ ! فاحمر وجه المذكور حيث جلس يتشاغل بالتسبيح

ـ هو انتى ح تقنعيه ببلاش ؟ صرخ فيها فجأة ، ح اكتب لك شيك ! إنتى شيك وهو شيك ، الله !

ـ خلى شيكاتك لروحك يادلعدى (أجابته فى سخرية) ما بناكلش م الكلام ده ياسى الحاج !

وبنظرة ازدراء أخيرة أولتنا ظهرها وعادت إلى الكوخ ، ووقفت عند الباب ترمينا بنظراتها ـ آل اقنعه آل ، ههئ !

ضحكة خليعة ثم دخلت وصفقت الباب .

ـ أما بِنْطْ (. . .) صحيح ! (قال كرشة وهو يضرب كفًّا بكف) .

أما الحاج فلم يقل شيئًا ، وكلام كثير كان يمكن أن أوجهه إليه على سبيل الشماتة لكننى أمسكت .

ـ تسمح لى بالخنجر لحظة ياحاج ؟ سألت المذكور .

فتردد لحظة ثم ناوله لى . « إيه ؟ (تساءل كرشه بفرح) ، ح تصطاد لنا صمك ؟ » ـ لا (أجبته) ، ح احلق دقنى . . وأعملت الخنجر فى لحيتى بالتهذيب ثم فى أظافرى بالتشذيب ، ح يبقى لا أكل ولا عياقة ؟

ـ ياصلام ياصيدى ، الشياكة واخدة حدها قوى ! (قال كرشة وبصق على الأرض) .

وقبل أن أرد الخنجر إلى الحاج طلبة رسمت على جذع شجرة

التفاح علامتين ، بعدد اليومين اللذين مرا علينا فى هذه الجزيرة اللعينة . إذا كنت سأبقى هنا حيناً فجدير بى أن أعرف كم من الزمن بقيت . وارتفعت الشمس فى السماء وبدأ الجوع يقرصنا ، هل يستطيع أحد أن يعيش على التفاح وحده ؟ زازا معتكفة فى العشة ، وتوتو مختبئ وراء الشجرة ، والحاج يصلى الظهر . وكرشة نزل ثانية يحاول صيد السمك وعاد خائباً .

— بس لو تصبنى عليه يا حاج ! والله مافى غير قلمين اطنين وينزل يصطاد زى الكلب !

فلم يجب الحاج ، وصرير باب الكوخ الذى خرجت منه زازا فجأة . على عجل مرت بنا دون أن تكلمنا ، مسحتنا وهى تمر بنظرة ازدراء شاملة . فراقبناها وهى تبتعد نحو جذع الشجرة ، دارت وراءه واختفت . « إياك تكون جاعت وراحت تقنعه » (قلت للحاج طلبة) .

ومرت دقيقة قبل أن تبرز زازا من وراء جذع الشجرة .

— يظهر انه موش راضى يقتنع ، (قلت معلقاً) .

— ياما نفسى أشوفها بتقنعه ازاى ! (قال كرشة) .

لكن الحاج لم يتكلم ، متشاغلا بالتسبيح يزغر لجذع الشجرة . ثم برزت زازا وهى تجذب توتو من يده .

— لا والله ، قلت بفرح ، يظهر عرفت تقنعه !

لكن توتو لم ينجذب لزازا بل حدث العكس ، هوَّ اللى جذبها فاختفيا حيث كانا وراء جذع الشجرة . ثم رنت من زازا ضحكة عالية ، وبرزت وهى تجرى وتوتو وراءها . فلما حصلها طوق بذراعه خصرها وراح يجذبها — وهى تقاومه ضاحكة — حتى اختفيا وراء الجذع من جديد . الحاج طلبة راقب المنظر — أعنى تخيله — بعينين جاحظتين وفم مفتوح جمدت التسابيح عليه . ومن وراء الجذع وصلتنا من زازا صرخة ضاحكة نفرت لها عروق الحاج واحمرت عيناه .

— كرشة ! (قال فجأة بصوت مختنق) ، قوم له !

فما كاد كرشة يسمع كلمته حتى وثب يجرى ككلب الصيد ، وفى طريقه أخرج الخنجر من حزام سرواله .

— ده ح يقتله ياحاج ! (قلت فى لهفة وأنا أنهض) .

فلم يجب الحاج ونهض هو الآخر ، بتؤدة راح يسير نحو جذع الشجرة فى حين انطلقت أنا أجرى . الحمد لله ، وجدت أن الجريمة لم تقع — لم تقع بعد على الأقل . كان ذراع كرشة مرفوعًا إلى أعلى وقد قبض توتو على معصم يده الممسكة بالخنجر . صراع العضلات الرهيب بين الرجلين ، بين ذراع كرشة الذى يريد أن يهبط بالخنجر إلى جسم توتو ، وقبضة توتو التى تحاول إبقاء الخنجر بعيداً . لكن عضلات كرشة كانت أقوى ، أخذت يده الممسكة بالخنجر تهبط شيئًا فشيئًا وذراع توتو يرتعد محاولا إيقافها بلا فائدة .

— يا حاج حوشه ! (هتفت فى فزع) ده ح يقتله !

— حوشه ياحاج أبوس إيدك ! (صرخت زازا) .

فلم يجب الحاج ، اكتفى بأن أخرج المسدس من جيبه ووقف يرقب المشهد ، وكان الخنجر قد لامس عنق توتو .

— ياحاج حوشه أنا ف عرضك ! (صرخت يائسًا) .

لكن الحاج لم يحرك ساكنًا ، فأدركت أننى يجب أن أتصرف بسرعة لإنقاذ توتو .

رفعت قبضتى وأهويت بها على يد الحاج بكل قوتى فإذا بالمسدس يسقط منها على الأرض . فانحنيت بسرعة البرق وخطفته ، ووثبت به نحو كرشة .

— سيب الخنجر ده ! صرخت فيه مهدداً ، إرميه حالا !

رأى كرشة المسدس فى يدى فبدت فى عينيه دهشة يمازجها بعض الخوف . فلما رآنى أصوب المدس إلى وجهه وأبدأ فى الضغط على الزناد صار خوفه رعبًا واضحًا وترك الخنجر يهوى على الأرض ، فالتقطته

وأصبحت أنا سيد الموقف . فرح وحشي جرفني ، وإحساس مخيف بالقوة والسلطان .

ـ ما حدش يقرب مني ! صرخت فيهم جميعاً ، ابعدوا عني !

يدي اليمنى تصوب المسدس واليسرى تشهر الخنجر ، تراجعت خطوتين لكي أكون على مسافة مأمونة منهم .

ـ جرى إيه ياسي أحمد ؟ (سألني الحاج بلهجة عتاب) هو المسدس ده بتاعك ؟

ـ دلوقت بقى بتاعي ! (صرخت فيه وأنا أتراجع خطوة أخرى) .

ـ ياراجل ماتقولش كده (قال بابتسامة صفراء) ناولني المسدس ناول ! وبسط يده واقترب مني خطوة .

ـ خليك عندك ! صرخت وأنا أبتعد خطوة .

لكنه ما برح يقترب مني .

ـ ياراجل اعقل (قال لي بنفس الابتسامة) بلاش صغرنة !

وتقدم خطوة أخرى شجعت كرشة فبدأ هو الآخر يتقدم . الحاج طلبة باسط يده يبتسم وكرشة جاحظ العينين متدلي الفك ، كلاهما يقتربان مني ببطء كأنهما لا يبصران السلاحين اللذين في يدي ، أو كأنهما يعرفان أنني لن أستخدمهما .

ـ ابعدوا عني لا ضرب ! (صرخت بصوت مبحوح) .

لكن صوتي لم يعجبني ، وعرق بارد تصبب على جبيني ، فيبدو أنني لن أستخدم أسلحتي فعلا . رصاصة واحدة يمكنها أن تردي واحداً منهما وترهب الآخر لكنني فيما يبدو لن أطلقها . لم أطلق رصاصة واحدة في حياتي ، لم أقتل ذبابة فكيف أقتل الآن إنساناً ؟ المسدس والخنجر في يدي وأنا الذي أتقهقر أمامهما ، أمام الحاج الباسم والغوريلا اللاهثة . وكما يحدث لكثير من الناس الذين يسيرون إلى الوراء تعثرت قدمي في شيء ما على الأرض فإذا بي أترنح وأسقط على ظهري . وفي

غمضة عين شعرت بشيء ثقيل يرتمي فوق ، لم يكن صعباً أن أميز فيه جثة كرشة . بيده اليسرى سحب المسدس من يدى ، وبيده اليمنى سحب الخنجر ، ثم استوى جالساً على بطنى وهو يزغر لى صامتاً . لم أعرف سر صمته إلا بعد لحظة ، عندما غمرت وجهى البصقة التى كان يحوشها فى فمه .

— أفتح كرشه ياحاج ؟ ! (قال المذكور حيث جلس فوق) .

— لا سيبه ، قال الحاج باسماً ، ده راجل طيب ! فبدا الأسف على وجه كرشة . « والله نفصى أوضبه ، » (قال وهو ينهض عنى)

المسدس عاد إلى يد الحاج طلبة والخنجر عاد إلى يد كرشة ، كلاهما بدآ يزحفان نحو توتو .

— إنزل اصطاد يابن الكلب ! قال الحاج لتوتو وهو يشير إلى البحر ، إرمى له الخنجرع الأرض يا كرشة !

فتردد كرشة لحظة ثم ألقى بالخنجر بالقرب من توتو .

— قولى له ينزل يصطاد (قال الحاج لزازا) ودينى إن ماانزل لاسيح دمه ! . . تناولت زازا الخنجر بسرعة وقدمته إلى توتو .

— انزل والنبى ياتوتو (قالت له راجية وهى تطبطب على ظهره) عشان خاطرى يا توتو !

فتناول توتو الخنجر ، تقبضت يده عليه كما تقبضت كافة عضلاته ، فرفع الحاج المسدس وبدأ يضغط على الزناد .

— انزل يا توتو ! صرخت زازا فى يأس ، أبوس إيدك انزل ! فظل توتو يحملق لحظة إلى فوهة المسدس وقد بدا عليه الخوف ، ومالبث أن أولانا ظهره واتجه إلى البحر فى صمت .

— أقف اتفرج عليه علشان تتعلم منه ، (قال طلبة لكرشة) .

وانتبهت أنا إلى أننى مازلت جالساً على الأرض فنهضت وأنا أمسح عن وجهى بصقة كرشة . والتفت الحاج إلى ، رمانى بنظرة قاسية

وهم بأن يقول شيئاً ثم عدل . والمسدس وضعه فى جيبه وقصد إلى جذع الشجرة فجلس بجانبه ليرقب الصيد . وأنا نظرت إلى زازا التى راحت تنقل بين الجميع نظرات حائرة .

— متأسف يازازا، قلت لها بالإنجليزية، يظهر انى مقدرش اقتل أبداً.

فراحت ترمقنى بما خيل إلى أنه نظرة احتقار .

— على كل حال كتر خيرك انك أنقذت حياته (قالت أخيراً) .

النبى عربى ياحضراط ! أخبرنا كرشة . (فسكتنا) .

فى أقل من ساعة كان توتو قد صاد - بعددنا — خمس سمكات ، ثم أعد الوقود وأشعل النار وجلس يشويها حتى نضجت .

— شيل السمك ده ياكرشة ! قال الحاج ، وديه لى هناك تحت الشجرة .

فحمل كرشة السمك وسط نظراتنا المندهشة واتجه به إلى شجرة التفاح ، أما الحاج طلبة فأخرج دفتر الشيكات والقلم وكتب شيكا .

— السمك ده يادوبك على أد غدايا (قال لزازا) ، عاوزين تاكلوا خلوه يصطاد تانى . وآدى شيك بخمسة جنيه اديه لسى زفت ! آه ، أنا أحب آكل بفلوسى .

لم تمد زازا يدها نحو الشيك ، وقفت تحرق الحاج بنظرة ازدراء . فألقى الحاج بالشيك على الأرض وانقلب نحو شجرة التفاح .

— شوف ابن الكلب ! (قالت لى زازا) ، شوف السافل !

فوجدتنى فجأة أضحك وأضرب كفاً على كف ، ثم وجدت أنه لا مناسبة للضحك فكففت .

— مكسوفة أقول لتوتو يصطاد تانى (قالت زازا) .

— والله لكى حق ، أجبتها باستسلام .

— تزاتزا ! قال توتو فجأة وهو يبتسم .

وبسرعة راح يجرى بالخنجر نحو البحر ، عاود الصيد من جديد .

الفصل العاشر

صاد توتو ثلاث سمكات تشاركنا فيها هو وزازا وأنا ، أكلت سمكتى من فرط الجوع حتى ذيلها . والحاج طلبة كما فهمت أكل فى الغداء سمكتين وأعطى كرشة واحدة ، واحتفظ باثنتين للعشاء . زازا أكلت واعتكفت فى العشة ، وتوتو لاذ بمحله المختار وراء جذع الشجرة ، أما أنا فذهبت لأنام حيث تنام الجمجمة . نمت وصحوت عدة مرات ، فى كل صباح أضيف علامة جديدة على جذع الشجرة ، صارت العلامات كلها سبع علامات . وبالخنجر أهذب لحيتى أيضاً ، وأقص أظافرى التى تصر على أن تتحول فى اليوم الواحد إلى مخالب . ثم ينتقل الخنجر إلى توتو الذى صار كل يوم ينزل للصيد من نفسه ، جانب من السمك يأخذه الحاج وكرشة فى مقابل شيك ، والباقى أتشارك فيه مع توتو وزازا . فإذا جلسنا مع زازا فعين الحاج طلبة دائماً علينا ، أو كرشة يحوم حولنا من بعيد ، لكى يستوثقا من أنه لا يوجد فى جزيرتنا حب . ونسيت أن أخبرك أن زازا قد اضطرت إلى ارتداء جلباب كرشة ، وذلك بعد مشاجرة بينها وبين الحاج كادت تنتهى كالمشاجرة السابقة بالضرب . قصرت ذيل الجلباب لكى يناسبها وحولت الكم الطويل إلى كم قصير ، والجزء الذى قصته من الذيل صنعت منه حزاماً ربطته حول خصرها . بالرغم من فكاهة منظرها لم تزل شهية فاتنة .

– والله عال ياكرشة (قال المذكور متصعبا) عشط وشفط جلابيطلك فسطان ! ورفعت زازا ذراعها لكى تهرش تحت إبطها .

– والنبى الجلابية دى ماهى خالصة (قالت وهى تهرش بشدة) ، يا ريتنى جبت معايا دى دى تى ! . . وظللت مدة على خصام مع

الحاج طلبة ، أتحاشاه ويتحاشانى ولا نتبادل حتى تحية الصباح .
ثم بدأ هو بإعادة العلاقات .
— اللى مافيه مركب واحدة فاتت (قال لى فى غيظ) ولا جنس مركب توحد الله !

ورفع يده يتحسس لحيته المتدلية ، إذ كان لا يهذبها كثيراً . سرح بصره فى أرجاء البحر يبحث عن سفينة ، البحر العريض الصامت صمت القبور ، والأفق المستدير الذى يحاصرنا من كل ناحية كطوق من حديد .

— إنت موش بتقول أنك مهندس مراكب ؟ (سألنى فجأة)
— أظن قلت حاجة زى كده ، أجبته بجفاء .
فتجاهل جفائى وسكت لحظة يفكر .
— طب ما تبنى لنا مركب ! قال بتردد كأنه هو نفسه يستسخف الاقتراح .
— بس كده ؟ (أجبته بتهكم) بكره الصبح تكون المركب جاهزة !

— أنا موش باهزر (قال وهو يحاول كتمان غيظه) أنا باتكلم جد.
— طيب ممكن ولا مؤخذة تدينى فكرة أبنيها بإيه ؟
فأشار إلى جذع الشجرة المقطوع .
— شوية هندسة ويبقى مركب (أخبرنى) . رجل غويط (قلت فى نفسى) خطرت له نفس الفكرة التى خطرت لى مرة وأنا أهذب لحيتى ، لكن أين الأدوات التى تحول الجذع إلى مركب ؟
— فين عدة الشغل ؟ (سألته) — الخنجر والمنشار وشوية صبر!
تماماً كما خطر لى مرة وأنا أقص أظافرى ، وغد ماكر .
— شوية صبر ياحاج ؟ ! (سألته لائماً) .
— طولة البال تهد الجبال ، واحنا اربع رجالة طول وعرض !

ثم ضيق عينيه ورمقني بنظرة خبيثة .

ــ تاخد كام وتبنيها ؟ (سألني بلهجة كريهة) .

فرأيت أن أفكر قبل أن أجيب . هي فكرة لا تخلو من الوجاهة لمن يريد أن يغادر الجزيرة ، ومن منا لا يريد مغادرتها ــ على الأقل بعد وصول سيادة الحاج وكلبه كرشة ؟ فإذا تم تحويل الجذع إلى زورق ونجحنا في الخروج به إلى البحر العريض ، أليس من المحتمل أن نصل إلى أرض آهلة بالسكان ؟ وإذا نجحنا في ذلك فلماذا لا أكون قد خرجت من هذه المحنة بمبلغ دسم ينفعني في مستقبل حياتي ؟ إنني في جميع الحالات لن أخسر شيئًا . فتنحنحت قبل أن أتكلم .

ــ ألف كويس ياحاج ؟ (سألته ببساطة) .

ــ ألف ! (هتف الحاج) ، ألف إيه ؟

ــ ألف جنيه طبعًا (قلت بهدوء) .

ــ ألف جنيه ! (زجر الحاج) هي نهيبة يا أستاذ ؟ !

فرشقت إبهامي في حمالة الفانلة .

ــ موش عاجل شوف لك مهندس غيري ، أنا تسعرتي كده (أجبته بكبرياء وأنا أنصرف عنه) .

وعلامة ثامنة وتاسعة رسمتها على جذع شجرة التفاح ، صارت هناك عشر علامات . وزازا أقبلت لتقطف تفاحة ، ثم جلست على الأرض تأكلها وقد شرد بصرها إلى البحر .

ــ احنا لازم نشوف لنا حل ، (قالت أخيراً) ، شوف لازم يعني إيه ؟ ــ حل لإيه ؟ (سألتها باسمًا) .

ــ للعيشة الهباب دي ! ــ عندك فكرة ؟

ــ المصيبة ان ما عنديش ، إنت اللي عامل لي فليسوف .

ــ تنفع بإيه الفلسفة قدام مسدس وخنجر وغوريلا ؟

ــ أنا عارفة ليه ما غرقوش ؟ كانت ساعة نحس يوم ما طلعوا !

أي والله ، كانت شفتاى على شفتيها ، وكان توتو ينشد أغنية جميلة فى ضوء الشفق الأحمر .

ـ جبنا سيرة القط ! (قالت زازا) .

إذ أقبل الحاج طلبة عاينا وراح ينقل بيننا نظرة فاحصة ليتأكد من أننا لانحب بعضنا ، ثم مد لى يده بورقة تبينت أنها شيك .

ـ خد يا سيدى ولا تزعل (قال بسخاء) ، آدى شيك بخمسميت جنيه . فنفخت ساخراً :

ـ ياحاج طلبة أنا موش بتاع فصال ، (أفهمته) ، أنا عمرى ماخدت مقاولة بأقل من ألف. فرمقنى بغيظ يحاول أن يداريه بابتسامة صفراء .

ـ ياراجل ماتبقاش طماع ! هو انت موش ح تركب معانا فيها ؟

فرفعت يدى لأقفل الموضوع : ـ أرجوك ياحاج ، ما تضيعش وقتك ووقتى .

وأوليته ظهرى فجذبنى من حمالة الفانلة .

ـ طب خليهم سبعمية ، (قال مساوماً) ـ ألف يعنى ألف .

ـ طب تمنمية . ـ ٩٩٩ لأ ، أجبته بحزم .

فملأ صدره بالهواء ونفخ ، ثم مزق الشيك الذى فى يده وشرع يكتب شيكاً آخر .

ـ ياساتر ، دنت صعب بشكل ! (قال وهو يناولنى الشيك الجديد بالألف) .

تناولته ببساطة لكى لا يكتشف فرحتى بمبلغ لم أقبضه قط فى حياتى ، طويته ودسسته فى عبى . وكانت زازا تتابع حديثنا بعينين واسعتين .

ـ ألف جنيه بتوع إيه ! (تساءلت فى دهشة) إنت ح تعمل إيه ؟ فرشقت إبهامى من جديد فى حمالة الفانلة

— ح ابنى مركب (قلت لها ببساطة وأنا أتجه نحو جذع الشجرة فى خيلاء .

لكننى كنت أشعر أن فرحتى بالصفقة ليست خالصة ، وخزة من الشك تفسدها على . فن أدرانى — كما تساءلت مرة قبل ذلك — أن شيكات الحاج طلبة لها رصيد هناك ؟



الفصل الحادى عشر

لم يكن إغراء توتو بالعمل صعبًا ، كان دائمًا يحب العمل . وكان سريع الفهم لما أكلفه به ، بعكس كرشة الذى كان لا يفهم الشىء إلا بعد أن يعاد عليه مرات . وعلى أى حال لم أكلفهما بالكثير ، لا شىء غير الحك فى ظهر الجذع بالخنجر والأداة الصخرية الأخرى ، تلك العملية التى نرجو أن تؤدى على مر الزمن إلى تفريغ الجذع من الداخل وتحويله إلى زورق .

— موش ترسم لهم علامات على الخشب ؟ سألنى الحاج .

— لسه بدرى ، أجبته بإيجاز علمى .

لم أكن مجنونًا حتى أرسم لهم خطوط العملية كلها وأكشف عن أوراقى مرة واحدة . أنا الآن مهم لأننى مسئول عن بناء المركب ، ولكى أحتفظ بهذه الأهمية يجب أن أقدم تعليماتى بالعَطارة .

— اشمعنى سى طوطو يشتغل بالخنجر وأنا بالهبابة دى ؟ (تساءل كرشة) .

فجعلتهما يتناوبان استخدام الخنجر .« وانتو إن شاء الله ح تقعدوا تتفرجوا عليهم ؟ ! (تساءلت زازا ساخرة منى ومن الحاج طلبة) .

— إزاى بقى ؟ (قال الحاج معترضًا) لازم كلنا نشتغل .

وتناول الخنجر من كرشة وراح يعمل نحو ربع ساعة ، لم يتوقف إلا عندما تذكر فجأة أنه يجب أن يتوضأ ويصلى الظهر .

— خد يا باشمهندس ، (قال وهو يناولنى الخنجر) .

فرحت أشتغل بدورى نحو ربع ساعة ، لم أتوقف أنا الآخر إلا عندما خطرت لى فكرة هندسية تحتاج منى إلى ساعة من الحسابات على الورق .

« والنبي تاعبين نفسكو ع الفاضي » ! قالت زازا وهى ترقب العمل .
— والله انا برضك با قول كده : (وافقها كرشة) .
وكانت عملية خرافية حقاً ، محاولة تفريغ الشجرة بخنجر وقطعة صخر . والشمس قطعت رحلتها عبر السماء ومالت للغروب ولم يحدث فى الجذع أكثر من بعض الخدوش الشبيهة بما كان فيه من البداية .
— الصبر يا جماعة ، الصبر ! (قال الحاج طلبة حيث جلس يسبح بعد صلاة المغرب) . وتعشينا مثلما تغدينا بالتفاح فقط ، لم يوافق الحاج على تضييع وقت توتو فى صيد السمك وشيه .
— آهه يوم سمك ويوم تفاح ، قال الحاج بعد أن صلى العشاء .
وبحلول الظلام كان ضرورياً أن يتوقف العمل ، الليلة ليست مقمرة والنار التى أشعلناها لم تكن كافية . خمستنا جلسنا حول النار فى صمت ، وهج النار يلقى على وجوهنا ظلالا متراقصة .
— مطهيألى الدنيا برضت شوية (قال كرشة وهو يدعك بيده صدر الغوريلا) . وكان الجو قد تغير فعلا عن ذى قبل ، لم يعد جو الصيف الذى يستحب فيه نوم الخلاء . عشر علامات رسمتها على الشجرة ، أيمكن أن تكون كافية لانتهاء الصيف الذى لم يبدأ إلا منذ شهر واحد ؟
— تفتكر الشغلانة دى تاخد لها أد إيه ياباشمهندس ؟ (سألنى الحاج طلبة) —شهرين . . تلاتة . . أربعة . .
— قول خمصة سطة صبعة ! (قال كرشة) .
— قول تمانية تسعة عشرة ! (قالت زازا ضاحكة) .
ثم نهضت متهيئة للانصراف .
— تصبحوا على خير ياحضرات ! قالت وهى تبتعد .
تبتعد وهى تترنم بأغنية إنجليزية ، تلك الأغنية التى تبينت بعد قليل أنها ليست أغنية ، إنما هى كلمات عادية لحنتها زازا موجهة إياها

إلى شخص يعرف الإنجليزية .

ـــ ألا يمكنك (ترنمت) بعد أن يناموا (ترنمت) أن تأتى إلى الكوخ قليلا ؟

فكاد قلبي ـــ وقد فهمت ـــ يقفز من حلقى ، فمن غيرى يعرف الإنجليزية حتى توجه إليه هذا النداء ؟ وابتعدت زازا وهى تترنم على إيقاع من دقات قلبي ، ستة عيون غيرى راقبتها وهى تتراقص نحو الكوخ فى جلباب كرشة .

ـــ عاوزين ننام علشان نصحى للشغل بدرى (قال الحاج طلبة حين أقفل باب الكوخ على زازا) .

ـــ آهه ده عز العقل ! أجبته وأنا أنطرح على الأرض . .

وانطرح الحاج هو الآخر غير ناس أن يحكم ثنى جلبابه على جيبه ، وكرشة نام على ظهره كالقتيل . أما توتو فتركنا ومضى إلى ما وراء جذع الشجرة . فأغلقت عينى متظاهراً بأننى سأنام ، كأن رجلا يستطيع أن ينام وفى صدره هذا القلب المجنون . عقدت يدى تحت رأسى ورحت أحاول ترتيب أفكارى المحمومة . هل ألبى النداء وأذهب إلى زازا ؟ إنى أعرف أننى سألبيه حتماً ، كيف بالله عليك لا أفعل ؟ لكن أليس جديراً بى أن أفكر فى العواقب ؟ رصاصة تستقر فى صدرى أو خنجر يغوص فى بطنى ، أو على الأقل علقة حامية تحطم ضلوعى ؟ لكنهم من ناحية أخرى لا يستطيعون اليوم إيذائى بشدة ، أنا المهندس الذى فى يده خلاصهم .لا أظن أن أحداً سيقتلنى أو حتى يضربنى ، سيكتفون فى أغلب الظن بتهزيئى ، فمن الذى لا يغامر بالتهزئ تلبية لأغنية زازا ؟ ؟ من لا يفعل ذلك فلا شك أنه مهزأ من الأصل .

ارتفع غطيط كرشة فازداد خفقان قلبي ، وازداد أكثر عندما أجابه شخير الحاج طلبة . لكننى لم أنهض من فورى ، انتظرت حتى يغرقا فى النوم . نعم أنا المهندس الذى سيخرجهم من هنا ، جدير بى

أن أستمتع ببعض الامتيازات . بأى حق يتحكم فى الحاج طلبة ويعلمنى مبادئ السلوك ؟ الشيك الذى أعطاه لى هو أجرى عن العمل ، ما حريتى فلا أذكر أننى بعتها لأحد .

غرق الرجلان فى النوم فنهضت بحذر شديد ، جثوت على يدى وركبتى ورحت أزحف نحو الكوخ . فى الظلام أسعى نحو الكوخ كالحيوان، أليس غريباً أن يسعى الرجل إلى الحب وهو يسير على أربع — خاصة وهو رجل مهندس ؟ فلما بلغت باب الكوخ لم أطرقه وإنما نقرت عليه بأظافرى ، سرعان ما انفتح بصرير خافت .

— إنت فين ؟ (أتانى صوت زازا) .

— أنا اهه ! (أجبتها هامساً من حيث جثوت) .

— ومالك ماشى كده ؟ (سألتنى فى دهشة حين رأتنى) .

— هس ! (قلت لها محذراً) .

ودفعت الباب برأسى ودخلت ، مصرًّا لسبب لا أدريه على مواصلة السير على أربع . فلما أقفلت زازا الباب نهضت كالمحموم أتلمسها فى الظلام .

— إنت . . — هس ! (قاطعتها من جديد) بلاش كلام ليسمعونا !

وألقيت ذراعى حولها وضممتها إلى صدرى ، بقوة نهلت من عطرها فى شراهة رجل عطشان ظمآن صديان وقعت يده ، بعد يأس ، على شوب بيرة مثلجة . وسمعت من تلاحق أنفاس زازا ما دلنى على أنها لا تختلف عنى كثيراً . لحظة من النشوة ما كان أمتعها ، وما كان للأسف أقصرها . إذ شعرت بشىء يرتطم بظهرى حيث وقفت ، باب الكوخ الذى انفتح فجأة بعنف مع صوت الحاج طلبة .

— والله عال ياباشمهندس ! والله عال قوى ، عال قوى قوى ! فالتفت لأواجهه هو وكرشة ، كرهتهما كما لم أكره أحداً من قبل .

وكان كرهى مشوبًا بثورة مدمرة ، قررت فجأة أن أطالب بحريتى .

— هو إيه اللى والله عال ؟ ! (صرخت فى وجهه) إنت مالك ومالى ؟ ! بأى حق تدخل علينا ؟ حاشر نفسك بينا ليه . .

— لا ياشيخ ! (جأر الحاج طلبة) ، ولك عين تتكلم كمان ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ ؟ فاكرنا قوادين والا إيه ؟

ومن صوته عرفت أنه لن يقبل ثورتى ، فرأيت أن أحاول حل المشكلة بالمنطق البارد — إذا كان المنطق البارد يمكن أن يحل شيئًا .

فنفخت كل الهواء الذى فى صدرى وخرجت من الكوخ .

— بقى صلى ع النبى ياحاج (قلت له بأهدأ صوت عندى) أنا باحب زازا وعايز اتجوزها ، عندك مانع ؟

فسكت لحظة يستوعب كلامى .

— تتجوزها ؟ (سألنى بعد حين) تتجوزها ازاى بقى ؟

— زى كل الناس ما بتتجوز ؟

— وفين المأذون اللى يجوزها لك ؟

— هى الدنيا طول عمرها فيها مأذون ؟ الجواز ورقة نكتبها وانت وكرشة اتنين شهود ! فأفحم الحاج لحظة ، لكنه لم ييأس .

— واحنا نعرف منين انه جواز بحق وحقيق ؟ ما يمكن الحكاية كلها نصب . — باقول لك تكتب عقد .

فسكت الحاج طلبة ، ثم رفع يده ليهرش رأسه وهو يفكر .

— إن جيت للحق (قال أخيراً) البت دى عايزه حد يلمها . !

— بس ما تقولش بت ! (قالت زازا) .

— لكن تفتكر انك تقدر تلمها ياباشمهندس ؟ سألنى الحاج بابتسامة كريهة — مقدرش ليه ، صغير ؟

— افرض أن الطور اللى هناك ده (قال مشيراً إلى جذع الشجرة حيث يوجد توتو) جه اتهجم عليها تانى) ، ح تقدر سيادتك تحوشه ؟

– ياسيدى ابقى حوشه انت !
– حاجة لطيفة قوى ! سيادتك تتجوز وأنا اشتغل لك غفير ؟
– على كل حال ما تحملش هم . أما يتهجم عليها ابقى اتصرف.
– وافرض انه قتلك ؟ – فى ستين داهية !
– والمركب يا أستاذ ؟ مين يبنى المركب ياباشمهندس ؟ إنت فاكر ان حياتك ملكك انت بس ؟

فأدركت أننا نتجادل فى الهواء .

– ما هو شوف بقى ياحاج (قلت بحزم) إما إنى اتجوزها وإما إنى موش عامل لكو المركب . قلت إيه بقى ؟
– لا ياشيخ ! زجر الحاج ، والشيك اللى ف جيبك يا أستاذ ؟
– اتفضل (قلت وأنا أخرج الشيك من عبى) بلّه واشرب ميته !
فما كدت أقولها حتى وجدت نفسي جالساً على الأرض ، على أثر زغد فى صدرى من يد كرشة . يبدو أننى سأقضى نصف وقتى فى هذه الجزيرة مبروشاً على الأرض .
– ما تطولش لسانك على الحاج !
– سيبه ياكرشة ، قال الحاج ، قوم يا باشمهندس .
ومد يده يساعدنى على النهوض وبدأ يتكلم بهدوء .
– شوف ياسى أحمد (قال الحاج طلبة) احنا متفقين على إن البت دى لازم تتلم ، موش كده برضه ؟ – وباقول لك المهاّ موش راضى .
– ما تضحكش على نفسك ، موش انت اللى تقدر تلمها ! فبدأت أفهم .
– ما تحطها على بلاطة وتريحنا يا حاج ، (قلت له ساخراً) .
– يعنى إيه ؟ (سألنى) – يعنى قول انك انت عاوز تتجوزها .
فسكت حيناً يتفكر ، ثم تفشت فى وجهه بسمة حياء أبله .
– وحد يتأوصل لست زازا ؟ ! قال وهو يغض البصر .

فرنت من زازا ضحكة صغيرة .

— ثم انت ح تتجوزك على إيه ؟ استرسل الحاج طلبة ، ماهيتك كام فى الشهر ؟ عشرين تلاتين جنيه ؟ الست زازا عايزه راجل مقتدر . راجل ملو هدومه ، يلبسها وينغنغها ويعيشها عيشة ملوك ، ولا انا غلطان يا ست زازا ؟

فلم تجب زازا من فورها ؛ راحت تنقل النظر بيننا حينا ثم بدأت تضحك . فى جلباب كرشة رأيت جسمها يترجرج من شدة الضحك حتى تهالكت على ركبتيها ، ورفعت يديها إلى وجهها لتستر بهما ضحكها . فلما رفعتهما بعد حين كان وجهها مبللا بالدموع .

— ماهو شوفوا اما اقول لكم (قالت بصوت متهدج) اتفقوا مع بعض وشوفوا لى عريس ! أنا عايزه اتجوز وخلاص !

وبسرعة انطلقت تجرى نحو الكوخ ، دخلت وصفقت الباب خلفها .

— جالك كلامى ياباشمهندس ؟ (قال طلبة) البت عايزه راجل يلمها !

فأحسست فجأة أننى أريد أن أبكى .

— طب والله العظيم مانا عامل لكو المركب ! (هتفت بصوت تخنقه الدموع) . فصوب الحاج إلى نظرة طويلة قاسية .

— طب إيه رأيك انك ح تعملها ؟ (قال لى بهدوء) .

— لأ مش عاملها ! (قلت متحديا) . — لأ ح تعملها .

— لأموش عاملها ! وهنا تدخل كرشة .

— الله انت لمض كده ليه ؟ الحاج قال لك ح طعملها يعنى ح طعملها ، آه ! . . وزغد جديد فوجدتنى مبروشا على الأرض . يبدو أننى سأعملها !

الفصل الثانى عشر

لم يكتف الحاج طلبة – فى الصباح – بأن يتزوج زازا بدلا منى ، وإنما طالبنى بأن أشهد على الزواج مع كرشة .

– سبحان الله ! قلت له فى مرارة ، بقى تخطف الولية منى وعايزنى اشهد على جوازكم ؟ فلم يجب الحاج .

– ح طشهض (أخطرنى كرشة)،يعنى ح طشهض!فشهضت ! !

وبينما أخذ الحاج يد زازا فى يده ليقرأ الفاتحة رأيت صدرها يهتز بضحكة مكتومة وقد تورد وجهها حياء . لم يتورد وجهها عندما قبلتها أو عندما قبلها توتو ، فالخجل فيما يبدو لا يصيبها إلا من العقود الرسمية . عقد الزواج كتبه الحاج على ظهر شيك سوف تجده بين هذه الأوراق إن هى وصلتك ، وعلى العقد وقع الحاج ووقعت زازا ووقعت أنا ، وكرشة بل إصبعه بريقه وبصم . ثم طوى الحاج عقده وأودعه فى جيبه مع السبحة والمسدس ودفتر الشيكات .

– مبروك ياحاج ، (قال كرشة) مبروك ياسط ظاظا !

– الله يبارك فيك يا كرشة (أجابه الحاج) ومن هنا ورايح موش عايزك تقول ست زازا . هى اسمها الحقيقى إيه ؟

– عظيظة ! – خلاص ، تبقى تقول ست عزيزة .

– مبروك ياست عزيزة (قلت ساخراً) . – يالله ياعزيزة اجرى ع البيت (قال لها الحاج بلهجة الزوج الذى أصبح فجأة قواماً) .

فاهتز صدر زازا بضحكة صغيرة ثم نهضت متجهة إلى الكوخ ، لم تنس قبل إقفال الباب أن تلتفت نحوى وتخرج لسانها .

ـــ عقبال البكارى ياحاج! (قال كرشة) . فتجاهل الحاج كلمته .

ـــ إحنا ليه قاعدين من غير شغل ؟ (تساءل الحاج طلبة مشيراً إلى جذع الشجرة) .

ـــ ح نشتغل فى يوم فرحك يا حاج ؟ (قال كرشة معترضاً) أنا با قول نأخذ النهارده أجاظة . . فتفكر الحاج لحظة .

ـــ زى بعضه يا سيدى (قال متساهلا) ، خدوا النهارده أجازة .

وتفكر لحظة أخرى ثم أشار إلى توتو الذى راح يتسكع بعيداً .

ـــ وخلى الجدع ده يصطاد لنا سمكتين . ـــ وجب ياحاج .

وسكت الحاج طلبة حينا ثم تثاءب وتنحنح ، ثم بسط ذراعيه يتمطع ، وأخرج السبحة ونهض متثاقلا ، بدأ يتحرك نحو الكوخ على مهل . ببطء وتؤدة يسير ، طويلا عريضاً حافياً يداعب حبات السبحة المتدلية من يده ، آل يعنى رايح يسبح ! أنا وكرشة تابعناه وهو يبتعد بنظرات تقطر حسداً ، لأول مرة تشاركت مع كرشة فى شعور واحد . فبينما راقبت الحاج متجهاً إلى الكوخ ساورنى مع الحسد شعور آخر غريب ، شعور بالراحة لأننى لست أنا الذى يتجه إلى ذلك الكوخ ! لم يكن فى إمكانى أن أحتمل على ظهرى هذه النظرات الحاسدة ، كأن الحاج كان مصيباً حين قال أننى لا أستطيع أن أحمى زازا . هو وحده الذى ـــ بالمسدس وبعضلات كرشة ـــ يستطيع أن يحميها ، إذا صح أنه من الممكن لزازا ـــ أو من اللازم ـــ أن تحمى .

ـــ هع ! (قال كرشة حين دخل الحاج وأقفل الباب) ، أما حكاية ياولاض !

وبفم مفشوخ بابتسامة كريهة ، وجفون متهدلة على عيون الغوريلا ، راح يحدق فى الباب الذى أغلق على الحاج وزازا . وشعور غريب آخر دهمنى فجأة ، أننى لست أكره كرشة كما يجب أن أكرهه . هو ضربنى وأذلنى وقد يضربنى ويذلنى فى أية لحظة ، ومع ذلك لا أكرهه . بل

يخيل إلى أنه كان من الممكن لو تغيرت الظروف أن أحتمل شيئاً من الميل إليه .

— صلامات يا اسطاز ! (قال فجأة بلهجة تريقة) إنت آنصتنا قوى !

— الله يآنصك ! (أجبته بنفس اللهجة رافعاً يدى إلى جبينى بالسلام) .

— طب والنبي انط راجل طيب ، (أضاف كرشة مستهزئاً) .

— ده بس من أصلك . — هع ! (تقصع كرشة) هع ! فرحت أتفرج عليه حيناً لكى أستوعبه : — إيه ؟ (سألنى) بتشبه على ؟

— ممكن أسألك سؤال ؟ (قلت له بهدوء) . — إسأل إحنا ورانا حاجة ؟

— إنت ولا مؤاخذة مالكش غية فى الدنيا غير ضرب الناس ؟

فلم يجب من فوره ، راح يتفحصنى من تحت جفونه المتهدلة بنظرة مستريبة . — يعنى إيه بقى ؟ سألنى أخيراً .

— يعنى من يوم ما شرفت هنا ، شرحت له ، ما شفتكش بتعمل حاجة غير يا تضربنى يا تضرب توتو . إحنا أذيناك فى حاجة ؟

— يعنى إيه ، انتو موش بتظعلوا الحاج ؟ أجابنى بنبرة تحرش .

— زعلناه فى إيه ؟ ؟ (سألته ببرود) . — يا صلام ، كل ده وما زعلطوهش ؟

فأصررت على برودى : — كل ده يبقى إيه ؟

فأخذ كرشة يفكر ، نحواً من دقيقة يبحث عن تهمة يلصقها بنا .

— ناظلين بوص فى البت قدامه ، هى دى شوية ؟

— طب وهو دخله إيه ؟ هى مراته ولا بنته ؟

— الحاج ما بيحبش المصخرة ، (أجابنى) ولا أنا احبها كمان ، آه !

— والجوازة دى موش مسخرة ؟ إشمعنى هو اتجوزها ؟؟ ليه ما اتجوزهاش أنا ؟

— عشان ما تعرفش تلمها . فتريثت لحظة .

— طب وانت ؟ (سألته) إنت ما تعرفش تلمها ليه ما تتجوزهاش انت ؟ فسكت لحظة مفحماً .

— وأنا إيش أوصلنى للحاج يا اسطاز ؟ (قال بعد حين) الحاج ده مربينى من صغرى . جابنى م الشارع وعلمنى بنى آدم . أنا لحم كتافى من خيره يا اسطاز . وكانت لهجته قد أصبحت عدائية سافرة تنصحنى بأن أكف ، لكننى يجب أن أكمل مهمتى :

— لكن هى مستظرفاك انت (قلت مغامراً) مرة قالت لى إنها شايفة فيك حاجة جذابة !

فارتفعت جفون كرشة بينما تدلى فكه الأسفل ، وتركزت عينه على الكوخ وقد طفحت على وجهه ابتسامة حقيرة .

— هع ! (قال كرشة أخيراً وهو ينهض) أما نروح نصطاد الغدا !

وتركنى واتجه نحو توتو ، من بعيد رأيته يلقى له بالخنجر ويشير إلى البحر ، فتناول توتو الخنجر ونزل للصيد بالطاعة التى اعتاد عليها فى العهد الأخير . وأنا قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها بالمنشار الصخرى علامة جديدة .

الفصل الثالث عشر

خمس علامات جديدة وأصبح عندنا مشروع زورق حقيق . بالخنجر والمنشار الصخرى أعملنا النحت والكحت فى جذع الشجرة حتى ظهر لنا تجويف عميق يبشر بالخير . أنا وتوتو وكرشة نعمل والوغد طلبة لابد فى الكوخ يلعق العسل ، فإذا خرج من الكوخ فذلك لكى يستحم فى البحر ويصلى ، ثم يعود وهو يحمل نصيبه ونصيب زازا من السمك الذى صاده توتو . مرة واحدة أقبل ليلقى نظرة على الزورق ، رأى التجويف الكبير فبدا عليه السرور .

– بارك الله فيكم ، (قال لنا مهنئاً) ، شدوا حيلكو يا جدعان !

ولكى يكافئنا على نشاطنا أخرج دفتر الشيكات وكتب لكل منا شيكاً بخمسين جنيهاً . غير أنه بدا وكأنه فقد ذلك الاهتمام الشديد بسير العمل فى الزورق ، لم يعد يتطلع بشوق بالغ إلى مغادرة الجزيرة . ولكى يهذب لحيته وشعره وأظافره بالخنجر تسبب فى تعطيل العمل أكثر من ساعة . وكانت اللحية التى يهذبها قد أصبحت نصف بيضاء ، وأكاد أقسم أنه لم تكن فى وجهه منذ أيام تلك الغضون والكراميش .

– إوعوا حد يروح ناحية العشة (قال لنا مرة) الست بتستحمى وراها !

فاتجهت عيوننا إلى العشة تريد أن تخترقها إلى ما وراءها ، ثم ظهرت زازا فى جلباب كرشة وهى تعصر القميص الوردى الذى غسلته ، ثم ضربت به الهواء ونشرته على غصن من شجرة التفاح وهى تغنى .

– إوعى تقول ممنوع الحب (زقزقت زازا) إوعى تزعل م اللى يحب . كل شيء ممنوع فى الدنيا إلا الحب ، إلا الحب !

وبينما غنت راحت تهز رأسها الفاتن على إيقاع النغم .

— عزيزة ! (ناداها الحاج زاجراً) بلاش غنا وادخلى العشة ! زوج حمش أطاعته زازا وعادت إلى الكوخ . هى فى الكوخ معظم الوقت ، ليس عند الحاج طلبة نساء يغادرون البيت ويتسرمحن أمام الأغراب بلا لزوم . فلما رأى أنظارنا لا تترك القميص المعلق إلا لكى تعود إليه ، ذهب فنزعه عن الشجرة واختفى به فى الكوخ . حتى قميص زازا يعتبره الحاج حرامًا علينا .

— تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا ! هكذا راح توتو يردد بغير شعور وهو يعمل الخنجر فى لحاء الشجرة. قال له كرشة ، : « هو إيه ياخويا اللى تظاتظا تظاتظا ! ماتشطغل وانت صاكت » !

فسكت توتو . وعلامتان جديدتان على شجرة التفاح وبدأنا نرتعد من البرد ليلا . فى هذا الجو الجديد لم يعد من السهل علينا أن ننام عراة فى الخلاء ، النار التى نشعلها تزودنا بشىء من الدفء ثم لا تلبث أن تنطفئ فنبرد .

— اتفرج يا سيدى ، (قلت لكرشة متأففًا) هو نايم دفيان واحنا بنتكتك . فلم يجب كرشه من فوره ، كان يفكر .

— عارف أنا ح اعمل إيه ؟ قال بعد حين ، ح أقول له يرجع لى جلابيطى .

— طب وأنا وتوتو ؟ (سألته) فأجابنى ببصقة على الأرض .

* * *

— والست تمشى عريانه ؟ (قال الحاج فى غيظ عندما طالب كرشة بجلبابه فى اليوم التالى) .

— ياحاج خليها جوه البيت (برطم كرشة) أنا باباط طول الليل أطكطك !

— هو يطكطك (قلت للحاج) وأنا وتوتو نرد عليه .

فسكت الحاج مفحماً .

ــ ممكن ولا مؤاخذة أعرف انت لابس تحت الجلابية دى إيه ؟ (سألته بعد لحظة) . فوخزنى بنظرة حادة .

ــ يعنى إيه ؟ (سألنى بغيظ) .

ــ يعنى باقول ما دام انت نايم جوه دفيان ، تبقى تسلفنى جلابيتك بالليل !

ــ والله عال ! (قال الحاج وهو يضرب كفاً بكف) واحد عاوز جلابية الست والتانى عاوز جلابيتى !

ــ ما هو انت يا حاج لو تجرب البياط برة كنت تعظرنا (قال كرشة) .

ــ وما تنساش يا حاج (قلت أنا) إننا لازم نحافظ على صحتنا. إذا عيينا مين اللى يعمل المركب ؟

فسكت الحاج لحظة مفكراً ، ثم ابتعد عنا دون أن يجيب . لكنه بالليل نادى كرشة إلى الكوخ ، ومن خلال الباب الموارب ناوله الجلبابين .

ــ ربنا ما يحرمنا منك يا حاج (قال كرشة داعياً) .

هو لبس جلبابه وأنا لبست جلباب الحاج طلبة .

ــ والله عال يا كرشة (قال المذكور) عشت ولبصت بنص كم !

وكان منظره نكتة حقاً فى ذلك الجلباب الذى حولته زازا فستاناً ، مثل منظرى أنا فى جلباب الحاج الفضفاض الذى يتهدل حولى على الأرض . لكنه أدفأنى أثناء النوم ، إذ تهت فيه كأننى أنام فى خيمة . فتذكرت توتو الذى يبيت بالمايوه وراء جذع الشجرة ورثيت له ، ربما تناوبت معه ارتداء الجلباب إذا اشتد البرد عن ذلك . لكن اشتداد البرد صنع بى العكس ، جعلنى أنسى كل شىء عن توتو . بل إننى طالبت الحاج ذات صباح بأن يترك لى جلبابه خلال النهار أيضاً .

ــ لا ياشيخ ! (جأر الحاج فى وجهى) والنبى صحيح ! ماتاخد

الفانلة وملحقاتها ! — ما هو أصل يا حاج . . . .

— لا أصل ولا فصل ، دنا لو مشيت وراك ح تقلعنى عريان ! إقلع الجلابية ياباشمهندس ! ! فخلعتها . . .

— وعلي فكرة الست ابتدت تبرد بالليل ، (قال الحاج لكرشة منذراً) ، يعنى ما نتش واخد الجلابية الليلة .

— يا نهار اصوض ! (جعر كرشة) دنا اموط م البرض يا حاج .

— إنت راجل وتستحمل لكن هى ست (قال الحاج بجزم) . وطلب الخنجر لكي يهذب لحيته التى كاد الشيب أن يشملها كلها ، وسط طائفة جديدة من الغضون والتجاعيد . لكننا عملنا فى ذلك اليوم كما لم نعمل فى أى يوم آخر ، العمل من ناحية يشيع الدفء فى أجسامنا العارية ، ومن ناحية أخرى يقربنا من يوم الخلاص . كرهنا الحياة فى هذه الجزيرة اللعينة حيث لا غذاء ولا كساء ولا نساء .

وزازا أيضاً تبين أنها كرهت حياتها .

— دى ما بقتش عيشة ! (أتانا صياحها من الكوخ المقفل) إنت ح تدفنى بالحيا ؟ ! فلا ندرى بماذا أجاب الحاج طلبة .

— أنا طهقت خلاص ! (عاد صوتها الصارخ) إعتقنى يا أخى ! فلم ندر برضه بماذا أجابها .

— طب والله ما انا قاعدة لك ! ح اخرج يعنى ح اخرج !

وانفتح باب الكوخ بعنف وخرجت منه زازا ، يد الحاج حاولت أن تستوقفها ففشلت . خرجت زازا مسرعة والحاج وراءها ، فلما أوشك على اللحاق بها بدأت تجرى ، والحاج يلهث وراءها ولا يستطيع أن يمسكها . — كرشة ! (صاح الحاج منادياً) ، إمسك البت دى ! فناولنى كرشة الخنجر وانطلق يعدو ، غوريلا قبيحة تطارد الغزال الشارد . ووقعت زازا بين ذراعيه ، خيل إلى أنه احتجزها هناك لحظة زائدة عن الحاجة . ثم جذبها من يدها وقصد بها إلى الحاج طلبة الذى

أهوى على وجهها بصفعة قوية .

— أنا ما حدش يضربنى ! (صرخت زازا بصوت مختنق) موش عايزه اقعد معاك ! زهقت من خلقتك ! طلقنى وريحنى منك !

فناولها الحاج صفعة ثانية وجذبها داخل الكوخ وهى تبكى .

— تزاتزا ! تزاتزا ! (زجر توتو بغير شعور وهو ينظر إلى الكوخ بمرارة) .

علامة جديدة على جذع الشجرة وخرجت زازا من الكوخ تصرخ فى فزع . — إلحقوا الحاج ! الحقوا الحاج !

فأسرعنا إلى الكوخ لكى نجده ملقى على الأرض وهو يتلوى من الألم ويزمجر كحيوان جريح . — ماله يازازا ! (سألتها) .

— موش عارفة . مرة واحدة بصيت لقيته بيقول يا بطنى ، وراح واقع من طوله . — مالك ياحاج ؟ (قال له كرشة) ، صلامتك .

لكن الحاج لم يجبه ، راح يجيل بينه وبينى نظرة زائغة وهو يتأوه .

— هاتى له يشرب (قلت لزازا) .

فلما سقيناه أخذ يسعل ويسعل ، فاحترنا هل الوجع فى بطنه أو صدره أو فى الاثنين معاً . هناك رقد يلهث ويجيل فى السقف نظرة تائهة ، ثم ثقلت جفونه وبدا أنه سينام . وقبل أن ينام رأيت يده تمتد إلى جيبه لكى تحكم إقفاله على المحتويات الثمينة .

— سخن زى النار ! (قالت زازا وهى تتحسس جبينه) .

ونزعت قطعة من ذيل قميصها ، بلتها بالماء ووضعتها على جبينه بصفة كمادة . فلما تأكدنا من أنه قد نام غادرنا الكوخ وعدنا إلى العمل .

— لا حول الله يارب ، قال كرشة متوجعاً ، صحيح المؤمن منصاب .

فلم أعلق ، رحت أنحت فى المركب وأنا أقول لنفسى ماذا لو مات الحاج طلبة ؟ لست أخاف عليه بالطبع — فليمت فى ستين داهية — وإنما أخاف من الموقف الذى سيعقب وفاته . المسدس المحشو بالرصاص ، من الذى يرثه من الحاج وكيف يستخدمه ؟ الحق يقال أن الحاج لم

يستعمل مسدسه حتى هذه اللحظة إلا فى حفظ النظام ، فماذا يحدث إذا وقع السلاح الخطير فى يد وحش ككرشة أو مأفون كتوتو ؟ وقطعت زازا خواطرى ، إذ خرجت من الكوخ وأتت ترقب العمل فى صمت .

— سبتيه ليه يا ست ظاظا ؟ (قال لها كرشة معاتبا) .

— ح اعمل له إيه ؟ آهه نايم . فسكت كرشة ، ونظرت زازا إلىّ .

— على الله يموت ! (قالت لى بالإنجليزية) .

— والله موش متأكد ، (أجبتها بنفس اللغة) .

وهممت بأن أروى لها خواطرى عن المسدس ، لكن كرشة منعنى .

— النبى عربى يا أسطاز ! قال وهو يضربنى كتفًا كاد يوقعنى . فسكت صاغراً . لكنه اضطر بعد حين إلى أن يبتعد عنا إلى ما وراء الكوخ لحاجة عرضت له فوجدت فرصتى للكلام . رويت لها خواطرى عن المسدس ، تلك الخواطر التى لم يكن من العسير على امرأة ذكية مثل زازا أن تقتنع بوجاهتها .

— طب العمل ؟ سألتنى حائرة . — موش عارف (أجبتها متردداً فى مصارحتها بالفكرة التى تراودنى) .

— تيجيش اسرق منه المسدس وهو نايم وارميه فى البحر ؟ (قالت هامسة بعد لحظة) . فتفكرت فى الأمر .

— لأ (قلت لها) ، المسدس ضرورى لحفظ النظام . من غيره ح ينزلوا ضرب ف بعض بالخنجر .

فسكتت مقتنعة ، وعند ذلك غامرت بإطلاعها على فكرتى .

— إيه رأيك تسرقى الرصاص من المسدس ؟ فاتسعت عيناها .

— أسرق الرصاص ؟ سألتنى فى دهشة .

— آه ، هو المسدس له قيمة من غير الرصاص .

— طبعا لأ . — الحاج بيفتح المسدس يشوفه فاضى ولا مليان ؟

- لأ . - خلاص ، إسرق الرصاص .

وشرحت لها كيف أن المسدس الفاضى سيظل صالحاً لحفظ النظام مثل المسدس الملآن طالما أن أحداً لا يعرف من الأمر شيئاً ، وفى الوقت نفسه لن يستطيع الحاج طلبة أن يستخدمه فى القتل إذا سولت له نفسه ذلك . فإذا ما تمكن كرشة أو توتو من اختطاف المسدس من الحاج - بسبب موته أو اشتداد المرض عليه - فإنما يكون قد اختطف سلاحاً لا قيمة له .

- طب والنبى فكرة ! (قالت زازا بسرور) تعرف إنلك لئيم قوى ؟ . . فاكتفيت بابتسامة صغيرة وأنا أسبل جفون التواضع ، واضطررنا إلى قطع الكلام بسبب عودة كرشة .

وبينما انشغل المذكور بالنحت تبادلت وزازا عبر جذع الشجرة نظرة تفاهم عميق ، فى عينيها رأيت نظرة احترام وتقدير أطربتنى . ثم خفق قلبى وغمرتنى نشوة بالغة ، عندما رأيتها تزم شفتيها وتمدهما نحوى فى شكل قبلة صامتة ، حبيبتى زازا .

انتهينا من العمل فى المساء فرحنا نعود الحاج طلبة ، وجدناه كما تركناه نائماً يلهث بصوت كالحشرجة . كلمته فلم يسمعنى ، وجسست جبينه فوجدته ما زال يلسع ، أسخن حاج جسسته فى حياتى !

- لا حول الله يارب (قال كرشة وهو يضرب كفاً بكف) ، صحيح يا عالم المؤمن منصاب . . سمعت منه تلك الكلمة مائة مرة خلال النهار ، ليته كان هو الآخر مؤمنا .

- تاخذ الجلابية دى ؟ (سألتنى زازا مشيرة إلى جلباب كرشة الذى ترتديه) موش معقول نقلع الحاج الليلة .

- طب ماخدهاش انا ليه ؟ (نعر كرشة) ، هى موش جلابيطى ؟

فراحت زازا تلسعه حيناً بنظراتها ثم ابتسمت فجأة .

- لك حق يا كرشة ، قالت له بظرف غريب ، خد جلابيتك ،

إنت أولى بيها يا غلبان ! . . وخلعت الجلباب عن القميص الوردى ، تلقفه كرشة منها فى فرح .

— ربنا ما يحرمنا منك ياسط ظاظا ، ربنا يشفى لك الحاج يارب .

وبينما اختفى رأسه فى الجلباب وهو يلبسه واجهتنى زازا بأعذب ابتساماتها ، أسبلت جفونها فى دلع وزمت شفتيها ، أهدتنى قبلة صامتة كقبلة الصباح . كأننى أفقت من تلك القبلة ، كأنها لم تعشش فى دماغى من الصباح إلى المساء . فلما غادرنا الكوخ كنت أرتعد ، كما ارتعدت طول النهار كلما ذكرت تلك القبلة . لأنها ستكون الليلة وحدها تقريباً مع ذلك الرجل الغائب عن الوعى ، فهل أسمعك تقول أنه عمل غير أخلاقى ؟ ربما ، فهل كان عملا أخلاقياً من الحاج طلبة أن ينتزع زازا منى ويستأثر بها دونى ؟ وإزاء تلك الرعدة الجامحة التى شملتنى ، كيف تتوقع منى حاسة أخلاقية مرهفة ؟ فلما انفردت بكرشة فى الخارج رأيته يرفع صدر الجلباب إلى أنفه لينهل من رائحة الجسم الذى كان فيه من قبل . — الله ياولاض ، الصفا حلو !

وفرك كرشة كفيه ثم تثاءب وتمطع ، وتمدد على ظهره لينام .

— موش ح طنام يا باشمهندس ؟ — دنا نمت تقريباً ، قلت وأنا أتصنع التثاؤب .

وعاقدا يدى تحت رأسى حيث تمددت رحت أنظر إلى النجوم اللامعة فى السماء المظلمة ، تبرتر لا مع على فستان سهرة أسود ، يرتعد مثل ملايين الخلايا المرتعدة فى جسمى أنا . حبيبتى أسبلت جفونها فى نداء ، زمت شفتيها وأهدتنى قبلتين . زازا تنادينى لأنها تريدنى ، زازا الجميلة العزيزة ، زازتى أنا . وشخير كرشة شق سكون الليل ، رن فى أذنى فى تلك الليلة موسيقياً منغماً ، كآلة نحاسية فى مقطوعة لسترافنسكى . نام الحمار كالقتيل ولم يشعر بشىء مما يحتدم فى صدرى ، لم يخطر له أننى قد أجترئ على اقتحام بيت الحاج المريض . لأنه لم ير القبلتين

ولا رأى كيف أسبلت زازنى جفنيها . فليهنأ برائحتها الجميلة فى جلبابه ، ولأنهض أنا إلى الجميلة نفسها . وكانت الجميلة فى انتظارى ، فتحت الباب بعد نقرة واحدة . فى الظلام لم أرها لكننى شممتها ، ومددت يدى لمست يدها .

– أنا سرقت الرصاص ! قالت هامسة .

– والله ؟ همست فى فرح ، فين هو ؟

– رميته فى البحر ! – إيه ! أنا موش قلت . .

– هس ! قاطعتنى بيد وضعتها على شفتى ، بعدين الحاج يصحى !

فأنصت لحظة إلى أنفاسه الثقيلة المنتظمة ثم نسيت كل شىء إلا زازا ، ضممتها إلى صدرى بقوة وقلت لها أحبك . وخزة فى الضمير مازجت حبى ، لكن ليس للحاج طلبة أن يلوم إلا نفسه ، انتزع منى زازا بعد أن كانت زازنى أنا .

– ضميرك موش بيأنبك ؟ (سألتها هامساً) .

– حد قال له يتجوزنى ؟ (أجابت ببساطة) .

وضمتنى إليها وهى تلهث ، غبنا للمرة الأولى فى عناق طويل .

الفصل الرابع عشر

لم أضع الماء على يدى طوال اليوم التالى ، حرام أن تضيع منهما رائحة زازا . واشتغلت فى الزورق بحماس وأنا أصفر مائة لحن . ــ إنط مفرفش قوى النهارده (قال لى كرشة بحسد) .

فأجبته بأغنية وأنا أترقص : « إوعى تزعل م اللى يحب » . . . « كل شىء ممنوع فى الدنيا ، (اشتركت زازا) ، إلا الحب ، إلا الحب . !

ــ بتغنى يا ست عظيظة والحاج عيان ؟ (قال كرشة لائماً) .

ــ الحقيقة مالكيش حق أبدا ياست عزيزة ! (عقبت على كلامه ساخراً) . . . ترى هل أجد الليلة فرصة لمعاودة المغامرة ؟ يكون موقفاً طريفاً حقاً لو حاول الحاج طلبة أن يقتلنى بالمسدس القاضى . ألا ليت الخنجر لم يكن ضرورياً للصيد والنحت ، إذن لتحايلت على سرقته هو الآخر . عند ذلك يمكننى وتوتو ــ بالعضلات وحدها ــ أن نصمد أمام طلبة وكلبه كرشة .

ــ والله خسارة ترمى الرصاص فى البحر ، قلت لزازا بالإنجليزية .
ــ قلنا النبى عربى يا أسطاز ! (قال كرشة وضربنى كتفاً) .
وفجأة رأيت زازا تحيط صدرها بذراعيها وترتعد .
ــ الدنيا ساقعة ! هتفت متأففة .

إذ هبت فى تلك اللحظة نسمة باردة نفذت فى عظامى أنا الآخر ، خيل إلى أنها نزوة عابرة من هواء البحر . لكنها لم تكن كذلك ، نسمة أخرى تبعتها أسقع منها ثم بدت النسمات تتحول إلى رياح سافرة . رياح شديدة تهاجمنا من كل ناحية ، وفى البحر ظهرت الأمواج لأول

مرة ، أمواج تفور وترتفع وتلتوى ثم تنقلب على الشاطئ بقسوة . « موش معقول أبداً ! (هتفت زازا) ، مرة واحدة كده » ؟ . فأجابتها الرياح بهبة شديدة أطارت ذيل قميصها عند رأسها ، مشهدهم كرشة مثلما همنى) .

— أحب العواصف ! (قلت لزازا مداعباً) .

فراحت تضحك وتضغط القميص على فخذيها كيلا يطير ثانياً . غيوم كثيفة سوداء برزت هناك عند الأفق ، بسرعة تزحف عبر السماء مدفوعة برياح مجنونة ، ما هى إلا دقيقة حتى حجبت الشمس وحبست الكون فى شبه خيمة قاتمة كئيبة . فلما صارت الغيوم فوق رؤوسنا لا أفهم كيف توقفت فجأة كأنها كانت تبحث عنا وما خرجت إلا من أجلنا . وفى لحظة واحدة فتحت السماء أدشاشها ووجدنا أنفسنا تحت سيل غزير من المطر ، أغزر مطر نزل فى أى يوم على دماغى . فسرعان ما كنا نجرى نحو الكوخ وقد وضعنا أيدينا فوق رؤوسنا ، نتصايح أثناء الجرى ونضحك كالعيال .

أقفلنا علينا باب الكوخ ووقفنا نرتعد ، نحواً من خمس دقائق قبل أن أذكر أمراً خطيراً جعلنى أفتح الباب ثانيـاً .

— إلحقوا المركب ! صرخت بجنون .

إذ كان قد حدث لها ما توقعت ، وصلت الأمواج الهائجة إلى جذع الشجرة و بدأت تلطمه بعنف ، فأخذ يتقلقل ويتمايل و يوشك أن ينسحب إلى البحر مع الأمواج العائدة . فانطلقت وتوتو وكرشة نجرى إليه ، تعاونا على دفعه ودحرجته بعيداً عن الشاطئ ولم نتركه إلا بالقرب من الكوخ نفسه . — الحمد لله أنك افتكرته ، (قالت زازا) .

— لازم واحد فينا يفكر (أجبتها بالأنفة المناسبة) .

ودوى الرعد وعصفت الريح واهتز الكوخ اهتزازا .

— صبحانك يارب (قال كرشة) دى القيامة قامط !

ـ ده موش بعيد الجزيرة نفسها تغرق زى المركب ! (قالت زازا) .

ـ وماله ؟ (سألتها باسمًا) ما تجيبش تنقذينى تانى ؟

ساعة بحالها والعاصفة تزمجر وتعربد حولنا ، ثم أخذت تهدأ . شيئًا فشيئًا لانت الريح وبدأ صوت المطر يخف على أخشاب الكوخ ففتحنا الباب ونظرنا ، رأينا الماء وقد أكل نصف الجزيرة بالراحة ، مياه ترجرج حولنا من كل ناحية وقد كساها الزبد الأبيض كأنها تغلى . والغيوم السوداء تبتعد فى السماء مواصلة رحلتها المشئومة جهة الجنوب . ثم طلعت الشمس علينا ، أحسست كأن زازا تبسمت .

شيئًا فشيئًا تنسحب المياه إلى موطنها الأصلى ، تترك وراءها رمالا مبتلة تبقلل . لكن طلوع الشمس لم يخفف من حدة البرد ، وقفنا نرتعد كأننا فى ثلاجة .

ـ شوفوا الشجرة ! هتفت زازا مشيرة إلى شجرة التفاح .

غسلتها مياه المطر وجعلتها خضراء زاهية ، أخضر وأزهى شجرة رأيتها فى حياتى . والحمد لله أن العاصفة لم تسقط أكثر من نصف تفاحها ، وماذا لو أسقطته كله ؟ لعلها أسقطته وطرحت الشجرة غيره وهو يسقط .

ـ يانهار اسود ! (هتفت زازا ثانية وهى تشير إلى الأفق الشمالى) .

فتابعت إشارتها لكى أرى ذلك الفوج من السحب الكثيفة السوداء ، بسرعة تزحف نحونا على طبول رعد جديد . يبدو أن الطبيعة لم تفرغ من أمرنا بعد .

ـ أصطغفر الله العظيم يارب (قال كرشة) إحنا لسه لحقنا ننشف ؟

بسرعة مذهلة أقبلت الغيوم نحونا ، وكالغيوم السابقة توقفت فوق رؤوسنا . فنظرنا لنرى سحابة بيضاء تنفصل عن كتلة الغيوم السوداء ، بخار كثيف أبيض يتلوى ويهبط نحو الأرض . هو البرد كما اكتشفنا بعد لحظات ، ثلوج بيضاء كالقطن المندوف بدأت تتساقط حولنا ،

خفيفة أول الأمر ثم غزيرة ، سرعان ما غطت أرض الجزيرة كلها ببساط أبيض . فأسرعنا إلى الكوخ نحتمى به ، ومن خلال الباب الموارب رحت أرقب المنظر . البرد الذى يتساقط ويتراكم على الجزيرة ، وشجرة التفاح التى أصبحت كرة كبيرة بيضاء .

ــ ما تقفل الباب ده يا باشمهندس ، (قال كرشة متأففاً) .

فأقفلته ووقفت أفرك كفى . ولما فتحناه بعد ساعة لنأخذ فكرة عن الموقف لم نجد الجزيرة التى نعرفها ، وإنما وجدنا بدلا منها كتلة من الثلوج البيضاء .

ــ طب واحنا بقى ح نباط الليلة دى ازاى ؟ (تساءل كرشة) .

ــ نبات هنا طبعاً (أجبته ببساطة) .

ــ نباط مع الحاج وست ظاظا ؟ (قال مستنكراً) .

ــ أمال يعنى تموتوا فى التلج برة ؟ (قالت زازا) .

وتبادلت وإياها نظرة وابتسامة ، قلبى يحدثنى بأنها ليلة تنطوى على كثير من الاحتمالات .

فى الظلام تكدسنا جميعاً داخل الكوخ ونحن نرتعد كأطفال صغار خائفين ، ولكى نخفف من البرد القارس أشعلنا ناراً صغيرة فى ركن من الكوخ والتففنا حولها . أصابعنا تتلاقى ونحن نمد أيدينا إلى الشعلة الراقصة ، سعداء بدفئها وحتى بلسعتها .

ــ اللاه ! (هتفت زازا) نار حلوة بشكل !

وراحت تسخن يديها وتمسح بهما خديها وأذنيها وعنقها ، فرحة الأطفال ترقص فى عينيها .

ــ موش ناقصنا غير وقة أبو فروة (اقترحت أنا) .

ــ قول وقة صملك ! (تدخل كرشة) . ــ تزاتزا ! قال توتو باسماً .

ــ الجدع ده ح يفقع مرارطى (قال كرشة) .

ــ حقنا نوطى صوتنا شوية عشان ما نقلقش الحاج (قلت لهم) .

فلو أن الحاج طلبة نام نومة الأمس لكان ذلك أحسن ، وليت كرشة تسطله النار فينام هو الآخر نومة الأمس . أما أنا فسأكون قطعاً آخر النائمين . — مصكين ؟ يا حاج طلبة (قال كرشةوهو يتصعب)

— والمصيبة إن ما فيش عندنا ولا قرص اسبرين (قلت له) .

— بس إياك ما يكونش مرض معدى ، (قالت زازا) .

— هى غالباً نزلة شعبية (قلت لها) ، موش سامعة صوت نفسه ؟ وتقلب الحاج طلبة وبدرت منه أنة .

— عاوظ حاجة ياحاج ؟ (سأله كرشة) .فلم يجبهالحاج إلا بأنةأخرى .

— لكن احنا ح نتام ازاى بقى ؟ (تساءلت زازا فجأة) .

فأسرع كرشة بتقديم الإجابة التى يبدو أنه كان قد حضرها .

— حضرطك طبعاً تنامى جنب جوظك ، واحنا نطلقح مطرح ما حنا قاعدين ! . . هو يرى فيما يبدو أنه بمرض الحاج طلبة قد أصبح رئيساً بالنيابة ينظم أمرنا كما يشاء . « واتفضلى حضرطك بقى عشان نتام » (أضاف مشيراً إلى ناحية الحاج وهو يتثاءب) .

فتثاءبت زازا بدورها ونهضت ، لكنه كان تثاؤباً ظاهر الاصطناع . وقبل أن تفارق النار سخنت يديها ومسحت وجهها ، ثم انتقلت إلى جوار زوجها . . « هه (قالت وهى تستلق) تصبحوا على خير » .

استلقت على جنبها وأولتنا ظهرها ، تكورت على نفسها كقطة صغيرة ، فاتنة شهية حيث تاهت فى جلباب كرشة . كذلك استلق توتو على جنبه دون أن يغمض عينيه ، مسنداً رأسه على ساعده ونظرة فى عينيه ترسم نحو زازا خطاً مستقيماً . أما كرشة فأسند رأسه إلى الحائط ، وسرحت إلى السقف من خـــلال جفونه المتهدلة نظرة بلهاء . بذراعى الغوريلا استند على الأرض حيث اضطجع ؛ أنفاس ثقيلة تتردد من صدره المغطى بالشعر والعضلات ، منظر بشع حقاً . . . « ما بطنامش ليه ياباشمهنضس ؟ (سألنى فجأة) .

« وانت ما بطنامش ليه ؟ » .

— أنا حر يا أسطاز (أخطرنى) . — ربنا يديم عليك الحرية !

واستلقيت على جنبي وغطيت عيني بساعدى ، تاركاً لهما ثغرة صغيرة أرقب الموقف من خلالها . عين كرشة تركزت على كأنما يريد أن يستوثق من أمرى ، ثم حادت إلى توتو الذى انتظمت أنفاسه وبدا من أمره أنه نام . ثم تحولت عين كرشة إلى زازا ، بعد أن مرت بى لتتأكد من أنني لا أراه . نظرة طويلة إلى زازا من خلال جفونه المتهدلة ، وفك الغوريلا تدلى وكاد يلامس صدره . نظرة طويلة ثقيلة لزجة حقيرة ، أحقر نظرة رأيتها . وأخيراً تنهد كرشة وتصعب ، ومسح وجهه براحته وهو يتثاءب بفم ولا فم سيد قشطة . ثم نقل بيني وبين توتو نظرة فاحصة ، بعين حمراء متعبة ، عين كلب الحراسة الذى كبس عليه النوم . ويبدو أنه اطمأن إلى الموقف فانزلق إلى الأمام ليتمدد على ظهره ، ما هى إلا دقيقة حتى ارتفع شخيره مذكراً إياى بالعاصفة . شخير كرشة وغطيط توتو ، مع فحيح الحاج طلبة وحشرجته، مزيج من الأصوات لو سمعه أحد من الخارج لظن أن الكوخ يحتوى على وابور طحين . فرفعت ساعدى عن رأسى بحذر ، ثم رفعت رأسى نفسها ونظرت إلى كرشة ، رأيت فمه مفتوحاً تتصاعد منه الأبخرة كفوهة بركان . فاستويت جالساً واستندت إلى الحائط ، عيني استقرت حيث يجب يجب أن تستقر عند زازا . أقرب ما تكونين إلى يا حبيبتى وأبعد ما تكونين أيضاً . لن يتاح لليلة أن تكون مثل ليلة الأمس ، تلك الليالى لا تتاح للمرء كثيراً . تقلبت زازا كأنما أيقظتها نظرتى ، لكنها لم تكن نائمة . رفعت هى الأخرى رأسها وتلفتت ، ثم جلست وواجهتنى بابتسامة عريضة صاحية . كانت مثلى تنتظر ، فأى شىء ياحبيبتى يمكننا الليلة أن ننتظره ؟ وجهها فاتن على ضوء الشعلة الراقصة ، ورفعت إلى شفتيها إصبعاً رشيقة قبلتها ثم لوحت بها نحوى . فحذوت حذوها ، أرسلت

لها على الهواء قبلة مماثلة . هي ما برحت تبتسم ، كالشمس بعد العاصفة تلك ابتسامة زازا . أمجنونة هي لكي توجه إلى تلك النظرة المنادية ؟ وسط ثلاثة وحوش تريد مني أن أنهض وأقصد إليها ؟ فإذا كانت تريد ذلك فلماذا لا تدعوني إليها بإشارة ؟ تريد مني أن أثبت رجولتي من تلقاء نفسي ؟ العضلات والشعر الكثيف ترتفع وتنخفض على صدر الغوريلا ، يجب أن أعبر فوق ساقيه الممدودتين لكي أصل إلى المرأة الباسمة . صراع عنيف دار في نفسي المحمومة ، بين مغناطيس الابتسامة ودواعي الحذر من الغوريلا التي قد تصحو في أية لحظة . فوجدتني فجأة أرتعد ، بقوة أرتعد وأمد يدي إلى النار أصطليها . لكن علاجي لم يكن لدى النار ، لن أجد دفئي إلا عند زازا . و زازتي ما برحت تبتسم ، أسبلت جفنيها بين الظلال الراقصة على وجهها . فوجدتني أنهض وانا أرتعد ، ترنحت فاستندت على الحائط . ورفعت قدمي اليمنى بحذر شديد لأضعها على الأرض عبر الساقين الممدودتين ، رأيت في سروال كرشة ثقباً صغيراً . ثم نقلت قدمي اليسرى وصرت في الناحية الأخرى من الغوريلا النائمة ، فرحت أسير على أطراف أصابعي نحو زازا ، ثلاث خطوات وصرت عندها . جثوت على ركبتي ورحت أنظر في عينيها لا هشاً ، نظرة حنان سبحت في بحيرة عينيها . فمددت يدي إلى كتفها ، أجفل كتفها من برودة يدي . — إرجع ليسمعونا (قالت هامسة) .

لكنني لم أكن لأرجع ، بردان يبتعد عن النار ؟ فضممتها إلى وقبلتها ، للجسور وحده تفتح أبواب السعادة . لحظة من الدفء ثم زمجرة مفاجئة خلفي مصحوبة بشتمة بذيئة ، وفي كتفي اليسرى من الخلف غاص نصل بارد مسنون .

الفصل الخامس عشر

رائحة الرمل فى أننى كرائحة الدماء وإن كنت لا أذكر أننى شممت أى دماء ، لماذا أنا نائم على بطنى ووجهى فى الرمل ؟ رمل العجمى ناعم جداً وأبيض ، حمام شمس ثم غدوة سمك فى كازينو المكس . أو فى أبى قير مع زجاجة بيرة ساقعة . أو فى تافرنا مع كوز رتسينا وطاجن لسان عصفور . لكن بعض الناس يشربون بوظة ، وفى المسامط يأكلون كرشة . أنقلب على ظهرى يوجعنى كتفى ، خلينى على وجهى ، والجمجمة كانت مقلوبة فعدلتها زازا . تزاتزا ، كانت تلك ليلة خالدة ، وحدنا مع الرجل المريض . متمدداً على ظهرى هبطت زازا برأسها وقبلتنى . ثم رفعت رأسها لتنظر إلى ، ثم هبطت فقبلتنى من جديد . كأننى ماء وهى طائر يشرب منى . من الطيور ما يمنع صيده مثل أبى قردان ، لأنه يأكل الدود الذى سوف يأكلنا . يا حبيبى سخن زى النار ، هل سمعت صوتاً أو أنا مريض أهذى ؟ بعض الناس يهذون ولا يعرفون أنهم يهذون ، لكننى لست من ذلك النوع . أنا أهذى وأعرف أننى أهذى ، أنا أهذى إذن أنا مريض . كرشة طعننى من الخلف فى كتفى ، الخنجر يصيد السمك لكنه يقتل أيضاً . الصحة تاج على رؤوس الأصحاء يلمع فى الشمس ويغيظ المرضى . والشمس مؤنثة بعكس القمر . مونلايت سوناتا وكروتزر أيضاً ، وتولستوى كانت له لحية كثيفة كالحاج طلبة . فتك بفلاحة روسية تحت شجرة البرتقال وكتب البعث . برتقال كثير فى روسيا ولكن ليس بقدر ما فى فلسطين . أرض الأنبياء حيث صلب المسيح أو شبه لهم . من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها ، لا بد أن كرشة بلا خطيئة . الزنا كان فاحشة وساء سبيلا ، فلعلك قبلتها



أو عانقتها أو فاخذتها . يا خسارة فاتتني الجنة . لاحور ولا ولدان ولا نهر نبيذ ، وكان لسان العصفور حادقاً نوعاً . وسيجارتي أسقط ولعتها فستان سيدة عابرة ، زغر لى زوجها وكان بشنب . حضرتك تتجوزها وأنا أعمل لك غفير ؟ فاكرنا إيه يا أستاذ ، قوادين ؟ وقال الرجل النحيف يلزم خدمة يا بيه ؟ وامرأة سمراء خلعت فستانها بسرعة كفلاح يخلع جلبابه لينزل الترعة . وعلى السكة الزراعية حقل ذرة ، من بين العيدان المتكاثفة أطلت فوهة موزر . ليت زازا لم تلق الرصاص فى البحر ، كأنه كان ينفعني . كان الوغد ساكتاً لأنه يحوش بصقة ، وكان يمكن يومها أن يطعنى لولا الحاج طلبة . ومع ذلك خنته مع زازا ، وقالت زازا حد قال له يتجوزني ؟ فى التبت تتزوج المرأة عدة رجال ، والتبت هضبة كم هي عالية . وقمة إيفرست كم هى باردة . واقفاً على الثلوج تنزلق قدمى وأهوى من القمة العالية ، أهوى . لكنني لا أرتطم بالأرض ، أنحدر نحوها برفق حتى استقر على الرمال . وفى الرمال رائحة الدماء ، دمائى أنا . هل سمعت أحداً يقول أن عندى غرغرينة ؟ اسمها جانجرين ولكنهم لا يعلمون . لكن فى دمى كرات كثيرة بيضاء سوف تأكلها . لحسابي تأكلها ياترى أو لحسابها ؟ كل الأجسام العضوية تحب الأكل ولذلك قال شوبنهور أن الحياة شر . لكن هذا لا يهم بالطبع مادام الكون آخذاً فى التمدد خصوصاً وهو فى الوقت نفسه آخذ فى الانكماش. فقاعة صابون كبيرة حمراء تطير كالبالون فى ضوء الشفق الأحمر بلون دمى . بلون التفاحة التى تنمو مع كل دورة عقرب. لماذا أجد فى فمى طعم التفاح ؟ أمى ما تت فمن ذا الذى يسقينى وأنا مريض ؟ وسألتها مرة هو الحب حرام يا نينة ؟ قالت كلا إذا كان شريفاً . وأمى كانت فلاحة مثل أبى ، فخلعت جلبابى يوماً ونزلت إلى الترعة . فلاحة عجوز مرت على السكة الزراعية تحمل حطباً كثيراً . وبجانب الزراعية غابة من عيدان الذرة . الذرة العويجة والبنادق الموزر ورائحة الدم فى أنفى . لماذا لا تعدلنى زازا

كما عدلت الجمجمة ؟ إن كان هذا لأن الشمس مؤنثة . . .

* * *

لعلك استنتجت من واقعة كتابتى لهذه السطور أننى لم أمت ، وأن الحمى التى أصابتنى بسبب الطعنة لم تكن من النوع القاتل – القاتل لى أنا على الأقل . كم من الزمن رقدت أهذى ، وماذا حدث فى الجزيرة طوال تلك المدة ، كل هذه أشياء عرفتها فيما بعد من زازا عندما عاودنى الوعى . لذلك أكتفى بأن ألخصها لك على عهدة زازا لا عهدتى أنا ، واثقاً من أن زازا لم تبذل أى محاولة لتشويه الحقيقة – لماذا تفعل ؟ ما كدت أتلقى طعنة كرشة فى ظهرى – روت زازا – حتى صرخت بقوة وسقطت على الأرض مغشياً علىّ ، صرختى أيقظت توتو الذى وثب فى اللحظة المناسبة لكى يمنع كرشة من توجيه طعنته الثانية إلىّ ، تلك الطعنة التى تؤكد زازا أنها كانت لا محالة قاضية علىّ . وبينما أنا ملقى على الأرض دارت بين توتو وكرشة معركة عنيفة ، كل منهما يحاول أن يحصل على الخنجر لنفسه . ثم رفصة طائشة من قدم كرشة أصابت الحاج طلبة فى جنبه فهب من النوم مذعوراً . فلما تبين ما يدور حوله قام متحاملا على نفسه ومد يده إلى جيبه ليخرج المسدس ، لكن زازا أسرعت إليه لتمنعه ؛ لا يجوز لأحد كما أوصيتها أن يكتشف سر المسدس الفاضى . فلما رآها تعترض طريقه صفعها صفعة شديدة ألقت بها أرضاً ، وكاد يخرج المسدس لولا نوبة السعال الشديد التى اعترته فجأة . راح يسعل ويسعل وفجأة ترنح وانكفأ على وجهه والزبد يسيل من فمه . . – إلحقوا الحاج ! إلحق يا كرشة ! صرخت زازا .

فالتفت كرشة إلى الحاج الساقط وكف عن العراك ، ولم يعترض على ذلك توتو الذى لم يطلب العراك أصلا . فلما خفت نوبة السعال واستطاع الحاج أن يسترد أنفاسه وقف كرشة يتفحصنى حيث رقدت فاقد الرشد ، يده تداعب الخنجر المعلق فى حزامه كأنه يفكر فى ضربى

من جديد . ثم غير فكره لا تدرى زازا لماذا ، والتفت إلى توتو صارخاً فيه إطلع بره يا ابن الكلب ! فلما تردد توتو فى الخروج لوح له كرشة بالخنجر مهدداً ، ومد يده إلى الباب ففتحه بقوة، تلك الحركة التى كانت كلهابركة . إذ أنه ما كاد يفتح الباب حتى حدث آخر شىء كان يتوقعه، طن من الثلوج على الأقل تدفق فجأة من الباب الذى انفتح ، هوى فوق كل من كرشة وتوتو ودفنهما تحته . فما برحا يجاهدان حتى خرجا ، وقضيا ساعة يحاولان كسح ذلك الثلج إلى الخارج . لكنها كانت محاولة عديمة النفع ، كلما دفعوا إلى الخارج كمية من الثلج دخلت بدلها كمية أكبر . وحتى الخروج من الكوخ أصبح متعذراً لانسداد الباب بأكداس الثلوج . فكفا عن المحاولة ووقفا يلهثان ، صارت الدنيا برد موت . فأشعلوا ناراً ثانية بجانب الحاج وكانت ليلة . من شدة البرد لم يغمض لها جفن ، شأنها فى ذلك شأن توتو وكرشة . إذ جلس الرجلان حول النار يتبادلان نظرات التربص ، كل منهما تتدلى رأسه على صدره فيسارع برفعها مجفلا ، وحشان يتوقع كل منهما أن يروح الآخر فى النوم فيثب عليه ويبطش به . وهكذا عاشوا يومين كاملين ، مهددين بالموت برداً وجوعاً ، فكيف يخرجون من الكوخ للحصول على التفاح أو السمك ؟ وفجأة شعروا بالشمس تشرق فى الخارج ، وبدأ الثلج يذوب شيئاً فشيئاً . الثلج يتحول إلى ماء يسيل على أرضى الكوخ ويهدد بالغرق كلا منى ومن الحاج الذى يرقد على الأرض مثلى . فحمل كرشة سيده وأرقده على السرير الخشبى ، أما أنا فتولت زازا وتوتو كسح الماء بعيداً عنى . ولما كانت أرض الكوخ لحسن الحظ منحدرة بعض الشىء إلى الخارج فقد أخذت المياه تصرف نفسها ، سرعان ما انحسرت عن الكوخ توطئة لانحسارها عن الجزيرة كلها . فخرجوا إلى الشمس كالمجانين يلتمسون الدفء والتفاح والسمك . يومان آخران وبدأ الحاج طلبة يتماثل الشفاء ويتساءل عن سر ما حدث .

ــ تصور يا حاج (قال كرشة) إنى أصحى م النوم ألاقى ابن الـ . . ده بيبوصها ؟

ــ والله ياحاج ماحصل ! (هتفت زازا بحرارة) والله ماحصل ! ده كرشة كان بيحلم !

واستخدمت كل ذكائها فى تدبير الكذبة المناسبة ، وكل مهارتها التمثيلية فى إدخال الكذبة على الحاج . إذ روت له كيف أنه ــ الحاج طلبة ــ أخذ فجأة يئن ويتوجع ، لم يسمعه أحد سواى أنا فخففت إليه . جثوت بجانبه أسأله مالك يا حاج ، سلامتك ! فبينما أنا جاث هناك إذ استيقظ كرشة فجأة ، وبسبب كل من صحوه المفاجئ والظلام رأى المسألة بالمقلوب ، ظن أنى هناك بسبب زازا لا بسبب زوجها المريض ، فبادر بدون أن يتحقق من الأمر إلى توجيه طعنته الشريرة إلى .

ــ والله يا حاج شفته بيبوصها ! (قال كرشة يائساً) والله كان بيبوصها ! ــ والله كذاب ! والله ما حصل !

ومن عيون زازا طفرت الدموع ، دموع الزوجة التى يتهمونها فى شرفها زوراً وبهتاناً . والحاج طلبة يستمع إلى الطرفين وهو ينفخ من الغيظ ، ولا يعرف من يصدق منهما .

ــ ده يتجرأ ويقرب منى ف وسط تلت رجالة ؟ ! (قالت زازا فى ازدراء وهى تشير إلى حيث رقدت فاقد الرشد) ده جبان يخاف من خياله ! ــ والله العظيم طلاطة شفطه بيبوصها ! (قال كرشة متمسكاً) .

ــ إخرس يا مجرم ! أنا بتاعة كده ؟ طب والله العظيم يا حاج لو صدقته لا أنت جوزى ولا أعرفك ! آل بيبوسنى آل .

وبصقت على الأرض وانصرفت غاضبة تبرطم .

ــ مثلت لك الدور ده يا بنى تمثيل ! (تحكى لى زازا) والله العظيم الآخر كنت حاصدق نفسى !

كل هذا وأنا ملقى على الأرض ساخناً كالنار محموماً أهذى . وكانت زازا قد عمدت بعد انفضاض معركة توتو وكرشة إلى تضميد جرحى لإيقاف النزيف بقطعة من ذيل قميصها الوردى ، وذلك بعد أن كبست الجرح بالشىء الوحيد المتاح لها هو الثلج . فلما ذابت الثلوج وتمكنوا من مغادرة الكوخ بدأت تحضر الماء لتسكبه فى فمى ، وتحايلت على عصر التفاح وإضافته إلى الماء . لم يحاول الحاج منعها من تمريضى لأنه مال فى النهاية إلى تصديق قصتها أو هكذا أظهر ، كما أن إسعاف المريض وإغاثة المنكوب أمر تقضى به الأخلاق ، والضرب فى الميت — كما قال مرة — حرام . كذلك حرص الحاج على حياتى بسبب المركب ، فمن يصنعها لهم إذا أنا مت ؟ فلما طال مرضى رأى الحاج أن يجرب مواهبه الهندسية ، راح يأمر توتو وكرشة وهما يشتغلان .

— إكحت هنا ! إنحت هنا ! لأ موش هنا ! نعم هنا شوية . دوس هنا كمان !

وهكذا حتى تم تفريغ جذع الشجرة وبدأ يتحول إلى ما يشبه المركب فراحوا يعملون الأدوات فى جوانبها من الخارج لكى تستريح وتصلح لاعتلاء الماء . ثم نظر الحاج إلى نتيجة عمله ذات صباح وقال خلاص يا جدعان ! بينما تعاون توتو وكرشة على دفع المركب إلى الماء وقف الحاج يتلو ما حضره من الأدعية والصلوات المناسبة للمواقف البحرية .

— أما كنت فرجة يا بنى ! (تحكى لى زازا ضاحكة) ، والله ولا والت ديزنى !

إذ ركب الرجال الثلاثة فى المركب وساروا بها خطوتين ، ثم فوجئوا بها تميل إلى اليمين وتوشك أن تنقلب ، فمالوا جهة اليسار حتى يعدلوها . لكنها لم تعتدل ، مالت معهم إلى اليسار حتى كادت تنقلب ، فمالوا يميناً فمالت يميناً ، ومالوا يساراً فمالت يساراً . أينما مالوا تمل معهم .

وأخيراً قررت أن تميل جداً ، فإذا بالرجال الثلاثة فى الماء وهى فوقهم . فقلبوها واعتلوها من جديد ، خمس مرات يعيدون التجربة ويحظون بنفس النتيجة . كلما ركبوها قلبتهم فى البحر ، هم يريدون أن يركبوها وهى تريد أن تركبهم . وزازا واقفة على الشاطئ تتفرج وتكاد تموت من الضحك ، حتى أنها زعلت عندما يئسوا من التجربة وأقلعوا عنها .

— كان لا زم يعنى تضربه يا بن الكلب ؟ ! صرخ الحاج فى كرشة وهو يغلى من الغيظ . — هه ؟ قال كرشة فى بلاهة .

— المهندس اللى ح يبنى لنا المركب (شرح له الحاج) ، تضربه ليه ؟ راجل سمعنى بانازع وجاى يطمن على تضربه ليه يابن الكلب ؟

— وشرفك يا حاج كان بيبوصها ! وضينى وأيمانى كان .

— إخرس ياطور ! موش عايز اسمع الكلمة دى تانى . جتك البلا ف غباوتك وزناخة مخك ؟

فانصرف كرشة يضرب أخماساً بأسداس ، ومن تلك اللحظة صار همهم الوحيد هو انتظار شفائى ، حتى إن الحاج كان يدعو لى بنفسه بعد كل صلاة .

— توتا توتا فرغت الحدوتة (قالت زازا فى النهاية باسمة) حلوة ولا ملتوتة ؟ فلم أجبها لفورى ، رحت أنظر إليها طويلا ، طويلا جداً رحت أنظر إليها . . — زازا (قلت لها أخيراً) . ههم ؟ (سألتنى) . «أحبك» ، أجبتها .



الفصل السادس عشر

كان يخيل إلى حيث رقدت أنني سأخرج لأجد كل شيء متغيراً ، لكن أبداً . خرجت فوجدت كل شيء على حاله ، شجرة التفاح التي تتوسط الجزيرة مثقلة الغصون بالتفاح الأحمر والأخضر ، وبئر المياه والجرة بجانبها ، والبحر الذي عاد صامتاً كما كان ، والأفق المستدير الذي يحصر المياه حولنا من كل ناحية . لكنني اكتشفت اختفاء الجمجمة والعظام ، جرفتها الأمواج في أثناء العاصفة . فلو كنت ممن يهتمون بتلك الأمور لقلت أنه فأل حسن ، لكن شعوري كان عكس ذلك . افتقدت تلك الجمجمة التي تعلمت أن أحبها .

شيء واحد تغير في الجزيرة وهو وجوه سكانها ، إذ نظرت إليهم فكأنما فارقتهم منذ سنوات . الكراميش في وجه الحاج طلبة أصبحت أخاديد ، ومن لحيته وشعره كاد يختفي كل أثر للشعر الأسود . في عشرة أيام أصبح الحاج عجوزاً ، وكاد الشيء الشيء نفسه يحدث لتوتو وكرشة . إلا زازا التي يبدو أنها لا تتغير أبداً .

ـ ألف حمد لله على سلامتك يا باشمهندس (قال لي الحاج طلبة بشوق وهو يقبلني على خدي الأيمن) . في وجهه عليه اللعنة رائحة من زازا .

ـ والله ما تعرف كنت مخضوض عليك أد إيه ! (أضاف وهو يقبلني على خدي الأيسر) .

طبعاً تنخض عليّ يا وغد ، ألست أنا الذي في يده خلاصك ؟

ـ صدق اللي قال ادى العيش لخبازه ، (قال وهو يقودني نحو جذع الشجرة) المندسة برضه لها أهلها .

وكانت المركب مقلوبة فتعاونوا على عدلها ، نظرت إليها ورفعت حاجب السخرية الأيسر . — دى (سألتهم) مركب ؟

فقالوا آه . قلت « أنا باحسبها موتوسيكل » !

فتضاحك الحاج طلبة ، وابتسم كل من توتو وزازا .

— موطوسيكل ؟ إلا موطوسيكل دى ! (قال كرشة) .

فتلفت حولى متظاهراً بالبحث عن مصدر الصوت .

— أنا سمعت حد بيقول حاجة ؟ (تساءلت بازدراء) .

— إسكت يا كرشة (قال له الحاج) .

فوقفت — أنا المهندس المنتظر — أجيل بينهم نظرات ساخرة لاسعة حراقة .

— إنتو طبعاً منتظرين إنى أصلح لكم الـ .. الـ.. المركب دى ، موش كده برضه ؟

— طبعاً يا باشمهندس ، فيه مين غيرك ؟ (قال الحاج فى تواضع لا بأس به) .

— عشان اصلحها لى شوية شروط .

فسكتوا فى انتباه ، عيونهم تطوقنى فى لهفة .

— أولا (قلت ثم سكت لكى أزيد من لهفتهم) لازم البأف ده يجى يبوس إيدى ويستسمحنى .

وأشرت ناحية كرشة الذى راح يتلفت حوله فلم يجد فى الناحية أى بأف سواه . — بأف ؟ أنا بأف يا باشمهنضس ؟

— تستاهل يا كرشة (قال له الحاج طلبه) وزى ما ضربته لازم تستسمحه . — أصطصمحه ؟ !

— وتبوس إيده زى ما قال (أضاف الحاج بحزم) .

— أنا ابوص إيده ؟ ! (قال كرشة فى ذهول) .

— آه ، موش كنت ح تقتله ؟ موش عارف انه يقدر يوديك

محكمة الجنايات ؟ . . فراح كرشة يحملق فى وقد انفغر فمه ، بينما بسطت نحوه ظهر يدى لكى يقبلها ، مسبل الجفون أنظر إلى الناحية الأخرى فى كبرياء .

— بوس ! (قال الحاج آمراً) . فتصعب كرشة وضرب كفاً بكف .

— اصطغفر الله العظيم يا رب (قال بمرارة) ، عشت يا كرشة وبصت الإيضين ! وتناول يدى فطبع عليها قبلة لزجة مقززة شائكة كأنها عضة لا قبلة .

— اسمحوا لى بقى بشوية مية (قلت للحاج) .

— هات له مية يا كرشة .

وبينما أحضر الجرة ظللت باسطاً يدى أبعد ما تكون عن جسمى ، توطئة لأن أسكب عليها من الجرة لأطهرها .

— شوف ابن الـ . . ! (صاح كرشة) .

— كرشة ! (قال الحاج ناهراً) .

— ده يفكرنى بالشرط التانى (قلت للحاج طلبة) إذا الجدع ده وجه لى أى كلمة ح ابطل شغل .

— من هنا ورايح مالكش أى دعوة بيه يا كرشة (قال له الحاج) ، وأى حاجة يقولها لك تعملها على طول ، سامع ؟

— صامع ، قال كرشة فى استسلام .

— يا لله يا باشمهنضس (قال الحاج) إحنا ضاع منا وقت كتير — أولا ناولونى الخنجر .

فناولوه لى ، أعملته فى لحيتى وشعرى بالتهذيب ، وفى أظافرى بالتشذيب ، ثم قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها عشر علامات بعدد الأيام التى يقولون أننى رقدتها ، ثم قطعت تفاحة واتجهت إلى المركب وأنا أقرشها .

— موش مصدق أبداً أن دى مركب (قلت لهم) ده نعش بس ناقصه الكسوة ! . . وبدأنا العمل ، إكحت هنا وانحت هنا ، نعم هنا دوس هنا ، أصلح ما أفسدوه بجلافتهم الهندسية . ساعتان وأنا أعطى الأوامر حتى تعبت .

— عاوز اتغدى (أخطرتهم) . . فصاد توتو السمك وشواه ، كانت ست سمكات أكلت منها ثلاثاً وحدى .

— أنا موش واخدهم طمع ، أفهمتهم ، لأ ، بس عشان الفوسفور مفيد للتفكير .

وكان الحاج يريد أن أواصل العمل بعد الغداء لكننى اعتذرت .

— ما تنساش انى لسه قايم من العيا ، ولازم ادخل أقيل شوية .

واتجهت بجلال نحو الكوخ ، دخلته وأقفلته على لأنام . فلما أخذت حتى من الراحة نهضت وقصدت إلى المركب من جديد .

— هاها (ضحكت وقد أوقع بصرى عليها) طب والله لولا قلتولى إنها مركب كنت افتكرتها عربية كارو !

فضحك الحاج طلبة ضحكة صفراء ، وتصعب كرشة فى صمت .

— «أنجر» ! قال توتو فجأة وهو يناولنى الخنجر .

— الله ! هتفت ، ده نطق !

— ح يقعد المدة دى كلها ما يلقطش منا كلمة ؟ (تساءل الحاج) ده لو حيطة كان اتعلم .

— الخنجر «أَنْجَرْ» (قالت زازا شارحة) والمركب «أركب» ، والشجرة «أجَرَةَ» !

وضحكت زازا فضحكت وضربتها برفق على ظهرها ، زغر لى الحاج وقال إحم . بالخنجر والمنشار واصلنا العمل ، خمس علامات جديدة رسمتها على جذع شجرة التفاح ونحن نعمل . كلنا نعمل بما فينا الحاج طلبة ، ولعله كان أشدنا حماسة للعمل ، معذور وهو يحمل فى وجهه كل

تلك الغصون والأخاديد . بالخنجر والمنشار ننحت ونكحت ، شيئاً فشيئاً بدأ الموتوسيكل يتحول إلى مركب . فوقفت ذات صباح أفحص نتيجة عملنا ثم ابتسمت .

ـ أفتكر ياولاد ، (قلت لهم باسماً) إنها بقت مركب .

فتهلل وجه الحاج طلبة وسألني بلهفة « يعنى ننزل نجربها » ؟

ـ ما فيش مانع ، قلت له بسماحة علمية ، تقدر تنزل .

ـ يا الله ياجدعان ، صاح وهو يشمر أكمامه ، يا الله !

ـ بس أنا موش عاوز اتبل ، أفهمتهم .

واعتليت المركب وهي ما تزال على الشاطئ داعياً زازا إلى مصاحبتى ، بينما راح الرجال الثلاثة يدفعون المركب وينزلونها إلى البحر . فلما صار الماء عند ركبهم قفزوا ليركبوا ، أخذت بيد الحاج لأعينه على الصعود . وكنا قد نحتنا ما يشبه مجدافين كبيرين تناول أحدهما توتو وتناول الآخر كرشة وراحا يجدفان .

ـ دى مشيت يا جدعان ! (هتف الحاج بفرحة طفل صغير) . مشيت ! والله ماشية ! . . ورفع إلى السماء وراح يعطرها بالحمد والشكر .

ـ متهيألى يا حاج ، نبهته ، إنى أنا أستحق كلمة شكر .

ـ كلمة وبس ؟ دنت تستاهل بوسة !

وهجم على يغرق وجهى بقبلاته كأنه يأكلنى .

ـ ما كنتش عارف (قلت له وأنا أصده عنى) إن البوسة منك انت ! . . فنظر إلى بخبث ثم التفت إلى زازا .

ـ كافئيه يا عزيزة ، يستاهلها !

فمالت زازا على وقبلتنى ، ولكن أعرب عن شكرى ملت عليها وقبلتها قبلة يبدو أنها تجاوزت حدود الشكر فقال الحاج إحم .

المقاديف تضرب الماء وسفينتى تسير باسم الله مجريها ومرساها . على الماء تنزلق برشاقة البجعة الحسناء ، بارك الله فى مخ المهندس الفذ .

— بذمتكو صحيح ؟ سألتهم بعد حين . — صحيح إيه ؟ سألونى
— كنتو عايزين تنزاوا البحر بوابور الزلط ده ؟ !
فضحك الحاج ملء وجهه الذى يموج بالفرحة والأمل . على الماء تمشى سفينتى ، تنساب وتتهادى على إيقاع جميل من خفق الموج على جنبيها .

— من هنا ورايح (قالت زازا ضاحكة) حقنا نسميك أحمد نوح !

— لكى حق والله (قلت مصدقاً) ولو أن فيها من كل صنف واحد بس !

وأشرت إلى ركاب السفينة فضحكت زازا وضربتنى على ظهرى .
— متهيأ لى سرعتنا خفت شوية ؟ تساءل الحاج بعد حين بقلق .
— قول للطور ده يقدف زى الناس (قلت مشيراً إلى كرشة) .
— قدف كويس ياكرشة ؟

— ما أنا باقضف اهه ، برطم كرشة ، إمال انا باعمل إيه ؟
لكن سرعتنا كانت قد خفت فعلا ، حتى بدأ القلق يساورنى أنا الآخر .

— على كل حال الحق موش ع المركب ، نبهت الحاج ، كل ما بندخل جوه الموج بيتقل .
— كلام معقول ، قال مستعداً لقبول أى تفسير .
ثم بدأت المركب تحيد جهة اليمين .

— إعدل المقداف ياأخينا (قلت لكرشة) — ما هو معضول آهه .
وكان فعلا معدولا ، وكذلك مجداف توتو ، لكن المركب ظلت تحيد إلى اليمين . كنا نسير والجزيرة خلفنا فأصبحت الآن عن يميننا ، رقعة أرض صغيرة على مسافة تقرب من الكيلو . كنا نسير مبتعدين عنها والآن نسير بمحاذاتها .

ــ حاجة غريبة خالص ، قلت فى غيظ ، ناولنى المقداف .

تناولت مجداف كرشة على أمل أن أعدل من سير المركب ، إذ كانت لى خبرة بالتجديف أيام الجامعة . جدفت كما يجب أن يكون التجديف ، وجعلت توتو يحلو حلوى ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئاً . المركب مصرة على أن تسير بمحاذاة الجزيرة بدلا من أن تبتعد عنها ، كأنها تنوى أن تدور حولها . فلو لم تكن تدور حولها فلماذا هى طول الوقت عن يميننا ؟

ــ عندى فكرة (قلت) . ــ إلحقنا بيها ياصى نوح ! (قال كرشة ساخراً) .

حولت حركة الجدافين بما يجعل المركب تتجه نحو الجزيرة عمودياً لكى أرى إن كانت ستطيعنا أو تظل تدور حول الجزيرة . فأطاعتنا المركب ، أخذت تقترب من الجزيرة وبسرعة أكبر مما نطلب . فعكست الوضع ، أدرت المركب كما كانت جاعلا الجزيرة خلفنا ورحنا نجدف ، أطاعتنا المركب أيضاً . راحت تبتعد عن الجزيرة كما حدث من قبل ، حتى وصلت إلى نقطة معينة فحادت إلى اليمين وبدأت تسير بمحاذاة الجزيرة . من جديد رفضت المركب أن تبتعد عن الجزيرة وأصرت أن تدور حولها .

ــ حاجة موش مفهومة بالمرة (قلت معلنا حيرتى) .

ــ حاجة تجنن ! (قال الحاج وهو ينفخ) .

ــ طب والنبى فسحة حلوة ! (قالت زازا) .

ــ فسحة ؟ ! (قال كرشة وبصق فى البحر) .

عاودت تجربة العودة إلى الجزيرة فأطاعتنا المركب ، وعاودت تجربة الابتعاد عنها فأطاعتنا ، لكننا ما كدنا نبلغ نقطة معينة حتى عادت تدور حول الجزيرة . وفجأة حدث ما هو أغرب من ذلك . فجأة بدأت سرعة المركب تزيد بالرغم من أننا توقفنا عن التجديف ، شيئاً فشيئاً

أخذت تزيد حتى أصبحنا نجرى لا نسير ، كأننا فى انش بخارى حديث .

— يا ساتر يا رب ! (هتف الحاج فى فزع) يا ساتر يا رب !

بسرعة شديدة تدور المركب حول الجزيرة ، وبالطبع تتقلقل وتمايل وتضطرنا إلى التشبث بحافتها بكل قوتنا مخافة أن ننخلع منها . صوت الماء تحتنا أشبه بصوت شلال يتدفق ، والأفق يدور حولنا ويدور حول مركز واحد هو الجزيرة .

— يا ستار ! يا ستار ! يا ستار ! (ردد الحاج طلبة) .

— دحنا كإننا ف لونا بارك ! (هتفت زازا) .

ولاحظت أنا ظاهرة جديدة ، أننا فى دوراتنا حول الجزيرة نقترب منها فى الوقت نفسه ، كأن المركب تدور فى خطوط حلزونية تدنينا من الجزيرة ولا بد أن تنتهى بنا إليها .

— إحنا بنقرب م الجزيرة ! صاحت زازا مبتهجة .

شيئاً فشيئاً تضيق الدوائر حتى أصبحنا على بعد خطوات من الجزيرة ، درنا حولها دورتين أخيرتين ثم انتهينا إلى الشاطئ . صدمة عنيفة ومقدمة المركب تنغرس فى الرمال فكدنا ننذلق منها على الأرض .

— حمد الله ع السلامة ! (قالت زازا بضحكة صغيرة) .

لكن أحداً لم يجبها . الحاج طلبة يدمدم بصلوات لم أسمعها ، وتوتو قابض على المجداف يتفحصه فى بلاهة ، وكرشة التفت إلى وراح يتفرس فى نحواً من دقيقة كاملة ، لو أن النظرات تقتل لقتلتنى نظرته . وأخيراً نطق .

— اطفوا عليك مهندس ! (قال وهو يغمر وجهى ببصقة) .

الفصل السابع عشر

خمس مرات فى خلال يومين كررنا تلك التجربة اللعينة — تجربة الخروج بالمركب من الجزيرة ، وفى كل مرة تتكرر المأساة نفسها . المركب تدور حول الجزيرة كأنها مشدودة إليها بحبل ، ثم تعود إليها فى تلك الدوائر الحلزونية الفاجعة . فوقف كرشة يشويني بنظراته الحاقدة ، ثم بسط ذراعيه كأنه سيرقص . راح يتقصع فى وقاحة ويقلدنى وأنا أسوق إليهم تعلياتى الهندسية . — إكحط هنا ، إنحط هنا ! خفف هنا ، طقل هنا ! نعم هنا ، خشن هنا . دى موطوسيكل ! دى عربية كارو ! دى وابور زلط ! آهى بقت مركب ياروح املك ، عملنا بيها إيه ؟ ياخى جتك سطين نيلة ع اللى علمك الهنضسة !

فدارت فى ذهنى تعليقات كثيرة ، لكننى احتفظت بها لنفسى بالطبع . ورمقه الحاج طلبه فى امتعاض .

— وهو ذنبه إيه يا أخى ؟ (سأله لائماً) هى المركب موش مشيت بينا ؟ هى موش عامت بينا ؟

— طب وبطرجع طانى هنا ليه ؟ (سأله كرشة) وهو يضرب براحته اليمنى ظهر يده اليسرى .

فتريث الحاج فترة قبل أن يجيب .

— البحر ده فيه حاجة ، (قال الحاج طلبة بنبرة خوف) ، الجزيرة دى كلها فيها حاجة . أنا احلف انها مسكونة ولا معمول لها عمل !

فلم أعلق على هذا الكلام أيضاً ، لا أظن أنه يستحق التعليق .

— أنجر ! قال توتو مشيراً إلى الخنجر .

فناولناه إياه وقد ظننا أنه سيصيد السمك ، لكنه انطلق به إلى المركب وجثا بجانبها ، راح يتأملها حيناً ثم بدأ يحك بالخنجر فى نقطة راقت له من مقدمتها .

— يا صلام ياصيدى (تصعب كرشة) قال دى يعنى اللى كط ناقصة !

ثم التفت إلى أنا وقال : « جطكو نيلة مهنضسين » ؟
— جتك ستين نيلة انت ! (أفلتت منى الكلمة) .
— احطرم نفسك يا أسطاز ! (أجابنى شافعاً إجابته بزغد) .
— يخلصك كده يا حاج ؟ (سألت المذكور من حيث انبرشت على الأرض) . — ما تحل عنه ياواد ياكرشة ! (قال له الحاج زاجراً) .

فوقف كرشة يصوب إلى الحاج نظرة طويلة متحدية من خلال جفونه الثقيلة المتهدلة ، نظرة لا أذكر قط أننى رأيته يصوب إليه مثلها .

— أنا حر ف نفصى (نطق كرشة أخيراً) ما حدش له عنضى حاجة !

فاحمر وجه الحاج حيث جلس متشاغلا بالتسبيح ، بينما حافظ كرشة على وقفته المتحدية ونظرته المتحرشة . هل قرر الكلب فجأة أن يتمرد على سيده ؟

— إنت بتبوأ فى ياواد ؟ (زجر الحاج طلبة غاضباً) . لكن كرشة لم يتأثر .

— طب بص ما تقولش واض ! (أجابه بنفس اللهجة المتحدية) ، أنا راجل ظيى ظيك ، آه !

فازداد وجه الحاج احمراراً ، وراح يحملق نحو كرشة فى غضب شديد تمازجه دهشة أشد ، ولمسة من الخوف تراءت فى عينيه واضحة . ثم أشاح بوجهه فى صمت وامتدت يده بحركة لاشعورية تتحسس جيبه ،

فما لبث كرشة أن أولانا ظهره وابتعد بعد أن بصق على الأرض تعبيراً عن شعوره بالموقف كله . نعم هو قرر أن يتمرد على سيده ، أمر ثبت لنا بوضوح فى اليومين التاليين . فإذا استثنينا تلكؤه الطارئ فى تنفيذ طلبات الحاج طلبة ، وتجاهله التام لها فى بعض الأحيان ، فهناك الطريقة الجديدة التى بدأ يتبعها فى التطلع إلى زازا . كان فيما مضى يغض البصر إذا واجه زوجة سيده ، أما الآن فهو ينظر إليها بصفاقة ويبتسم أيضاً . نظراته الوقحة تكاد تخترق جلبابه المحيط بجسمها ، وريالته تكاد تسيل. ثم تجاوزت جرأته حدود البحلقة ، إذ مرت به زازا يوما فإذا به يشرع فى الغناء .

ــ اتمخطرى ياحلوة ياظينة (طـرّنّـم كرشة) يا وردة من جوه جنينة !

هو طبعاً لا يوجه الأغنية مباشرة إلى زازا ، لكنه كما يقولون يريد أن يسمعها . ولم يكن الحاج طلبة موجوداً لحسن الحظ ، كما أنه لم يكن موجوداً فى المرة الثانية ، عندما جاوز كرشة بجرأته كل الحدود . إذ مرت به زازا فى طريقها إلى البئر وكان هو جالساً على الأرض ، فإذا به يرفع ذراعيه ويشرع فى طرقعة أصابعه وهو يترقص .

ــ هظ ياوظ ! هظ ياوظ ! هظ ياوظ !

هكذا ظفها ــ أعنى زفها ــ حيث سارت أمامه ، لم ترهبه نظرة الاحتقار التى رجمته بها زازا .

ــ صلاة النبى أحصن ! (قال كرشة وهو يلعب حاجبيه) يا أرض احفظى ما عليكى ! . . ولم ينس أن يواصل الزفة حين عادت زازا من عند البئر بالجرة المليئة .

ــ هظ ياوظ ! (قال كرشة وهو يصفق) هظ ياوظ !

وكانت زازا معذورة فى الضحكة التى أفلتت منها وهى تواصل رحلتها نحو الكوخ ، تلك الضحكة التى أثرت فى كرشة حتى جعلته يستلق على

ظهره ، رافعاً ساقيه ومحركاً إياهما فى الهواء كأنه يركب عجلة بالمقلوب .

— بظمتك ياباشمهنضس موش حرام ؟

— هو إيه اللى حرام ؟ (سألته بازدراء) .

— الحاج يطمطع بالجمال ده كله واحنا قاعدين نطفرج ؟

وبالرغم من موافقتى له على هذا الرأى فلم أصارحه به ، لا تعجبنى فكرة وقوع الجمال المذكور بين ذراعى الغوريلا . فلما كان اليوم التالى تبين لى أن الأمر أخطر بكثير مما أتصور ، وذلك عندما انتهزت زازا فرصة ابتعاد الآخرين وأتت تحدثنى .

— كرشة ده اتجنن خالص (أخبرتنى) تصور انه خلانى ماشية وقرصنى فى دراعى ؟ !

— يا نهار اسود ! ده لو الحاج عرف كان يضربه بالرصاص .

— اللى رميته فى البحر ؟ (سألتنى ساخرة) .

— ما كانش حقك ترميه أبداً .

فلم تعلق على هذا الرأى ، ووقفه تتأملنى .

— إنما أنت إيه حكايتك الأيام دى ؟ (سألتنى بنظرة جانبية ماكرة)

— حكايتى ؟ — آه حكايتك . لا بتسأل على ولا بتكلمنى ، ولا كأنك تعرف واحدة اسمها زازا !

حقاً إننى أهملتها فى العهد الأخير بصورة وضيعة ، ولكن للضرورة أحكامها .

— لو حصل لك اللى حصل لى (صارحتها وأنا أشير إلى كتفى اليسرى) كنتى تعرفى إيه حكايتى .

أما كرشة فقد رسم فى مساء اليوم التالى بداية عهد جديد تماماً ، عند ما رأى الحاج طلبة يدخل إلى الكوخ مع زازا فقال لنفسه هع ، توطئة لأن ينادى الحاج بصوت يقطر استهزاء .

— يا حاج طلبة ، صاح كرشة ، ما يلظمش خضمة ! ؟

فجمد الحاج طلبة فى مكانه، سمع النداء ولكنه لم يلتفت إلى المنادى. وقف عند باب الكوخ يستوعب ما سمع ثم مد يده إلى جيبه حيث يوجد المسدس . نحواً من دقيقة جمد الحاج على هذا الوضع وهو يفكر ، فالحمد لله أنه انتهى من التفكير إلى تغليب الحكمة ، إذ دخل فى صمت وأقفل الباب وراءه . فعند ذلك خطر لى أنه قد يكون من الواجب على أن إخطره بأمر مسدسه القاضى ، خير له أن يعرف حدود قوته فى مواجهة كلبه الذى انسعر .

— ههع ! قال كرشة ، هع هع هع !

فتركته وذهبت لأنام ، وقبيل الفجر صحوت مذعوراً . صحوت على صوت أذكر أننى صحوت على مثله من قبل ، صوت جسمين عاريين يتلاطمان بقسوة وعنف . فنهضت لكي أرى المنظر القديم نفسه على ضوء القمر الشاحب ، منظر توتو وكرشة وقد التحما فى معركة دموية بالبونيات والروسيات ، وبالمخالب والأسنان ، والخنجر ملقى على الأرض بالقرب منهما ، فأسرعت بالتقاطه وإخفائه وراء ظهرى . وانفتح باب الكوخ عن الحاج الذى أيقظته الضجة ، وقف يتأمل المنظر حيناً ثم التفت إلى .

— فين عزيزة ؟ (سألنى بسرعة) .

— زازا ! (هتفت فى دهشة) هى موش معاك جوه ؟

وقبل أن يجيب أتانا صوت زازا تقول « مانا قدامكوه آهه ! »

وكانت فى الحقيقة خلفنا لا أمامنا ، فالتفت الحاج إليها فى غضب وهم بأن يقول لها شيئاً ثم عدل والتفت نحو المتعاركين . ظل يرقبهما حيناً ثم اتجه إليهما وهو يخرج المسدس من جيبه .

— بس منك له ! صرخ فيهما ، بس يا كرشة ! سيبه يا وله !

فصدع كرشة وترك توتو ليواجه الحاج .

— بدل ما تقل أضبك على (قال له فى غيظ وهو يلهث) إصألنى باضربه ليه ... وتوقف لحظة ليأخذ نفسه .

– باضربه عشان صيادتك نايم زى الجرضل (شرح له) ، وهو واخد مراطك ورا المركب وناظل فيها بوص ! . . فتدلى فلك الحاج فى بلاهة ، معذور والله إزاء هذه التشكيلة من الشتائم والمعلومات .

– كذاب فى أصل وشك ! (صرخت زازا فى كرشة) كذاب ! والتفتت إلى الحاج قائلة : « هو اللى خلانى رايحة اشرب وجه يعاكسنى جه توتو يحوشه عنى مسكوا ف بعض ! »

فازداد وجه الحاج طلبة بلاهة ، فى حين شرع كرشة يشد شعر رأسه بكلتا يديه .

– يا عالم ! يا هوه ! يا مصلمين ! أنا عاكصتك يا ولية ! أنا قربت منك خالص ؟ ما كانش واخدك ورا المركب وناظل فيكى بوص ؟

– بس يا كذاب ! هتفت زازا ، ماخلتنيش ماشية أول امبارح وقرصتنى فى دراعى ؟

فتردد كرشة لحظة ثم قذف بالاعتراف : « آه حصل ! لكن احنا فى الليلة دى . مين فينا اللى كان واخدك وناظل فيكى بوص ؟ »

– بس يا كذاب ! أعادت زازا بصوت تخنقه الدموع ، بس يا خباص !

وفى عينيها ترقرقت دموع المظاليم ، بينما راح الحاج طلبة ينقل النظر بينها وبين كرشة عاجزاً – مثلى – عن تبين الصادق من الكذاب . وأخيراً ركز بصره على كرشة وأخرج السبحة من جيبه فقدمها إليه .

– إمسك ! قال له آمراً ، تحلف على السبحة دى إن كلامك صحيح ؟

فتناول كرشة السبحة وبدأ يحلف : « وحياط الصبحة دى ! وحياط المصحف الشريف ! وحياط الخطمة الشريفة ! وحياط ربنا ! وحياط النبى ! وحياط الصيدة ! وحياط الحصين ! أعضم عينى وعافيطى ! أنطس

فى نظرى ! ينقطع ضراعى ! يفرمنى طرماى ! أبقى ابن سطين . . إن ما كنت شفطه واخدها ورا المركب وناظل فيها بوص ! »

وكان كرشة — لفرط حماسته — يلقى بأيمانه دون أن يأخذ بينها أى نفس ، فلما انتهى منها وقف يلهث وينهج كأنه خرج لتوه من مباراة فى الملاكمة . أما الحاج طلبة فقد احتقن وجهه وبرزت العروق فيه بدرجة تمكن طالب الطب — لو تصادف وجوده — من دراسة الدورة الدموية على الطبيعة . نحواً من دقيقتين وقف جامداً كالتمثال ثم التفت إلى توتو ، صوب إليه نظرة فيها من الحقد مالو عبئ فى مدفع لانطلقت منه قنبلة ، ثم صوب إليه المدفع الصغير الذى فى يده وتهيأ للضغط على الزناد . . . فصرخت فيه يائساً : « أنا ف عرضك يا حاج ! بلاش تضرب ! بلاش يا حاج انت راجل مؤمن !

غير أنه لم يحفل بى إن كان قد سمعنى أصلا ، بقوة ضغط على الزناد . . « تك » ! (قال المسدس) .

تكة معدنية باردة أثارت دهشة الحاج فضغط على الزناد من جديد . « تك » ! قال المسدس ثانياً .

فازدادت دهشة الحاج مع بادرة من الخوف فى عينيه ، وضغط على الزناد ثالثاً : « تك ! تك ! تك ! تك ! »

تكات باردة متعاقبة وما من رصاصة تنطلق ، الأمر الذى لم يكن غريباً معه أن يصبح وجه الحاج صورة مجسمة للدهشة والغيظ والرعب . وتوتو يتلقى تلك الرصاصات الوهمية بمزيج مماثل من العواطف ، وكرشة يرقب الموقف بأغبى نظرة فى أغبى وجه رأيته فى حياتى . وأخيراً فتح الحاج مسدسه وأخرج المشط ليفحصه ، خيل إلى مدى لحظة أنه — الحاج لا المشط — سوف ينفجر .

— ابن . . مين اللى سرق الرصاص ؟ (جأر الحاج بحقد أسود)

ابن . . مين ؟ !

وألقى بالمسدس على الأرض وراح يجيل النظر بيننا باحثاً عن اللص ، ثم استقرت عيناه على زازا .

ــ ما فيش غيرك يا بنت الـ . ، جأر فى وجهها .

ورفع يده ليصفعها ولكنها وثبت خطوة إلى الوراء ووقفت كنمرة متحفزة ، تدق بقبضتها اليمنى على راحتها اليسرى .

ــ أيوه أنا اللى سرقته ! ورميته فى البحر كمان ! ومسدسك فاضى ! ما عندكش رصاص! وشجعها ذهول الحاج على الاسترسال : « وأيوه كان بيبوسنى ، عاجبك ولا لأ ؟ أنا حرة ف نفسى ! مالك ومالى ؟ طلقنى ! ما باحبكش ! جتك البلا ! »

فازداد ذهول الحاج ، راح يلتهمها بنظراته حيناً ثم انقض عليها كالوحش وأطبق على عنقها . كادت زازا تنتهى لولا يد توتو التى جذبت الحاج من قفاه وطوحته بعيداً ، وهى اللحظة التى انتهزها كرشة لكى ينقض على توتو من الخلف ويشل حركة ذراعيه ، فى حين هجم الحاج عليه من الأمام وبدأ فى كيل الصفعات واللكمات . كم صفعة ولكمة نالها توتو لا أذكر على وجه التحديد ، ولكنها كانت كافية لأن تجعله يتراخى بين ذراعى كرشة وينزلق إلى الأرض. وحتى بعد أن سقط لم يرحمه الرجلان ، واحد منهما يرفصه فى جنبه والآخر فى رأسه ، فغطى توتو وجهه بذراعيه وضم ركبتيه إلى صدره ليتلقى آخر الرفصات وأقواها فى ظهره ، فسكنت حركته ورقد على الأرض كالقتيل .

ــ قتلته يا مجرم ! صرخت زازا بصوت مجنون ، قتلته يادون ! وكرشة قرصنى وسايبه . خايف منه ليه ياجبان ؟ !

فما كاد الحاج يسمع الكلمة حتى طارت يده ــ تلقائياً ــ إلى صدغ كرشة بصفعة أليمة .

ــ مرة تانية ماتعملهاش ! (صرخ الحاج طلبة فى كرشة) .

صفعة شديدة تلقاها كرشة ببساطة وكأنها ذبابة حطت على وجهه ، ثم رفع يده الغليظة وإذا بها تستقر على صدغ الحاج بصفعة مماثلة ، وهو يقول : « ماتعضش إيدك على ! » . . وصفعة ثانية ألصقت الحاج بجدار الكوخ . . . « أنا اقرص على كيفى ! تعايا بط ! » . . وجذب زازا من ذراعها وواصل الكلام : « أقرص على كيفى وابوص على كيفى كمان ، آه ! »

وتناول رأس زازا بين يديه وألصق بخدها شفتيه ، سمعت قبلة أشبه بصوت فرملة طويلة حادة لسيارة مسرعة .

– قلط إيه بقى ؟ سأله كرشة وهو يترك زازا .

فلم يقل الحاج شيئاً ، بظهره ضغط على جدار الكوخ لكى يكتسب أكبر قوة ممكنة يندفع بها نحو كرشة . لكن كرشة هو كرشة ، تلقى الحاج المندفع بيديه وصده صدة ردته إلى حيث كان لصق الكوخ ، توطئة لأن ينقض عليه فيطبق على رقبته باليدين . وصرخ فيه : « إنطا موش أضى ياحاج ، موش أضى ! أقطلك ؟ أخنقك ؟ لكن لأ ، أنا برضه عندى إنصانية ! »

ونزع يديه عن عنق الحاج لكى يصوب إلى فكه لكمة إنسانية شديدة تلقاها الحاج فى استسلام حيث استند إلى الكوخ ، ثم بدأ ينزلق ببطء حتى جلس على الأرض ، وقد مال رأسه على كتفه كرجل نعسان . وكرشة راح يتلفت حوله كالمجنون .

– فين الخنجر ؟ ! فين الخنجر ؟ !

فشعرت بالمذكور يرتعد فى يدى ، وازدادت الرعدة عندما رأيت كرشة يركز بصره على كأنما قرأ خواطرى .

– ما فيش غيرك انط ! صرخ كرشة فى وجهى ، ح طجيبه ولا اصيح ضمك ؟ . . . فوجدتنى أبرز الخنجر ببساطة من وراء ظهرى . وقلت : « آهه ! »

وقذفت بالخنجر نحو كرشة توطئة لأن أطلق ساقى للريح ، فلما لم أشعر بصوت يلاحقنى توقفت والتفت إلى الوراء ، رأيت كرشة وهو يطبق بيده على ذراع زازا ويجذبها إلى الكوخ .

ـ أحمد ! (صرخت زازا من بعيد) ، أحمد ! إلحقنى يا أحمد ! حوشه عنى يا احمد ! إلحقنى يا احمد !

حلوة دى ـ قلت لنفسي ـ آل الحقها آل .



الفصل الثامن عشر

ناظراً إلى الكوخ المقفل على زازا وكرشة أحسست بأننى أريد أن أبكى ، ثم بأننى أريد أن أضحك ، ثم وجدتنى أفعل الأمرين معاً . وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، لا أدرى كيف سمحت لنفسها بالشروق فى تلك اللحظة . شعاع منها سقط على الجزيرة وأضاءها كما يضيئها كل يوم ، كان شيئاً مختلفاً ورهيباً لا يدور اليوم فى تلك الجزيرة . شعاع سقط على الحاج طلبة حيث جلس كالنعسان مستنداً إلى جدار الكوخ ، وعلى توتو الذى ما برح طريحاً على الأرض كالجثة الهامدة . فلو أننى كنت مكان الشمس لعدت من حيث أتيت ، لكن الشمس فيما يبدو لا تحفل كثيراً بهذه الأمور ، رأتها أكثر من مرة حتى ألفتها واعتبرتها من روتين الوجود . كان الحاج طلبة أول من أفاق ، رفع رأسه وأخذ يربش حوله بعينين زائغتين . نظر إلى توتو الدائخ ثم إلى أنا محاولا أن يتذكر ما حدث ، فما كاد يتذكر حتى جحظت عيناه كعادته حين ينفعل .

— فين عزيزة ؟ ! (سألنى بصوت زادت اللهفة من بحته) .

فاكتفيت بإشارة صامتة إلى الكوخ الذى يستند إليه ، لا شك أن الإشارة أرحم من الكلام . . . « وكرشة » ؟ (سألنى بنبرة خوف) .

فأشرت إلى الكوخ من جديد ، شافعاً إشارتى بابتسامة صغيرة رجوت أن تهون الأمر عليه . فما كاد يرى إشارتى حتى نزع ظهره عن الكوخ بسرعة كأنما لسعه ، وانتفض واقفاً كأنه عفريت العلبة .

— يعنى . . ؟ (سألتنى عينه المذعورة) .

— أيوه ، أجابته عينى المستسلمة .

فراح يتفرس فى الكوخ كأنه لا يصدق الأمر ، ثم امتدت يده إلى جيبه بحركة لا شعورية. لكن المسدس كان ملقى بجانب قدمه على الأرض ، فصوب إليه رفصة حاقدة أطارته بعيداً . ثم التفت إلى الكوخ وتهيأ لإطلاق الصرخة الصادرة من أعمق أعماق أحشائه المعذبة .

— كرشاه ! دوى صوته كالرعد ، كرشاه !

فمرت لحظة قبل أن يجيب كرشة ، تنحنح أولا ثم أجاب .

— أى خضمة يا حاج ؟؟ (تساءل كرشة بصوت هادئ تشوبه نبرة سخرية) .

— إفتح يا إبن الكلب ! (زأر الحاج طلبة) ، إفتح يا مجرم ! إفتح يا ابن الـ . . . ! فمرت لحظة جديدة قبل أن يجيب كرشة .

— يا حاج طلبة ، (قال المذكور بعد حين) — إيه ؟

فصكت سمع الحاج شتمة بذيئة أعقبتها هعهعة ماجنة ، والهعهعة تبعتها صرخة صغيرة من زازا ، فلا بد أنه ضربها على ظهرها ليلفت نظرها إلى ضعابته — أعنى دعابته . فما كاد الحاج طلبة يسمع تلك الصرخة حتى تحول وجهه إلى ما يشبه بالوناً منتفخاً أحمر ، وراح يلتهم الكوخ بنظرة أعجب كيف لم تشعله ناراً . ثم ارتد إلى الوراء خمس خطوات ووقف يستجمع قوته ، فلما استجمعها هجم على الباب وخبطه خبطة لو أصابت جبلا لهدته . لكنه لم ينفتح ، كيف ثبته كرشة من الداخل لا أدرى . خمس مرات يهجم على الباب بتلك الصورة وما من نتيجة ، لا الباب ينكسر ولا كتف الحاج طلبة . فوقف الرجل ينفخ من الغيظ توطئه لأن يلتفت نحوى فجأة : « واقف تتفرج على يا طور ؟! (صرخ فى) ، موش تيجى تزق معايا » ؟

وكانت رذالة منى حقا أن أقف هكذا بلا عمل ، فسرعان ماانضممت إليه ورحنا نجاهد فى فتح الباب ، ندفعه بالأيدى والأكتاف وندق عليه ونرفصه بلا نتيجة .

ــ بلاش ضوشة منك له ! صاح كرشة من الداخل ، أنا موش فايق لكو دلوقط ! موش كده يابط ؟ !

وصرخة جديدة ــ أو ضحكة هسترية ــ صدرت من زازا فزادت من احتقان البالون الأحمر فوق كتفى الحاج طلبة . ورأيته يرفع يديه إلى أذنيه ليسدهما ، بينما يهز رأسه يميناً وشمالا وهو مغمض العينين كأنه فى حلقة ذكر .

ــ يا باشمهنضس ! (نادانى كرشة) .

ــ أفندم ، (سألته وأنا أتوقع شطمة) .

ــ ما تقول لطوطو يصطاد لنا صمكتين ! فتريثت لحظة قبل أن أجيب : ــ الخنجر معاك ، قلت بصوت هادئ ، إحدفه وإحنا نصطاد .

ــههع ! (قال كرشة) لا حدق ياواد ! طول عمرك حدق بس يا خصارة ، مالكش ف صنعة المراكب ! هع هع! حلوة دى يابط ؟ !

وصرخة ثالثة من زازا فإذا بالحاج طلبة يتهالك فجأة على ركبتيه ، رفع يديه عن أذنيه ليغطى بهما عينيه، وأخذ جسمه يهتز بالبكاء كأنه طفل عاجز صغير . فبينما أنا أنظر إليه شعرت بمزيج غريب من الرثاء له والشماتة فيه . عسير على الرجل ــ أى رجل ــ أن يخوض تجربة كهذه بخصوص زوجته ، وفى الوقت نفسه ــ كما قالت زازا مرة ــ حد قال له يتجوزها ؟ لو أنه تركنى أتزوجها لكان الآن يجلس هادئ البال ، ولكنت أنا الذى أهرى بدلا منه وأنكت .

وأخيراً رفع الحاج طلبة يديه عن عينيه ، خيل إلى أننى أنظر فى عينى رجل مجنون . لحظة من التفكير ثم نهض فى صمت واتجه إلى المنطقة التى كنا نصنع فيها المركب ، أخذ يجمع قطع الأخشاب الصغيرة مع النشارة المتبقية من عمليات النحت ، كدسها كلها فى حجر جلبابه وأقبل نحو الكوخ . فى دهشة صامتة رحت أرقبه وهو ينثر تلك الأخشاب

حول جدران الكوخ ، توطئة لأن يتناول حجرين ويجلس بهما القرفصاء بجانب الأخشاب . فبدأت أفهم ، وهى والله فكرة لا بأس بها أبداً . لا شك أن حريقاً صغيراً يمكنه أن يرغم كرشة على الخروج من الكوخ — إذا كان خروجه أمراً مستحبا . فماذا يحدث عندما يخرج كرشة والخنجر فى يده ؟ فى أى صدر كتب لذلك الخنجر أن يغوص من جديد ؟ ما برح الحاج يضرب حجراً بآخر حتى انقدحت الشرارة وأمسكت فى نشارة الخشب ، لسان نار بدأ يتلوى ويسرى فى سائر الأخشاب . والحاج يهوى على لسان النار بذيل جلبابه ، فيصبح اللسان ألسنا كثيرة ، سياج من النيران بدأ يحيط بالكوخ متمسحاً فى جدرانه . فتلاعبت على فم الحاج طلبة ابتسامة غريبة وهو يدمدم بقراءات لم أسمعها ، لا بد أنها صلاة خاصة يحفظها لمناسبات الحريق .

ثم أخذ يتلفت حوله حتى وقع بصره على المركب فاتجه إليها مسرعاً ، بدأ يجذبها على الأرض عائداً بها إلى الكوخ . فى دهشة بالغة رحت أرقبه وهو يرفع مقدمة المركب إلى أعلا ، لا يبرح يرفعها حتى صارت واقفة على بوزها مستندة إلى باب الكوخ . سدت المركب الباب وأصبحت بمثابة باب آخر للكوخ ، والحاج نفسه أسند ظهره إلى المركب غارساً قدميه فى الرمال بقوة ، يعنى أنه . . « يانهار أبوك أسود » ! . . هكذا صرخت وقد فهمت ما يرمى إليه فسرعان ما انطلقت نحوه أجرى . « إنت اتجننت يا حاج ؟ ! (صرخت فيه بلهفة) موش عارف أن زازا جوه ؟ !

فلم يجبنى إلا بالدمدمة وهو يحملق إلى بعين زائغة لا أظن أنها تبصرنى أصلا . والنار قد بدأت تنتقل من أخشاب الوقود إلى جدران الكوخ نفسه ، أخذت الجدران تطقطق وينبعث منها دخان كثيف أسود .

يا حاج اعقل ! زازا جوه يا حاج !

فأصر على تجاهلى وزاد من تثبيت قدميه فى الرمال ، ضاغطاً بظهره على المركب بقوة . وصرخة مفاجئة من داخل الكوخ .

— حريقة ! صرخ كرشة ، حريقة !

ويبدو أنه فتح الباب فوجد المركب قائمة تسده ، بدليل أنه بدأ يدق عليها بجنون : « افطحوا لى ياولاد الكلب ! افطحوا لى » !

ورأيت المركب تتململ تحت ضغط كرشة عليها لكنه لم ينجح فى زحزحتها ، جن الحاج طلبة والمجنون كما يقال فى قوة عشرة عقلاء . فمددت يداً إلى صدره أريد أن أجذبه من جلبابه ، لكنه سبقنى بأن رفع ساقاً رفصنى بها رفصة أوقعتنى أرضاً . فنهضت وأعدت التجربة ، ثلاث محاولات بثلاث رفصات كأننى أواجه بغلا لا إنساناً . وصوت سعال شديد من زازا التى توشك أن تختنق من الدخان الكثيف الأسود .

— أحمد ! أحمد ! (صرخت وسط سعالها) ، إلحقنى يا احمد ! أحمد !

فجن جنونى وهجمت على الحاج لكى أحظى بالرفصة الرابعة .

— توتو ! (صرخت زازا) ، توتو ! أحمد ! توتو ! أحمد ! توتو !

فأسرعت إلى المذكور بالجرة بعد أن ملأتها بالماء ، سكبتها على وجهه حيث رقد على الأرض . ثم جثوت بجانبه ورحت أهزه بعنف وأرقع له أصداغه . « إصحى ياتوتو ! إصحى أبوس إيدك ! توتو ! توتو ! » .

صوتى شبه ضائع وسط طقطقة النيران وجعير كرشة وطرقه على الباب ، لكنه نجح آخر الأمر فى تنبيه توتو . فرحة وحشية غمرتنى حين رأيته يتقلب ، وحين رفعته لأجلسه فجلس . فتح عينين ضيقتين وسط وجهه الملىء بالكدمات وراح يتلفت حوله فى بلاهة .

— إلحق يا توتو ! زازا جوه ! زازا ح تتحرق! إفهم ياتوتو ! زازا !

— تزاتزا ؟ ! (سألنى بدهشة) . — أيوه يالوح ، زازا جوه مع كرشة!

فوثب توتو على قدميه ، ترنح لحظة ثم اعتدل . راح ينظر إلى الكوخ المشتعل وإلى الحاج طلبة الذى يسد الباب بالمركب ، بدأ يفهم الموقف. فلما تم له الفهم وثب كالنمر نحو الحاج الذى رفع ساقه ليرفصه بها كما رفصنى ، لكن قيمة الرفصة تتوقف بالطبع على شخص المرفوص . تفادى توتو الرفصة وقبض على قدم الحاج ، جذبه منها فانجذب وهو يتقافز على ساق واحدة . وفى الوقت نفسه رأيت المركب تميل إلى الأمام تحت ضغط كرشة من الداخل ، كادت تسقط على دماغ الحاج لولا أن طوحه توتو بعيداً ، فسقطت على الأرض مثيرة حولها عاصفة من الرمال . فما كاد الباب ينفتح حتى رأيت ماهيأ لى أننى فى إسبانيا ، عندما يفتحون باب العرين فيندفع منه الثور المجنون . هكذا اندفع كرشة والخنجر فى يده ، كالثور الهائج يجرى هنا وهناك بغير هدف واضح وهو يضرب الهواء بالخنجر ، فلو أننى رأيته يتشمم الأرض وينفخ لما دهشت . حظه سيىء لأنه لم يولد فى إسبانيا ، كان يمكنه أن يجمع ثروة هناك . ووراء كرشة خرجت زازا وهى تسعل وتسعل ، لكن أحداً لم يلق إليها بالا . كف كرشة بعد لحظات عن الجرى هنا وهناك ووقف أمامنا بالخنجر المرفوع ، كل عضلة فى جسمه تصيح أين الدماء .

— عايظين طحرقونى يا مجرمين ؟! زأر كرشة بصوت كالرعد .

وراح يقلب النظر بيننا باحثاً عن الرأس المدبر للحريق ، فيبدو أنه عرفه بدليل أنه اتجه إلى الحاج طلبة . أمامه وقف متباعد الساقين متحفزاً ، قلت فى نفسى أن الحاج طلبة راح .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (زمجر كرشة فى غل رهيب) .

ونقل كرشة قدمه اليمنى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج طلبة قدمه خطوة إلى الوراء .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتمة جديدة) .

ونقل كرشة قدمه اليسرى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج قدمه اليمنى خطوة إلى الوراء .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (كرر كرشة سؤاله مختتماً إياه بشمة جديدة) .

عشر مرات كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتيمة ، أشهد له أنه لم يكرر أى الشتائم مرتين . هو يتقدم ببطء والحاج يتراجع ببطء ، عينه طول الوقت مركزة فى رعب أليم على النصل اللامع . يستطيع كرشة أن يقتله فى أية لحظة ، لكنه يريد أن يتلذذ بتعذيبه حينـا .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟

وللمرة الأولى كرر كرشة شتمة سابقة ، الأمر الذى يبدو أنه أقنعه بوجوب إنهاء المهزلة ، فرفع الخنجر إلى أعلى وأهوى به على الحاج طلبة ، ضربة شديدة تكفى لقتل الرجل لو أنها وصلت إليه لكنها لم تصل . ذلك أنه بينما كان كرشة يزحف نحو الحاج طلبة ، كان هناك شخص آخر يتسلل وراءه من حيث لا يشعر . كان ينقل قدمه اليمنى إلى الأمام فينقل توتو — مثله — قدمه اليمنى إلى الأمام . وكان ينقل اليسرى فينقل توتو يسراه مثلها ، يتبعه فى كل خطوة كأنه خياله . فما كاد كرشة يرفع الخنجر ليصوب الطعنة حتى طارت يد توتو اليمنى وأطبقت على معصمه ، بينما اندفع ساعده الأيسر وطوق رقبته من الخلف . بكل قوته حاول كرشة أن يتخلص من ساعد توتو لكنه كان ساعداً من حديد . أسنان توتو تلمع بين شفتيه المتقلصتين ، يجز على أسنانه ليستجمع كل قوته . بقبضته يلوى معصم كرشة وبساعده يعصر رقبته ، ما لبثت أن رأيت الخنجر ينفلت من يده ويسقط على الأرض . فأخلى توتو سبيل كرشة دافعاً إياه بعيداً ، وبسرعة البرق انحنى والتقط الخنجر .

وقف كرشة يتحسس عنقه الذى كاد يتحطم ، ناظراً فى غباء إلى الخنجر الذى انتقل من يده إلى يد توتو . فلما استوعب الموقف طفح

الغل من عينيه وفاض على وجهه ، وبدأ يزحف نحو توتو مثلما كان يزحف نحو الحاج طلبة . يبطء يتقدم نحو توتو مفترساً إياه بنظراته ، وتوتو ثابت فى مكانه كنمر متحفز . فلما صار كرشة على بعد خطوات من توتو وقف ينظر إلى الخنجر ويدرس الموقف . دقيقة مشحونة برائحة الموت المختلطة برائحة الحريق ، ثم وثب كرشة فجأة على توتو . يداه حين وثب كانتا تقصدان يد توتو الممسكة بالخنجر ، لكن يد توتو كانت أسرع . كالبرق الخاطف طار النصل اللامع إلى بطن كرشة وارتد عنها وقد غمرتها الدماء . لم تكن طعنة ثاقبة وإنما كانت خدشاً طويلاً على السطح ، تحسسه كرشة ثم راح يحملق فى ذهول إلى يده الملطخة بدمه. فلابد أن منظر الدم أطار ما بقى من عقله ، وإلا فلماذا وثب على توتو من جديد ؟

وثب عليه وهو يقصد هذه المرة عنقه ، لكن الخنجر كان فى الطريق . سنه المسنون غاص هذه المرة فى بطن كرشة ، اخترق الجلد وغاص فى اللحم وخرج منه أحمر دامياً . فعاد كرشة يتحسس مكان الطعنة ، بدأ من أمره أنه لا يصدق ما يدور حوله ، يقول لنفسه إن شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث لكرشة . وكان توتو قد تراجع خطوة إلى الوراء ووقف متحفزاً ، كأنه يقول لكرشة إنه لا يريد أكثر من طعنتين . لكن كرشة فيما يبدو كان يريد الثالثة . إذ استجمع كل قوته لكى يثب على توتو من جديد ، وصلت يداه إلى رقبة توتو وأطبقتا عليها ككلابتين من حديد . فترنح توتو وكاد يسقط لكنه تماسك ، وبكل قوته غرس الخنجر فى بطن كرشة . ولم تكن هذه الطعنة مجرد طعنة ، إذ رأيت الخنجر يدور فى بطن كرشة ويمزق لحمه تمزيقاً — يقوره كما قد يقال . فتراخت يداه عن عنق توتو ووقف يترنح ، ومن الحفرة التى من بطنه أطلت كرة حمراء هى فى أغلب الظن معدته . دماء غزيرة تتدفق من بطنه على السروال وتصبغه باللون الأحمر القانى ، وذراعاه تدلتا حوله



بينما رفع رأسه إلى السماء وراح يجيل فيها نظرة زائغة . وفجأة مال إلى الوراء كما يميل لوح من الخشب ، سقط على الأرض مترامى الأطراف وسط عاصفة من الرمال .

كانت هذه أول مرة أشاهد فيها معدة بشرية ، فليس غريباً أن أشعر بالغثيان وأريد أن أتقيأ . لكننى لم أفعل ، لست فيما يبدو وجودياً إلى درجة القىء . والحاج طلبة وقف جامداً كالتمثال يرقب المنظر ، فى حين سقطت زازا على ركبتيها مخفية وجهها بيديها وهى تشهق شهقات هستيرية .

وتوتو وقف يلهث ويطيل النظر إلى الرجل المذبوح ، وجهه اكتسى بقسوة لم أعرفها فيه قط من قبل . لا يبدو عليه أى شعور بالإثم بسبب الجريمة التى ارتكبها ، قسوة عجيبة شاعت فى وجهه الملىء بالجروح والأورام . ثم أشاح بوجهه وهو يدس الخنجر فى جيبه ، لم يفكر فى أن يغسل عنه الدماء . وأخيراً دبت الحياة فى التمثال الذى يدعى بالحاج طلبة ، ببطء تحرك نحو زازا التى ركعت باكية ، أمامها وقف لحظة صامتاً ثم بدأ يصرخ .

— إنتى طالقة ! طالقة ! طالقة !

فرفعت زازا بصرها إليه ، مزيج نادر من الاحتقار والسخرية والبغض تراءى فى عينيها الدامعتين .

— ياخى يتعل أبوك ابن كلب ! (قالت له زازا) .

— وبتشتمى كمان ؟ !

وطارت يداه إلى عنقها وشرع يخنقها ، كاد يخنقها لولا اليد التى امتدت إليه من الخلف فجذبته من قفاه ، يد توتو التى تحولت إلى قبضة طارت إلى فك الحاج بلكمة عنيفة يمنى ، ثم لكمة مثلها يسرى ، ثم ثالثة يمنى طرحته على الأرض صريعاً . ونظرت إلى الكوخ لكى أكتشف أنه لم يعد هناك كوخ ، انتهزت النار فرصة العراك والتهمته

عن آخره ، لم يبق منه سوى أخشاب قليلة مبعثرة والنار تكمل عليها ، ألسن صغيرة حمراء تتلوى ، مثل ألسن مجموعة من القطط بعد وليمة مشبعة . يكون جميلا جداً لو عاد الشتاء وليس فى الجزيرة كوخ .

فعادت عينى بالرغم منى إلى معدة كرشة ، وكانت قد خرجت نهائيـًا من بطنه ومعها جزء من مصران ربما كان الاثنى عشر . دماء غزيرة تتسرب من جوفه ، تسيل على جنبه وتنفرش على الرمال ملونة إياها باللون الأحمر . فمن ذلك فهمت لماذا يصاب الناس بالأمراض المعوية ويموتون قبل الأوان ، هذا شىء طبيعى جداً ماداموا يعتمدون فى غذائهم وبقائهم على مثل هذا الجهاز التعس .



الفصل التاسع عشر

بالخنجر الملوث بدماء كرشة نزل توتو إلى البحر ليصيد السمك، لأول مرة فى المدة الأخيرة نزل للصيد مختاراً . فنظرت عن يمينى إلى كرشة الذى ينام ومعدته فوق بطنه ، ونظرت عن يسارى إلى الحاج طلبة الذى ينام كالقتيل ، ثم مررت بينهما قاصداً إلى زازا التى ما برحت جالسة تصوب إلى الأرض نظرة فارغة .

— زازا (قلت لها بلهجة من يريد أن يبدأ حديثاً) .

فرفعت بصرها إلى منتظرة كلامى لكننى لم أجد ما أقول، ويدى التى مددتها نحو شعرها رددتها قبل أن تصل إليه .

— معلهش يا زازا ، معلهش .

هذا كل ما استطعت أن أقوله لها ، فارتعدت زاوية فمها بابتسامة صغيرة مريرة ولم تقل بدورها شيئاً . وكانت زازا هى زازا لم يطرأ عليها أى تغيير ، ونحن الذين كنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة .

— تزاتزا ! (أتى صوت توتو منادياً من بعيد) .

فالتفتنا لنراه خارجا من البحر فى يديه سمكتان تتلعبطان .

— تزاتزا ! (نادى بلهجة آمرة وهو يشير إليها داعياً) .

فقصدت زازا إليه ،وأشار إلى الأرض آمراً إياها بالجلوس فجلست، ثم بدأ عملية إشعال النار . وسمعت أنا سعلة خلفى فالتفت لأرى الحاج طلبة قد أفاق وجلس يتحسس مكان اللكمات فى وجهه .نظر إلى فى غيظ كأننى أنا الذى ضربته ، ثم نقل بصره إلى زازا وتوتو حيث جلسا بعيداً . فى غل شديد راح ينظر إلى توتو، فوقف هذا نافشاً عضلاته كأنه يقول هل من مبارز ؟ لكن الحاج فيما يبدو قد عرف آخر الأمر

قلىر نفسه ، إذ اكتنى من المعركة بزغرة طويلة لتوتو ثم التفت إلى قائلا بلهجة الأمر : « قوم بينا » .

ونهض فنهضت دون أن أعرف ماذا يريد . وبعد حين عرفت ، عندما وجدتنى أحفر بجانبه قبراً لكرشة .

فلما انتهينا من الحفر قصدنا إلى كرشة وحملناه ، الحاج يرفعه من تحت الإبطين وأنا من ساقيه . ما كدت ألمسه حتى سرت فى بدنى رعدة شديدة ، الساقان اللتان دب عليهما منذ حين ليقتل كلا من الحاج طلبة وتوتو . فى الحفرة أودعناه وردمنا عليه ، ثم وقف الحاج طلبة ليتلو صلاة الميت . فبينما هو يتلوها رأيت دمعة تترقرق فى عينيه ، كأن الوغد لم يكن منذ قليل يريد أن يحرقه حياً .

من بعيد وصلتنى رائحة السمك المشوى فالتفت نحوها ، رأيت توتو يناول زازا سمكة سمينة . فابتلعت ريقى وبدأت أتجه نحوهما ، شابكا يدى خلف ظهرى وأنا أسير على مهل كأننى أتمشى بغير هدف . بل إننى بدأت أصفر لحناً زيادة منى فى إظهار حسن نيتى ، مختلساً إلى السمك نظرات خاطفة . « ما تيجى تاكل » ؟ قالت لى زازا وهى تمضغ :

— الله ! قلت بلهجة من فوجىء ، هو الغدا جاهز ؟ !

وفركت كفى فى سرور وجلست أمامها ، وهممت أن أمد يدى إلى السمكة لكى أفاجأ بشىء غريب نوعاً . ما كدت ألمس السمكة حتى امتدت يد توتو فوضعت على وجهى كالسلطانية ، ضاغطة على أنفى ودافعة إياى إلى الوراء ، فسقطت على ظهرى وقد ارتفعت ساقاى فى الهواء . فى هذا الوضع ظننت أنه يريد مداعبتى ، لكننى حين اعتدلت ونظرت إلى وجهه أدركت أننى مخطىء جداً . ليس مازحا صاحب هذا الوجه القاسى الكئيب ، الذى يرفع قبضته ويلوح بها أمام عينى مهدداً : قومى ! (زجر توتو) ، قومى !

وأشار بإصبعه بعيداً ، الأمر الذى فهمت منه أنه يطردنى .
— جرى إيه يا توتو ؟ (تساءلت زازا فى دهشة) ، ما تسيبه ياكل .
فزمجر توتو من جديد وهو يشير إلى السمكة ثم إلى البحر ثم إلى نفسه ، حكاية صامتة إلا أنها بليغة جداً .
— طب ندى له حتة صغيرة (قالت زازا راجية) .

ونزعت قطعة من سمكتها ومدتها نحوى ، فإذا بالوغد يضربها على يدها ضربة قاسية أسقطت قطعة السمك على الرمل . وبينما تحسست زازا يدها مكان الضربة رأيت فى عينيها نظرة جمعت بين الدهشة والخوف كأنها تتساءل — مثلى — أهذا هو نفس توتو القديم ؟

— قومى ! (زمجر توتو) ، قومى !
فقمت أنا . وقفت لحظة أصوب إليه نظرة كبرياء ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، قصدت شجرة التفاح ورحت آكل منها حتى ما عت نفسى . وكذلك فعل الحاج طلبة ، وقف يقرش التفاح وهو يطعن توتو بنظرات حامية . وفجأة حول بصره إلى أنا فى كراهية .
— عاجبك كده يا وسخ ؟ ! (سألنى بشراسة) . فلم أجب من فورى .
— إيه هو اللى عاجبنى يادون ؟ (سألته بهدوء) .
— كان لازم تفوق الكلب ده قبل ما اخد الخنجر من كرشة ؟
فبينما أنا أستوعب كلامه رأيته يضرب بيده على جبينه فجأة كمن اكتشف شيئاً .
— طب قسما بالله العظيم مافى حد ضيع الرصاص غيرك ؟ ! إنت اللى قلت لها تسرقه ! ما فيش غيرك انت ؟ !
وطارت يده إلى صدغى بصفعة مفاجئة صارخاً : « إنت » !

وصفعنى ثانياً : « إنت » !
صفعنى ثالثاً فاغتظت ، طول عمرى أغتاظ بسرعة .
— طب أنا آه ! (هتفت متحدياً) أيوه أنا !
وصفعته . « أيوه أنا » !
وصفعته ثانياً . « أيوه أنا » .

وهممت بالصفعة الثالثة فتحاشاها بذراعه ومد يديه إلى عنقى وشرع يهزنى منه بقوة ويقول : « يا أصل البلاوى ياوش الفساد ! يا كافر يا ملحد يا ابن الكلب » !

و باشتداد ضغطه على عنقى تذكرت منظراً رأيته فى مشاجرات سابقة ، فرفعت إصبعين من يدى اليمنى دسستهما فى عينيه ، بينما رحت ألكمه بقبضتى اليسرى فى أسفل بطنه . فكأننى أضرب فى حائط ، لا عينيه وجعته ولا بطنه ، ويداه تضغطان على عنقى فأكاد أختنق . فلست أدرى ماذا كان يحدث لى لولا اليد التى جذبتنى فجأة من قفاى وطوحتنى بعيداً ، إذ وصل توتو فى اللحظة المناسبة ليفض الخناقة . وراح توتو يرطن بكلام غاضب لم نفهم منه شيئاً ، ثم أخرج خنجره ورفعه مهدداً .

— أركب ! قال مشيراً إلى المركب ، أركب ! . . فلم نفهم شيئاً .

— أركب ! صرخ من جديد وهو يدفعنى بقوة نحو المذكورة حتى كدت أنكفئ عليها . وكذلك فعل بالحاج طلبة ، توطئة لأن يتناول المنشار الصخرى فيضعه بين يدى .

قال لى مشيراً إلى نقطة معينة فى المركب . « هينا » !
ثم تناول المسدس القاضى وناوله للحاج طلبة .
— هينا ! (قال مشيراً إلى نقطة أخرى) .

وبدأ يحرك يده ليصور لنا حركة النحت والكحت ، أى أنه يريد منا أن نعاود العمل فى المركب . فلما رأى ترددنا لوح بالخنجر

أمام عيوننا وأشار بيده نحو قبر كرشة ، وكنت ما أزال أذكر معدته .

– هينا ! (قال توتو وهو يزغدنى) .

– هينا ؟ (سألته مستوثقا) . – هينا ! أجابنى مؤكداً .

فبدأت أحك فى النقطة التى حددها ، فى حين وقف الحاج طلبة متردداً . قال له توتو بشراسة . « هينا » !

– إشتغل ياحاج (قلت له ناصحاً) الراجل ده اتجنن .

فتردد لحظة ثم أدنى فوهة المسدس من المركب وراح يحك به فى النقطة التى عينها له توتو . هو عمل لا معنى له ولكن ماذا نفعل ؟

– والله الراجل ده اتجنن (قلت لزازا بالإنجليزية) .

– خدوه على عقله (أجابتنى بنفس اللغة) .

– ما هو ده اللى بنعمله .

وفجأة تدخل توتو فى الحديث .

– أرَبَى ! (عربى) (شخط فى وهو يلكمنى فى صدرى) .

فأردت أن أزعل لكننى وجدتنى أضحك ، واتجه بصرى إلى قبر كرشة . قلت له الله يخرب بيتك ، آدى اللى توتو اتعلمه منك !

ثم واصلت العمل صامتاً ، وكذلك فعل الحاج ، نحواً من ساعة حتى رأيت المذكور يتوقف عن العمل فجأة .

– هو إيه يا خويا ! صاح بغيظ مفاجئ وقد طفح به الكيل ، إحنا علينا ذنب ولا إيه ! ودينى مانا مشتغل ! يلعن أبو اللى يشتغل !

وألقى بالمسدس على الأرض وأولانا ظهره مبتعداً ، لكنه لم يبتعد كثيراً . إحدى يدى توتو جذبته من شعره وألقت به على المركب ، واليد الأخرى وضعت سن الخنجر على عنقه .

– أركب ! (صرخ توتو فى وجه الحاج) أركب ! أركب !

شريط دماء صغير سال على عنق الحاج طلبة ، ونظرة رعب ملأت عينيه . فلما ترك توتو شعره ورفع الخنجر عن عنقه لم يكن غريباً أن

يعكف على العمل بدون كلام . طول النهار ونحن نكحت وننحت حتى خارت قوانا ، لم يرحمنا توتو إلا عندما غربت الشمس . إذ سحب منا كلا من المنشار والمسدس واتجه بهما إلى الكوخ الذى فوجئ بأنه غير موجود فارتد إلى المركب ، أقامها على جنبها ووضع الأدوات وراءها . ثم نزل إلى البحر فغسل يديه ووجهه ، وقصد إلى شجرة التفاح فأكل خمس تفاحات . — تزاتزا (قال وهو يتكرع) !

كانت زازا طول الوقت واقفة تتفرج ، متباعدة الساقين وقد عقدت يديها خلف ظهرها ، ثم سألته بنبرة ساخرة : « أفندم » ؟

فأشار إلى ماوراء المركب ، ولما لم تطع إشارته من فورها جذبها من ذراعها وسحبها إلى حيث أشار . وبضغطة من يده على كتفها جلست زازا ، حجبتها المركب القائمة عن أنظارنا .

ثم نظر توتو إلينا .

— هينا ! قال لنا مشيراً إلى آخر الجزيرة حيث كان يقوم الكوخ .

— والله ؟ لا ياشيخ ؟ ! (زمجر الحاج طلبة)

فسكت توتو حيناً وهو يبادله نظرة عداء صامتة .

— هينا ! (قال مكرراً إشارته) .

— ومراتى يا حضرة ؟ جأر الحاج طلبة وهو يشير إلى ما وراء المركب .

— تزاتزا ! توتو ! (قال توتو مشيراً إليها وإلى نفسه) .

فلما رأى الحاج لا يتحرك من مكانه أخرج الخنجر وراح يسنه على راحته ، ثم رده إلى الخلف وطعن به الهواء ، ثم أشار إلى قبر كرشة ، حكاية أخرى صامتة ولكنها بليغة جداً . فواجهت الحاج طلبة ورحت أطبطب على ظهره .

— يا حاج انت موش طلقتها ؟ (قلت له) ، يا الله بينا من هنا . الراجل ده اتجنن . . !

ورحت أجذبه من ذراعه وهو لا يريد أن يجذب ، واقفًا يحملق إلى توتو بعين يدهشنى أنه لم تنطلق منها رصاصة قاتلة . وأخيراً استجاب ليدى التى تجذبه ، أى أنه لولاى أنا لما فارق مكانه إلا على أسنة الرماح . قصدنا إلى آخر الجزيرة وجلسنا وراء الكوخ غير الموجود ، أنا وهو والجمجمة ، نسيت أن أخبرك أن البحر قذفها إلى الشاطئ من جديد . فى صمت جلسنا ، فى عتمة الليل الزاحف ورائحة الشياط تملأ أنفى . فخطر لى أن أكلم الحاج طلبة لكن منظر شبحه الجامد لم يشجعنى ، وعلى أى حال ماذا أقول له ؟ أسأله لماذا أحرقت الكوخ يا حمار ؟ لماذا تزوجت زازا يالوح ؟ لماذا أطلقت المسدس الفاضى على توتو يا حاج ؟ وإذا سألته فبماذا يجيب ؟ فتنهدت فى يأس وانطرحت على ظهرى أتأمل السماء ، سماء عريضة مظلمة نثرت فيها ملايين النجوم ، ملايين من الثقوب الصدئة فى نملية كبيرة سوداء مكفأة علينا .



الفصل العشرون

رأيت فى المنام أن خنجراً حامياً يدس بين أضلاعى ، فهببت مذعوراً لكى أسمع ضحكة أنثى ، وكانت ضحكة من خارج الحلم لا من داخله . زازا هى التى ضحكت من منظر ذعرى ، حيث ركعت بجانبى تهزنى لكى أصحو وتنخزنى بين أضلاعى .

— إصحى قوام ! هتفت فى حماسة ، إصحى! قوم الحق الخناقة!

— خناقة ؟ سألتها وأنا أتثاءب .

— آه ، الحاج طلبة سرق الخنجر من توتو !

— الحاج سرق الخنجر من توتو ؟

— آه خلاه نايم وسرقه من جيبه !

— خلاه نايم وسرقه من جيبه ؟

— آه ، كان حيموته لولا صحى م النوم !

— كان ح يموته لولا صحى م النوم ؟

— أحمد ! جرى لك إيه ؟ — جرى لى إيه ؟

فتأففت ونهضت وهى تجذبنى ، فنهضت وأنا الآخر أتأفف .

— لا حول الله يارب ، هو الواحد ما يعرفش ينام ساعة على بعضها فى الجزيرة دى ؟ عمرى ما أنام إلا وأصحى على خناقة ؟

فلم تجب زازا ، منشغلة بعملية جذبى نحو ميدان المعركة ، فسرت وراءها مترنحاً أدعك عينى . وعلى ضوء الفجر الذى بدء يبزغ رأيت الخناقة ، وكانت حتى هذه اللحظة ما برحت فيما يبدو مشروع خناقة . كان الحاج طلبة وتوتو يقفان متواجهين ، كل منهما قد باعد بين ساقيه وانحنى إلى الأمام قليلا ، وكل منهما قد ركز بصره على وجه الآخر يتأمله ويتفحصه كأنه يريد أن يعرف ماذا يكون . الفرق الوحيد

بينهما هو أن الحاج طلبة كان يمسك الخنجر فى حين أن توتو لا يمسك شيئًا .

ـ ماعندكيش فكرة ، سألت زازا متثائبًا ، بيتخانقوا على إيه ؟

فرمقتنى زازا عاتبة وقالت : « ح يكون على إيه يعنى ؟ على أنا طبعًا » .

ـ آه صحيح ، لا مؤاخذة .

وفى تلك اللحظة قفز الحاج طلبة قفزة صغيرة إلى الأمام فقفز توتو قفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمد كل منهما فى مكانه كما كان من قبل . قالت زازا : « بيفكرونى بالقطط » .

ـ أنا شخصيًا بيفكرونى بالديوك . شفتى خناقة ديوك ؟

ـ لأ .قلت : « ولا أنا ،لكن متأكد انهم لما يتخانقوا يبقوا كده » .

ومن جديد قفز الحاج طلبة قفزة إلى الأمام ، قلدها توتو بقفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمدا فى وضعهما الأول يتبادلان النظر .

ـ حتى شوفى نافشين ازاى ؟

فلم تجب زازا وقد انهمكت فى الفرجة ، هى الأخرى قد توتر ذراعاها وتقبضت يداها كأنها مشتركة فى المعركة .

ـ إنتى بتشجعى مين فيهم ؟ (سألتها مستفسرًا) .

ـ ح يكون مين ؟ توتو طبعًا . ـ وجوزك ؟

ـ يلعن أبوه ! ـ طيب عارفة انا باشجع مين ؟ باشجع الاتنين ! نفسى يدبحوا بعض ويريحونا .

ـ مهما كان توتو أحسن م الحاج .

ـ حتى بعد ما كل السمك لوحده ؟

ـ هو صحيح اتغير ، لكن ما تنساش انه زمان كان كويس .

ـ فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

ـ وعلى كل حال معذور أنه يتغير . هو اللى شافه شويه يا حمد ؟

ـ قوليها تانى ـ هى إيه ؟

ـ أحمد ، حلوة قوى من بقك . ـ يا سلام .

ـ آه والله .

وقفز الحاج فقفز توتو كأنهم خياله فى المرآة ثم جمدا من جديد ، كلاهما يلهث بصوت مؤذ للسمع فى ساعة الفجر الهادئة . ومرة رابعة قفزا ثم جمدا ، متحفزين متنمرين متوترة كل عضلة وكل خلية من خلايا جسميهما . . قلت لزازا متصعبـًا : « ياخسارة الأدرينا لين » .

ـ يطلع إيه ده ؟ ـ حاجة كده تفرزها الغدة الكظرية ساعة الخناق .

فلم تعلق زازا حيث انهمكت فى الفرجة ، وذكرت أنا أمراً .

ـ يا ترى كل المعد زى بعضها ؟ ـ معد ؟

ـ آه ، أصلى عمرى ما شفت معدة غير معدة كرشة .

ـ طب بلاش قرف بقى !

وقفز الرجلان قفزة سادسة وسابعة وثامنة .

ـ الحكاية بقت مملة قوى ، (قلت لزازا متثائبـًا) .

وتركتها وقصدت إلى شجرة التفاح ، قطفت واحدة ووقفت أقرشها . كنت فى حالة غريبة نوعـًا من عدم الاكتراث ، وثمة رغبة حقيقية فى أن أرى الرجلين صريعين . طفح الكيل كما يقولون ووجب أن يضع أحدهم للأمر حدًّا . ووصلتنى شهقة مفاجئة من زازا فالتفت متباطئـًا ، رأيت توتو واقعـًا على ظهره ـ تكعبل ، أغلب الظن ـ والحاج طلبة ينتهز الفرصة فيلقى بنفسه فوقه وهو يصوب إليه طعنة شديدة لم تبلغه للأسف ، إذ تمرغ الوغد بسرعة ليتحاشاها فانكفأ الحاج على وجهه ونزلت الطعنة على الرمال . وقبل أن ينهض من سقطته كان توتو قد قد انتفض واقفـًا كأنه بزمبلك ، وإذا به راكب على ظهر الحاج طلبة مثلما تركب الحمار . ومن هناك قبض على معصم اليد التى تمسك

الخنجر وراح يلوى الذراع كله إلى الوراء ، خيل إلى أننى سمعت صوت طقطقة عظام الحاج . فما هى إلا لحظة حتى رأيت الخنجر وقد انتقل من يده إلى يد توتو الذى ظل جالساً به على ظهره كأنما أعجبته القعدة . فارتكز الحاج بيديه على الأرض محاولا أن يرفع نفسه ، لكنه ناء بحمل توتو وسقط كما كان . وتوتو ما برح رافعاً خنجره وهو يلهث ، ناظراً إلى قفا الحاج فى هيئة تفكير . هو فى أغلب الظن يشاور نفسه فيما يصنع بعدوه الذى سقطَ ، هل يقتله أم أن العفو أحسن عند المقدرة ؟ نحوا من دقيقة راح توتو يفكر ويلهث ، وفجأة رأيت يده ترتفع بالخنجر ثم تهوى به على ظهر الحاج ، غاص النصل فى كتفه محدثاً وخزة أليمة فى كتفى أنا .

— توتو ! (هتفت زازا ولكن بعد فوات الأوان)

ورأيت ذراعى الحاج يمتدان إلى الأمام ورأيت أصابعه العشرة تنغرس فى الرمال بقوة ، ثم ما لبث أن تراخت عضلاته وسكنت حركته . فنزع توتو الخنجر من كتفه ونهض عن ظهره ، وقف يرقبه حيناً ثم أولاه ظهره وقصد إلى البحر ليغتسل . وزازا واجهتنى بنظرة ذاهلة ثم أسرعت نحو الحاج وركعت بجانبه تفحصه ، تحسست كتفه ثم رفعت يدها ملوثة بالدماء . فوقفت وشمرت ذيل قميصها ، راحت تنزع منه قطعة جديدة على سبيل الضمان . وهناك عند الأفق كانت الشمس قد بدأت تطل على الكون ، خيل إلى أنها توجه إلى سؤالا .

— الحاج طلبة (قلت أجيبها) . — إيه ؟ تساءلت زازا .

— لا دنا باكلم الشمس . أصلها سألتنى مين القتيل النهارده .

فرمقتنى زازا فى امتعاض وواصلت تضميدها لكتف الحاج . وتوتو فى البحر قد شرع يضرب بخنجره فى الماء ليصيد سمكة ، لا شك أن الإنسان يحتاج إلى شىء من التغذية بعد ارتكاب جريمة متعبة كالقتل . وانتهت زازا من ربط كتف الحاج ، نظرت أنا إلى

قميصها وغلبني الضحك .

ـ فيه حاجة تضحك ؟ (سألتني بغيظ) .

ـ اتنى ا (أجبتها) كان يومين ح تلاقى نفسك لابسة « بيبى دول » ! (يعنى عروسة طفل عارية) قطعة من ذيل القميص صنعت منها ذات يوم كمادة لجبين الحاج الساخن ، وقطعة ثانية ربطت بها كتفى أنا ، وها هى القطعة الثالثة على كتف الحاج ، لست أدرى ماذا كنا نصنع بغير هذا القميص النافع . وسألتها : « تفتكرى ح يموت » ؟

ـ شيء بارد ! وأنا اعرف منين بقى ؟ ـ على كل حال توتو ما ضربوش غير ضربة واحدة صغيرة . كان ذوق معاه فى الحقيقة .

ـ تزاتزا ! أتى صوت توتو مناديًا .

فى يده سمكة كبيرة تتلعبط ، ألقى بها على الأرض فراحت تتنطط ، فى حين شرع هو يشعل النار .

ـ تزاتزا ! (عاود توتو النداء) . ـ آدينى جايه (أجابته زازا فى ملل) .

وقصدت إليه تساعده فى الطهى ، وأنا واقف عن بعد أتفرج جارى الريق . فلشد ما فرحت حين رفع توتو السمكة عن النار وأشار إلى داعيًا . ظننت أنه يدعونى للمؤاكلة ولكننى كنت ممعنا فى التفاؤل ، إذ اكتفى بأن قطع ذيل السمكة وألقاه نحوى على الرمال كما تلقى عظمة لكلب . فأسرعت إلى الغنيمة وأنا أبصبص من الفرح بذنب وهمى ، سرعان ما كنت ألتهم ذيل السمكة بكل ما فيه من شوك ورمل .

الفصل الحادى والعشرون

ما كاد توتو ينتهى من الأكل حتى نادانى إلى العمل ، فلماذا أطعمنى إلا لهذا ؟ بالمنشار الصخرى عكفت على النحت والكحت ، أنا المهندس الذى تحول على آخر الزمن إلى نجار . ساعتان من النحت والكحت حتى صرخت يدى من الألم ، وفى سبيل قضية أعرف جيداً أنها خاسرة . لا يستطيع هذا الحمار أن يفهم أن العيب فى البحر لافى مركبى . وزازا تقسم وقتها بين العناية بالحاج الجريح وبين الفرجة علينا وهى صامتة . كانت تتفرج على توتو بوجه خاص ، تطيل النظر إلى وجهه القاسى كأنها تحاول أن تتعرف فيه على توتو القديم . لكنها لم تحاول أن تكلمه ولا حاول هو أن يكلمها ، دماء الحاج طلبة أقامت حاجزاً جديداً بينهما ، بعد الحاجز الذى أقامته دماء كرشة .

— مش كفاية بقى يا توتو ؟ (قلت له ضارعا) شوف إيدى ؟

وبسطت أمام عينيه كفى المتسلخة فرمقها فى ازدراء وقال « أركب » .

لم نتوقف عن العمل إلا بعد الظهر إذ تراجع توتو خطوة إلى الوراء وراح يتأمل المركب ، ثم أخذ يدور حولها ويتفحصها من كل ناحية .

كانت المركب هى المركب ، لم يطرأ عليها جديد سوى أنها صارت أرق نوعاً . لسبب ما يظن توتو أن خشونة مركبى وثقلها هما السبب فى عجزها عن اقتحام التيار . نظرة ارتياح تراءت فى عينيه ثم دس الخنجر فى جيبه وقصد إلى شجرة التفاح ، ظننت بالطبع أنه سيأكل لكنه لم يفعل . بكلتا يديه راح يقطف التفاح ويلقى به على الأرض ، مالبثت أن رأيت تحت الشجرة كوماً هائلا من التفاح .

— الراجل ده اتجنن ولا إيه ؟ (سألت زازا فى دهشة) .

فبسطت ذراعيها تعرب عن حيرتها ، والوغد توتو يواصل القطع حتى كادت الشجرة تصبح عارية من التفاح . وبدون كلام ترك كل هذا التفاح وقصد إلى البحر حيث شرع فى الصيد ، صاد سمكة وألقاها على الشاطئ ، ثم صاد أخرى وألقاها ، ما هى إلا ساعة حتى تجمع على الأرض أكثر من عشرين سمكة .

— ده يظهر انه اتجنن صحيح ! (قالت زازا) .

— إنما جنونه المرة دى كويس ، موش معقول ح يقدر ياكل السمك ده كله لوحده .

واسترعت أسماعنا أنة مفاجئة من ناحية الحاج طلبة فتلفتنا إليه ، رأيناه يرفع رأسه عن الأرض وهو يتأوه ، عدة ثوان ثم سقطت رأسه من جديد . فقصدنا إليه وتحسست جبينه فوجدته ساخناً كالنار ، وجسست نبضه فوجدته سريعاً بعض الشيء إلا أنه نبض رجل حي . فنزعت زازا قطعة جديدة من قميصها وراحت تبللها بالماء لتصنع منها كمادة ، فى حين وصلت أنفى رائحة شهية للسمك الذى بدأ توتو يشويه . ساعة كاملة وهو يشوى ويشوى ، صامتاً لا يكلمنا ولا نكلمه ، فلما انتهى من الشى رأيته يشير إلى بالاقتراب فخففت إليه فرحا . من بين العشرين سمكة تناول ثلاث سمكات وقذف بها على الأرض عند قدمى . — دول بتوعى أنا ؟ (هتفت فى سعادة) .

فلم يجب توتو بشيء ، ورأيته يشرع فى تحويل السمك إلى المركب ، كدسه كله فى ركن منها . ثم قصد إلى كومة التفاح وبدأ يصنع بالتفاح ما صنعه بالسمك ، كدسه كله فى ركن آخر من المركب . عند ذلك بدأت أفهم ، إذ أننى طول عمرى سريع الفهم . هو يعتزم القيام برحلة يعتقد أنها طويلة نوعاً ، وإلا فما لزوم كل هذه المؤونة ؟ ؟ لكنه أعطانى أنا ثلاث سمكات فماذا يقصد من ذلك ؟

— يانهار أبوك أسود ! هتفت وقد فهمت ماذا يقصد .

هو يقصد القيام برحلة لا مكان لى فيها . سيحاول مغادرة الجزيرة بدونى ، فكرة أفزعتنى مدى لحظة ثم تذكرت أنه لا داعى للفزع . هو يظن أنه سينجح فى مغادرة الجزيرة ولكنه لن ينجح ، أكون حماراً لو أن هذه المركب الرقيقة أمكنها أن تحقق ما عجزت عنه المركب الأولى الخشنة الثقيلة . وقاطع توتو أفكارى بإشارة إلى زازا يستدعيها فى حين شرع يجذب المركب حتى أنزلها فى البحر .

— تزاتزا ! (صاح منادياً) .

فتركت زازا الحاج طلبة وقصدت إلى توتو الذى أشار إلى المركب آمراً إياها بالصعود .

— على فين ياخويا ؟ (تساءلت فى دهشة) .

فلم يجبها بشىء بل جذبها من ذراعها وأنزلها فى الماء .

— طب ودول ؟ (سألته فى حيرة وهى تشير إلى أنا والحاج طلبة) .

— دول ؟ (ردد توتو كلمتها فى ازدراء) — آه دول .

فراح توتو ينظر إلى حينا ثم بصق على الأرض . ودفع زازا إلى المركب فصعدت مرغمة ، وصعد هو وراءها وتناول المجداف .

— ما تخافيش يا زازا ، ناديتها ، كمان ساعة وتكونوا هنا تانى !

وشغل توتو مقدافه فبدأت المركب تتحرك مبتعدة عن الشاطئ .

— باى باى ! (صحت فى أثرها ملوحاً بيدى) .

فرأيت زازا تلوح لى بيدها من بعيد ، دقائق معدودة وأصبحت المركب بقعة بعيدة سوداء . عند ذلك سرت فى بدنى قشعريرة مفاجئة ، فماذا يكون الحال لو نجح مشروع توتو فى الخروج بالمركب من منطقة التيارات ؟ أليس من الممكن أن أكون حماراً وتكون هذه المركب الجديدة أصلح من مركبى ؟ فماذا يفعل حمار مثلى وهو بمفرده فى هذه الجزيرة الموحشة مع حاج نصف عمر ؟

قشعريرة ثانية سرت فى بدنى حيث وقفت وحدى فى شمس الأصيل

ناظراً إلى المركب التى أصبحت نقطة صغيرة فى آخر البحر، نقطة صغيرة فيها حمامة بيضاء اسمها زازا . أيمكن أن تخرج زازا من حياتى بهذه الطريقة السافلة ؟

— آه ، (تأوه الحاج طلبة حيث رقد على الرمال) آه .

— جلك أوى ! (أجبته من فوق كتفى) .

ونظرت إلى البحر فإذا بالمركب قد اختفت عن البصر ، كدت أسمع بأذنى دقات قلبى . فأسرعت أجرى إلى حافة الماء وأنا أضيق عينى قدر استطاعتى وأستعرض الأفق بجنون . زازا ضاعت ، زازا الجميلة ، زازتى أنا .

— زازا ! (هتفت بصوت تخنقه الدموع) ، زازا ! زازا !

وفوجئت بنفسى أبكى بحرقة ، دموعى تنهمر من عينى وتبلل لحيتى الشعثاء . دقيقة من اليأس الأسود ثم خفق قلبى فى فرح مجنون ، عندما وقع بصرى من خلال الدموع على نقطة صغيرة سوداء عند الأفق . المركب ظهرت بعد أن اختفت ، فما الغرابة فى أن أتنطط من الفرح ؟ حيث وقفت على حافة الماء رحت أتنطط وأصفق أيضاً ، مركزاً بصرى — بعد أن مسحت دموعى — على النقطة السوداء التى تتحرك ببطء جهة اليمين . تسير أفقياً بعد أن كانت تسير رأسياً — تدور بالاختصار حول الجزيرة كما فعلت بنا من قبل وأنا فيها . لست حماراً وإنما الحمار أنت ياتوتو ، إذ ظننت أنك تستطيع تحقيق ما عجزت أنا عنه . هى تدور وتدور ماأحلى دورانها ، وأنا أصفق وأتحنجل وتنطلق منى ضحكات وحشية متلاحقة . وبينما تدور تقترب من الجزيرة فى خطوط حلزونية ، أدور أنا معها فأكاد أصاب بالدوار . النقطة الصغير البعيدة تحولت إلى بقعة صغيرة ثم كبيرة ، ثم تحولت البقعة إلى مركب ميزت فيها رأسين ، شيئاً فشيئاً تقترب حتى رأيت وجه زازا — حبيبتى زازا — رؤية العين . ورأيت وجه توتو الذى ينطق فى بلاغة شديدة بالغيظ والجنون وخيبة الأمل .

ودورة أخيرة ثم حاذت المركب شاطئ الجزيرة وانغرست فيه بقوة ، تشبث الراكبان بحافتها كي لا ينسكبا منها على الأرض . أردت أن أقهقه لكنني نظرت إلى وجه توتو فأمسكت ، كيف أغامر بالسخرية من صاحب هذا الوجه المجنون ؟ حتى الابتسامة التي ارتسمت على شفتي بالرغم مني رفعت يدى فداريتها بها . وزازا نزلت هي الأخرى صامتة صارمة الوجه ، لا بد أنها غامرت بالضحك منه فشتمها أو ضربها أو أي شيء . أما هو فنزل من المركب ووقف يتفحصها صامتاً ، يدور حولها ويفحص كل جزء فيها ليعرف أن يكمن العيب . فيبدو أنه لم يجد فيها أى عيب ، وإلا فلماذا قفز إليها وركبها ، وتناول المجداف وشرع يجدف من جديد — ده ح يجرب الحكاية تانى ! » هتفت أنا وزازا فى نفس واحد » :

ونظرت زازا إلىّ فإذا بنا ننفجر ضاحكين ، وبينما ضحكنا فاض الحب من قلبي ، بسطت ذراعى أبعد ما يكون عنى وإذا بزازا تلقى نفسها بينهما . قبلتها بشوق دافق وحنان ، الحمامة البيضاء التى خيل إلى منذ حين أننى سأفقدها . وبينما هى فى أحضانى رحنا نرقب المركب التى كانت بقعة فأصبحت نقطة سوداء فى آخر البحر . فلما كدنا نفقدها رأيناها تتحرك جهة اليمين وتشرع فى الدوران حول الجزيرة . فماذا نفعل سوى أن نضحك من جديد ؟ شيئاً فشيئاً عادت النقطة بقعة ، ثم عادت البقعة مركباً بها رأس ، ثم بدا فى الرأس وجه يقطر غيظاً وغلا وخيبة رجاء . ودورة أخيرة وحاذت المركب الشاطئ وانغرست فيه ، بينما صاحب الوجه المجنون يتشبث بحافتها كي لا يندلق منها على الأرض . فأشاحت زازا بوجهها ورفعت أنا يدى أخفى ابتسامتى ، بينما نزل توتو من المركب ووقف يفترسها بنظراته وهو يلهث . وفجأة رأيته يهجم عليها ليرفصها رفصة شديدة وقد نسى فيما يبدو أنه حافى القدم . فلم يكن عجيباً أن يصرخ ويرفع قدمه المصابة ويمسكها بكلتا يديه ليخمد الألم ، متقافزاً

بالطبع على قدمه الأخرى كيلا يقع . فكان منظراً جاوز قدرة زازا على كبح نفسها ، فإذا بها تنفجر بضحك هستيرى وهى تضرب الأرض بقدميها وتطرقع بأصابعها فى الهواء . فنظرت أنا إلى وجه توتو ورأيت أن أحذرها .

— زازا (قلت لها ناصحاً) بلاش ضحك ده مجنون .

لكن الأمر كان قد خرج من يدها ، لم يعد فى إمكانها أن تكبح ضحكها الهستيرى . فبينما هى تضحك رأيت توتو يصوب إليها نظرة تقطر حقداً ، ثم أنزل قدمه واقترب منها حيث وقفت تضحك ، وبكل قوته أهوى على خدها بصفعة شديدة ألقت بها على الأرض . فكفت زازا عن الضحك ، وبعينين واسعتين من الرعب جلست تنظر إلى الرجل الذى ضربها ، والذى فوجئت به يرفع قدمه ويصوب ركلة عنيفة إلى جنبها ثم يتهيأ للثانية . فذهلت وجننت ، ولأول مرة فى حياتى فقدت أعصابى . فوجئت بنفسى أندفع نحو توتو من الخلف وأقفز فأتعلق بذراعى فى رقبته ، فإذا به يترنح ويسقط على الأرض . فركبت فوقه كما فعل كرشة بى ذات يوم ورحت أغمر وجهه بلكمات عمياء ، لكمات لم يصل إليه منها للأسف إلا لكمتان والباقى تلقاه الوغد على ساعديه الحديدين . وزالت عنه المفاجأة فإذا به يخلعنى من فوقه ويلقينى على الأرض ، ثم يجذبنى من شعرى ليوقفنى ، ولكمة عنيفة من قبضته أصابت فكى ورسمت حول رأسى عشرات من النجوم المتراقصة . شعرت بلخلخة فى الركب ووجدتنى أترنح ، ولكمة ثانية على فكى الآخر فغبت عن الوجود .

الفصل الثاني والعشرون

كرجل يخرج من بئر مظلم عميق بدأت أعود إلى الوعي ، وبصعوبة فتحت عيني فوجدت فوق بدراً ساطعاً . هل هي زازا ؟ كلا ، هو البدر الآخر يطل على من السماء . فجلست وأخذت أدعك عيني ، وفتحت فمي لأتثاءب فشعرت بألم شديد في فكي . صمت عميق يخيم على الجزيرة ولا أثر لإنسان إلا جثة الحاج طلبة الملقاة بالقرب مني . هناك وراء المركب القائمة على جنبها أتخيل زازا نائمة ، كيف طاوعها قلبها على على أن تتركني وحدي ؟ لابد أن السافل سحبها معه بالقوة وأرغمها على هجري . هل أقوم الآن وأتسلل إلى حيث ينام لكي أجرب سحب الخنجر من جيبه كما فعلت ذات يوم ؟ كلا ، لابد أنه أخفى الخنجر في مكان أمين بعد ما وقع بالأمس من الحاج طلبة ، وما فائدة الخنجر في يدي على أي حال؟

— أحمد !

صوت زازا أتى من ورائي فالتفت مذعوراً ، رأيتها تقترب سائرة على أطراف أصابعها . فلما وصلت إلى ركعت على ركبتيها ومدت يدها تتحسس شعري : « إيه اللي جابك ؟ » سألتها وأنا أتلفت حولي .

— توتو نام جيت اطمن عليك (أجابتني هامسة) فقت يا حبيبي ؟

— المفروض كده . — مرسي قوي انك دافعت عني (واصلت همسها) .

— العفو يا ستي ده واجب علينا ، أجبتها متحسساً فكي المخلوع .

— أحمد ... — إيه يا روحي ؟

— أنا خايفة قوى . — من إيه يا حياتى ؟

— من توتو ، عمره ما ضربنى كده أبداً . — يعنى هو كان ضربنى أنا ؟

— وشوف كمان عمل إيه فى الحاج طلبة . — فعلا.

— مع أنه زمان كان ابن حلال قوى . — فعلا.

— أحمد ... — نعم ؟

— ماعندكش حاجة غير فعلا ؟ — فعلا .

— إنت خايف زى ما أنا خايفة ؟

— م م م موش قوى . ولو ان فيه حاجة نفسى اعرفها .

— هى إيه ؟ — متأكدة ان توتو رايح فى النوم ؟

— ساعة ما سبته كان بيشخر . — لكن ممكن يصحى فى أى لحظة .

— ممكن طبعاً . — طب ما تروحى له يا بنتى أحسن .

— إخص عليك يا أحمد ، موش عاوزنى معاك ؟ باقول لك خايفة قوى .. وألقت بنفسها علىّ تمرغ خدها فى صدرى .

— خبينى يا أحمد (قالت وهى ترتعد) خبينى .

— استخبى يا روحى ، استخبى ، (قلت ، وأنا أكثر رعدة) .

وأحطتها بالذراعين لأخبئها ، مع أننى والله أحوج الناس إلى الاختباء . — خايفة قوى يا أحمد .

— حتى بعد ما خبيتك ؟ — آه .

— طب استخبى كمان .

فلاذت بى أكثر من قبل ، قطة صغيرة ترتعد بين أحضانى ، اوذى يا حبيبتى لوذى . — أحمد . .

— قوليها تانى . لوذى بلاش دلع ، عايزة أسألك سؤال .

— واحد بس ؟ — لو كان المسدس محشى كنت تعمل إيه ؟

— أضربه . — على توتو ؟

— إمال على روحى ؟ — يا خسارة ماهوش محشى .
— أيوه يا خسارة . — طب خبينى .
— أكتر من كده ؟! ولاذت بصدرى أكثر من قبل ، عطر شعرها نفذ فى صدرى وأسكرنى .
— قلبى شانيل ؟ — وبعدين معاك ؟ ح اقول لك مية مرة آربيج ؟
— طب استخبى يا روحى ، استخبى .

لحظة من النشوة المرتعدة لم تدم بالطبع طويلا ، بسبب الأنة التى سمعناها بجانبنا . فالتفتنا إلى الحاج طلبة ورأيناه يتقلب حيث نام فى ضوء القمر ، توطئة لأن يستوى فجأة جالساً . فى بلاهة راح يتلفت حوله حيناً ، ثم اتكأ بيديه على الأرض وشرع فى محاولة للنهوض . ارتفع عن الأرض قليلا ثم سقط ، ثم ارتفع ثانياً . ببطء يرتفع عن الأرض كأنه لصق إليها بالصمغ ، لحظات من الكفاح ثم رأيناه واقفاً . شبح طويل فى الجلابية البيضاء يترنح وقد رفع رأسه إلى السماء ، ثم بدأ يسحب شهيقاً طويلا يملأ به رئتيه ، سمعنا الهواء وهو يتسلل إلى صدره بصوت كالفحيح . فانتظرت أن أسمع صوت الزفير لكننى لم أسمعه ، لسبب ما رأى الحاج أن يحتفظ بالهواء فى صدره حيناً من الزمن . ذلك — كما تبينت بعد لحظات — لأنه كان يزمع الصراخ .

— حى ! (صرخ الحاج طلبة بصوت كالرعد) حى ! حى ! حى !

أربع صرخات متوالية هزت أركان الجزيرة هزًّا ، مع كل صرخة تجفل زازا بين ذراعى وتنتفض .

— حى ! (صرخ الحاج من جديد) ، حى ! حى !

ثلاث صرخات جديدة ثم سعل الحاج فى وقار ولمّ الجلباب حول ساقيه ، توطئة لأن ينخفض إلى الأرض ويجلس . وسعلة ثانية ثم انطرح على جنبه ونام كما كان من قبل ، أنفاسه ترددت فى هدوء

كأنه لم يبدر منه أى شيء غريب .

— أحمد (هتفت زازا فى هلع) دا باينه اتجنن !

— زازا ، (أجبتها وأنا أرتعد من الخوف) بصى وراكى !

فالتفتت خلفها لكى ترى ما رأيت ، توتو الذى يقف على بعد خطوة منا وقد صحا فى الغالب على صراخ الحاج طلبة . فى صمت يقف ناظراً إلى زازا حيث لاذت بين أحضانى ،بوجه صخرى كوجه أبى الهول يلمع فى ضوء القمر . وبهدوء منذر بالشر مد يده إلى جيب المايوه ففتحه واستل منه الخنجر ، ذلك المنظر الذى ما كادت زازا تراه حتى نهضت على عجل .

— توتو ! (هتفت زازا) بلاش جنان ! أنا ف عرضك ياتوتو !

وهمت بأن تطبطب على صدره فدفعها عنه بقسوة وبدأ يقترب منى بوجه يقطر حقداً وشرًا . فلست أدرى ماذا أصابنى حتى جلست جامداً بهذه الصورة كأنى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء ، لم أتحرك ولا حتى بعد أن رأيت الخنجر يرتفع فى يده إلى أعلى .

— توتو ! (صرخت زازا) .

وهجمت عليه من الوراء تطوق جذعه وتحاول أن تجذبه فكأنما تجذب جذع شجرة بلوط . بكوعه لكزها فى رأسها فتركته وهى تغطى بيديها وجهها ، ويده اليمنى هوت بالخنجر اللامع نحوي . فلا بد عفريت لبسنى فجأة — ذلك الذى جعلنى أنطرح بسرعة البرق على على الأرض وأتشقلب لأتفادى الطعنة ، توطئة لأن أشرع فى الإجراء الوحيد المتاح لرجل فى موقفى وذلك بالطبع هو الجرى السريع . بكل قوتى رحت أجرى وأنا أسمع صوت أقدام تجرى ورائى ، مطلقاً بين الحين والآخر صرخة عبيطة كلما هم بأن يمسكنى . فخيل إلى أنى انقلبت تلميذاً صغيراً يلعب المساكة فى حوش المدرسة ،

خاصة عندما وجدتني أقصد إلى شجرة التفاح وأحتمي وراءها . أنا في ناحية منها وتوتو في الناحية الأخرى بأسنانه اللامعة مثل خنجره ، ينط يميناً فأنط شمالا كأننا في لعبة حاوريني ياطيطا . لكن الشجرة لم تكن لتحميني طويلا ، ولذلك وجدتني أنطلق بآخر سرعة عندي نحو المركب قافزاً في طريقي على الحاج النائم ، احتميت وراء المركب القائمة على جنبها وعادت المحاورة من جديد . فبينما نحن كذلك إذ رأيت منظراً خيل إلى أنه غريب نوعاً ، منظر زازا التي انحنت على الأرض في آخر الجزيرة وراحت تنبش في الرمال . لكنني بالطبع لم أكترث بالأمر ولم أحاول متابعة حركتها ، مشغولا بالأهم وهو مراقبة توتو . إذ وثب فجأة عبر المركب فإذا به بجانبي ، لحسن الحظ أفقيا لا رأسيا ، قدمه اصطدمت في أثناء القفز بحافة المركب فانكفأ على وجهه .

— أحمد ! أحمد ! أحمد !

زازا تصرخ وهي مقبلة من آخر الجزيرة تجرى .

— إشقط يا أحمد ! صرخت حين اقتربت مني ، إشقط قوام !

وقذفت إلى شيئاً مددت يدي وشقطته دون أن عرف ماذا يكون ، جسم صلب فوجئت به بين راحتي ، مسدس الحاج طلبة يلمع بين يدي في ضوء القمر ، فما انتفاعي بمسدس لا رصاص فيه ؟

— المسدس محشي يا أحمد ! صرخت زازا بوحشية ، أنا كنت مخبية الرصاص !

فشعرت بالدماء تتدفق إلى رأسي كالنافورة ومعها ألف سؤال ، ولكن هل هذا وقت الأسئلة ؟ سؤال واحد صامت وجهته إلى المسدس وأنا أرفعه إلى أعلى وأضغط على الزناد ، فأجابني صوت الطلقة المدوية . صوت وقع في أذني ولا صوت مدفع الإفطار في أذن رجل صائم ، بعكس توتو الذي — وقد قام من سقطته — جمد في مكانه ووقف يحملق إلى في ذهول . مسدس محشو بالرصاص ومصوب إليه ، جدير به

أن يخيفه حتى ولو كان فى يدى أنا .

توتو يفكر فى الأمر ويقلب وجوه الرأى ، ثم ابتسامة صفراء تشيع فى وجهه وهو يتقدم نحوى ببطء باسطاً يده . مشهد قديم ذكره توتو ويريد اليوم أن يكرره معى باليد الممدودة والابتسامة الصفراء ، يظن الحمار أن أحمد اليوم هو أحمد الأمس .

— عندك ياتوتو ! قلت له بابتسامة حاولت أن أجعلها أكثر من ابتسامته اصفراراً، عندك! أنا موش بتاع زمان، آه، أنا واحد تانى!

فلو كنت حقا واحداً ثانياً فلماذا وجدتنى أتقهقر إلى الوراء ، ولماذا شعرت بذلك العرق البارد يتصبب على جبينى ؟

— إرجع يا توتو ! ارجع احسن لك !

لكنه لم يرجع ، ما برح يتقدم منى وأنا الذى أرجع .

— يا توتو ابعد احسن لك (قلت له بصوت متهدج) أنا موش عايز أقتلك ! إبعد عنى ياتوتو !

لكنه واصل تقدمه وقد تحولت ابتسامته من صفراء إلى معسولة كأنه يواجه طفلا صغيراً شقيا . فأدركت أننى قد وصلت إلى مفترق الطريق ، وإلى النقطة التى يجب أن أقرر فيها مصيرى بأجمعه . إنى أكره العدوان ولكن ما باليد حيلة ، فى بعض الأحيان يجب على الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته .

— ارجع ياتوتو ! أنا بانصحك لآخر مرة !

فواصل توتو الابتسام ، بينما رفعت أنا يدى اليسرى وأسندت بها اليمنى التى ترتعد بالمسدس . سأضغط على الزناد ولست مسئولا إذا استقرت الرصاصة فى مكان قاتل ، جدير بتوتو أن يدرك جهلى بالرماية . بل إننى أغمضت عينى حين صك سمعى صوت الرصاصة ، ومرت لحظة قبل أن أفتح — لكى أستكشف ما حدث — عيناً واحدة . وبها رأيت توتو واقفاً كما كان ولكن بغير ابتسام ، شفتاه تقلصتا

بعد الابتسام من الألم . وخطا إلى الأمام خطوة عرجاء ثم توقف ، رأيت على فخذه الأيمن شريطاً طويلا من الدم الأحمر . فذكرت ما قرأت عن خطورة الحيوان الجريح وتهيأت لإطلاق الرصاصة الثانية .

ــ أحمد ! (هتفت زازا) .

لكننى كنت قد تغيرت ، شىء غريب طرأ على روحى وفتح نفسى للدماء . رصاصة أخرى أقضى بها على توتو ، وربما ثالثة أقضى بها على الحاج طلبة أيضاً ، لم لا ؟؟ فأغمضت عينى من جديد حين سمعت صوت الرصاصة الثانية ؛ وفى هذه المرة فتحت العينين لا واحدة ورأيت توتو يترنح ويسقط على ركبتيه .

ــ كمل عليه ! كمل عليه !

صرخة غليظة وصلتنى من الحاج طلبة الذى فوجئت به واقفاً عن قرب ، فأعجبنى كلامه واقتربت من الرجل الساقط مصوباً فوهة المسدس إلى رأسه . صرخت فيه بصوت غريب على أذنى :

ــ أكمل عليك ؟ أكمل عليك يا كلب ؟ !

فرأيت شفتيه ترتعدان بشدة وسقط على الأرض ممدود الساق إلى الأمام . بيديه اتكأ على الأرض وراح يتقلقل إلى الوراء زاحفاً على مؤخرته ، صورة مجسمة للرعب الذليل .

ــ أكمل عليك يا وسخ ؟ ! (قلت له وأنا أتابعه بفوهة المسدس) .

ولست أدرى لماذا أحسست بأنى يلعب من نفسه فى وجهى ويتلوى يميناً وشمالا ، بينما راقبت توتو فى تقهقره الذليل وهو يرتعد ويلهث .

فإننى لأهم بالضغط على الزناد إذ فوجئت بزازا تهجم على وتضمنى إليها .

ــ أحمد ! (صرخت زازا فى رجاء) أحمد ! إنت ح تعمل زيهم ؟

فكأنما صبت على دماغى جردل ماء ساقع ، فاضت نفسى فجأة

بالخجل الشديد من نفسى . فوقفت لحظة أصوب إلى توتو نظرة أخيرة قاسية ، ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، نافشاً بجهد استطاعتى ما أتيح لى من عضلات . وزيادة فى إظهار ثباتى مددت يدى إلى الشجرة وقطفت تفاحة ، رحت أقرشها وأنا أتلفت حولى فى انتصار .

ومن هناك رأيت توتو يميل إلى الوراء معتمداً على كوعيه ، ثم ينزع الكوعين ويتمدد على ظهره متقززاً . ورأيت زازا تتناول ذيل قميصها وتنزع منه قطعة جديدة ، تحول القميص فعلا إلى « بيبى دول » . وصوت شهيق عميق سمعته يتسلل إلى صدر الحاج طلبة ، ذلك الشهيق الذى حبسه فى صدره كما فعل من قبل متهيئاً لصرخته .

— حى ! (صرخ الحاج طلبة بجنون) حى ! حى ! حى !

وترنح فجأة ثم سقط من طوله كالقتيل .



الفصل الثالث والعشرون

نام توتو بعد أن أتمت زازا تضميد فخذه ، وبخلو جسمه من أى جرح آخر فهمتنا أن رصاصتى الثانية قد طاشت . ثم واجهتنى زازا بنظرة غاضبة .

— والله لو عارفة انك كده ما كنت طلعت الرصاص !

— عارفة انى إيه ؟ سألتها متجاهلا .

— إنك قتال قتلة ! موش كفاية رصاصة واحدة ؟ عاوز تموت الراجل ؟ — تبقى بايخة فعلا ، مين يصطاد لنا سمك ؟

— يا سم !

فبدأت أنا أغتاظ .

— كنت عايزانى اسيبه يدبحنى ؟ — لأ ، بس كفاية تخوفه .

— مارضيش يخاف . ماحدش بيخاف منى .

— أنا زهقت قتل وضرب ! وزهقت تنشيف دم ، وربط جروح ! نظرت إلى قميصها ورفعت حاجب المجون الأيسر .

— ولو ان العملية دى لها فوايدها (قلت لها) قميصك بقى أحلى م الأول بمراحل !

لكنها لم تكن فى تلك النوبة .

— زهقت خناق ! (كررت باشمئزاز) زهقت وقرفت !

— والله وانا زهقت اكتر منك .

فأشارت إلى توتو النائم قائلة : « وموش قادرة افهم ده يتغير ده ازاى ؟ فاكر زمان كان طيب أد إيه ؟

— فعلا (وافقتها) غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— م اللى شافه منهم (قالت بحرقة) عذبوه ولاد الكلب !

فنظرت إلى الحاج وبدأت أملأ صدرى بشهيق عميق .

— حى ! (صرخت أقلده) حى ! حى !

فراحت زازا ترمقنى حيناً فى غيظ ، ثم اهتز صدرها بضحكة . وبدأ عقلى يتجه إلى ناحية أخرى ، إذ أننى وإن كنت قد صرت بالنسبة للقتل أحمد جديداً فمازلت بالنسبة للحب أحمد القديم .

— تسمحى تقعدى ؟ وأجلستها فجلست وأنا بجانبها .

— عارفة ان دمك كان خفيف قوى وانتى خايفة ؟ فلم تجب .

— مالكيش نفس تستخبى تانى ؟

— أستخبى من إيه بقى ؟ الاتنين نايمين زى الأموات !

— والتالت معدته طالعة لبرة . يا ترى اتحلل ولا لسه ؟

— بلاش قرف ! — متأكدة انك موش عايزه تستخبى ؟

— آه . — طب أنا عايز استخبى ، قلت مداعباً .

— لا يا شيخ ؟ — والنبى لتخبينى ، أصلى خايف قوى .

ومددت يدى نحوها فدفعتها ، لكننى مددتها ثانياً .

— يا سلام يا احمد . — قوليها تانى .

وتناولت وجهها بين راحتى ورحت أنظر فى عينيها ، أغوص فى البحيرتين الزرقاوين الصافيتين . بيدى مسحت على شعرها ، وبأننى نهلت من عطرها .

— آربيج من قبل ما تسأل ! (قالت بشقاوة) .

وفى عينيها أيت نظرة عرفت منها أنها قد عادت زازتى ، وكما لاذت بى منذ حين لذت أنابها ، خبأتنى بين أحضانها طويلا .

وأشرقت شمس الصباح على جثتين لا جثة واحدة كالأمس ، وشعاع دافئ سقط على توتو فتململ حيث رقد ثم تحامل على يديه واستوى جالساً . ممدود الساقين راح يتطلع بخوف إلى فخذه المربوط



وكان منتفخاً وارماً. ثم نظر إلى قابلته بوجه رسمت عليه كل ما عندى من الصرامة ، لكى أفهمه أننى مازلت ذلك السفاح الجديد ، وفى الوقت نفسه تحسست المسدس الذى كنت قد علقته فى أستك بنطلون البيجامة . فخفض بصره إلى فخذه وشرع يحل الرباط ، رأيت جرحاً متقيحاً وفخذا محتقناً ينذر بالخطر .

— يا عينى (قالت زازا فى هلع) ده الجرح اتوسخ .

— آر ! (قال توتو بصوت مهدج) . — آر ؟ (سألته) .

— آر ، أجابنى .

وأشار إلى صخرة صغيرة على الأرض وشرع يضرب قبضة بأخرى ويقول آر . — يكونش قصده نار ؟ (تساءلت زازا) .

فأومأ توتو برأسه عدة موات مصدقاً ، فناولته زازا حجرين ووضعت أمامه بعض الأعواد الجافة ، سرعان ما كان قد أشعل النار .

— أنجر ! صاح يشير إلى الخنجر .

فترددت لحظة ثم قذفت إليه بالمذكور وأنا أتحسس مسدسى ، مد توتو النصل اللامع فوق النار وشرع يسخنه .

— يا خبر اسود ! هتفت زازا فى فزع ، ده باينه ح يعمل لروحه عملية !

— له حق ، أجبتها ، الرصاصة لازم تطلع . — لكن ده ح يعور نفسه .

— هو حر ، الجرح جرحه والفخد فخده .

وسحب توتو الخنجر من النار متوهج النصل أحمر ، وما لبث أن أدناه من فخذه بيد ترتعد . لحظة من التردد ثم دس السن المتوهج فى الجرح ، سمعت النار تطش فى لحمه وانبعثت منه صرخة ألم . وصرخة أخرى كادت تنطلق من زازا لولا أنها سدت فمها براحتها ، مشيحة بوجهها كى لا ترى المشهد الرهيب . وكذلك فعلت أنا ،

ومن ورائى سمعت زفرات متلاحقة تنبعث من توتو وهو يجرى العملية . زفرات أليمة وشهقات ، وأنا أتخيل المنظر فأرتعد من مجرد الخيال .

— تزاتزا ! (قال توتو بعد حين بصوت جريح) تزاتزا !

فالتفتنا لنرى دماء غزيرة تغطى فخذ توتو ، وفى نفس الوقت رأينا فى يده رصاصة صغيرة . فأسرعت زازا بنزع قطعة جديدة من ذيل قميصها — هذا القميص سيصبح ذات يوم بلوزة ! — وانحنت فربطت الجرح لتوقف التزيف ، وكان توتو يرتعد من رأسه لقدمه ، أمر طبيعى بالنسبة لرجل أجرى لنفسه عملية جراحية وبدون بنج . فبينما زازا تربط له الجرح رأيته يرتجف بشدة ، وعرق غزير تصبب على وجهه وصدره ، فأصارحك القول بأنه صعب على ، قلت لنفسى هذا الرجل يحتاج إلى لباس يدفئه . فما هى إلا لحظة حتى كنت قد خلعت فانلتى . خذ ! (قلت له بكراهية مصطنعة) خذ جتك البلا !

وقذفت إليه بالفانلة فتلقفها فى فرح ، سرعان ما كان يحشرها بالعافية فى صدره العريض . فلما أنهت زازا عملها رأيته يستلقى على ظهره وهو يلهث ، نحواً من خمس دقائق وهو يتململ ثم سكنت حركته وبدا أنه استغرق فى النوم .

توتو نام والحاج طلبة صحى ، جلس يتلفت حوله فى عباطة ثم حاول أن يحرك ذراعه فتقلص وجهه من الألم . لكنه تماسك وواصل تحريك ذراعه من عند الكتف فى دوائر صغيرة لكى تلين عظامه . وبينما يفعل ذلك يواجهنى بعينين غائمتين فيهما نظرة غريبة ، من خلال وجه مغضن كاد يتوه وسط شعره المتهدل ، ولحيته الكثيفة البيضاء التى طالت وتدلت وكادت تلامس الأرض . كأن عمره مائة سنة ، أو كأنه واحد من أهل الكهف صحى للتو من نومه الطويل . نفس النظرة الغريبة صوبها إلى توتو النائم ، ثم نقلها إلى زازا ، يتفحصنا طويلا

كأنه يريد أن يذكر من نكون . ثم اعتمد بيديه على الأرض وجاهد لكى يقف ، ترنح حيناً ثم اعتدل وبدأ يمشى . كطفل يتعلم المشى سار الحاج طلبة عدة خطوات ، مقوس الظهر يتفحص الأرض قبل كل خطوة ، جلبابه مثل خيمة واسعة حول جسمه الذى ضمر . وإلى الجرة قصد فرفعها فوق فمه وراح يشرب ، ثم اتجه إلى شجرة التفاح فقطف واحدة ووقف يقرشها ، مواصلا تفحصه لنا بتلك النظرة الغريبة الغائمة .

فتنهدت وقصدت إليه ؛ وسألته مجاملا : « ازى كتفك يا حاج » ؟

فوقف يحملق إلى فى ذهول كأنه لا يعرفنى .

— كتفك طاب يا حاج ؟ (أعدت سؤالى) .

فواصل حملقته إلى ثم سعل . — الحمدلله ؛ الحمدلله! (أجاب أخيراً) حتى صوته ذبل وصار أشبه بالحشرجة .

— الحمد لله ، ردد الحاج كلمته بضعف وهو يشيح عنى بوجهه . ثم أولانى ظهره وقصد إلى الشاطئ ، جلس يستعرض البحر بنظرة طويلة شاردة . فعدت إلى زازا التى جلست بجانب توتو تتأمله وقد وضعت يدها على خدها .

— صعبان على قوى ، (قالت بمرارة) ، قوى .

وعلى انا كمان ، بس هو اللى جاب الأذية لنفسه .

— مع إنه كان زمان مافيش اطيب منه .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

علامتان فيما أذكر رسمتهما على جذع الشجرة قبل أن يزول الورم عن فخذ توتو . ثم أصبح يوماً بادى النشاط وراح يثنى ساقه المصابة ويفردها ، ومد يده إلى زازا كى تساعده على الوقوف . وقف أول الأمر على ساقه السليمة رافعاً الأخرى فى الهواء ، ثم أنزلها برفق ليلمس بها الأرض . فما كاد يعتمد عليها حتى بدا الألم على وجهه ،

لكنه تماسك وخطا بها إلى الأمام خطوة عرجاء . من بعيد وقفت أرقبه فى حذر ويدى على المسدس ، إذ خطا خطوة جديدة عرجاء تلاها بأخرى نصف عرجاء ، ثم بثالثة غير عرجاء ، عادت ساقه إلى ما كانت عليه من قبل رصاصتى . فظللت واضعاً يدى على المسدس وأنا أرقب حركته ، إذ أنه كان يقترب منى ببطء . وصل إلى مسافة خطوتين منى ثم وقف يتفرس فى ، لحيته هو الآخر قد طالت وفى شعره المتهدل ظهر كثير من الشعر الأبيض . فى صمت وقف ينظر إلى بعينين سوداوين براقتين، وسط وجهه الذى مازال فيه أثر من الكدمات. وفجأة تحركت شفتاه وانفرج فمه عن ابتسامة لمعت خلالها أسنانه البيضاء ، أول ابتسامة لتوتو منذ زمن طويل . فترددت حيناً ثم رددت ابتسامته بابتسامة جانبية صغيرة ، ولم أنس أن أرسم فى عينى معنى التحدى ليعرف أن أحمد الجديد مازال أحمد الجديد . وفجأة رأيته يمد يديه إلى فانلتى ليخلعها ، خلعها وقدمها إلى بنظرة امتنان . فتناولتها ولبستها ، كأننى لبست شوالا لا فانلة .

— أنجر ! قال توتو وهو يمد يده باسماً .

فلما رأى ترددى أشار إلى البحر قائلا « أملك » يعنى ، سمك . وعند ذلك زال ترددى وقد أسالت السيرة لعابى ، فناولته الخنجر ونزل يصيد السمك . فلما صاده شواه وناديناا الحاج طلبة لكى يشاركنا الطعام . تردد أول الأمر ثم جلس يأكل فى صمت ، شارداً غائم العينين عجوزاً ، فتافيت السمك وأشواكه تعلق بلحيته البيضاء فلا ينتبه إليها . أخرجت له أنا شوكتين ثم زهقت .

— دقنك بعد الأكل عايزه تنفيض ! قلت له مازحاً .

وبالرغم من أنه لم يضحك ، رأيت أن أواصل مداعبته .

— فاكر زمان يا حاج ؟ كان معانا واحد يحب ياكل السمك لوحده !

فواجهنى حيناً بتلك النظرة الغائمة ، ثم لمعت في عينيه فجأة نظرة أخرى فيها الكثير من شقاوة الأطفال . ورفع يده النحيلة وقد مد سبابته نحوى ، ببطء مدها لينخزنى بها ما بين الضلوع .

— قول يا باسط ! (قال بصوت ماكر ، وابتسامة شاعت وسط غضونه ولحيته) .

— دمه بقى خفيف قوى (قلت لزازا بالإنجليزية) . ثم التفت إلى توتو وقلت : « ولا عاوزنى اتكلم عربى ؟ »

— أربى ! (قال توتو ضاحكاً وهو يشير إلى قبر كرشة) .

وانتهينا من الأكل فوقفت زازا أمامنا كجنية بيضاء ، وضربت بيديها على فخذيها فى شقاوة وهتفت بحماس : « تيجو نلعب مساكة ؟ ! وانطلقت تجرى قائلة إن الشاطر من يمسكها ، فلم أكذب خبراً . أسرعت وراءها وهى تجرى هنا وهناك ضاحكة ، فلما أمسكتها كان من الطبيعى أن أقبلها . وكان هذا دورى لكى أجرى أنا وهى تمسكنى ، فلما أمسكتنى قبلتنى . وبدا على توتو أنه فهم أصول اللعبة فانطلق بدوره يجرى ويدعونا إلى اللحاق به ، فلاحقناه وأمسكناه وضحكنا حين أشار إلى خده مطالباً بقبلة .

ثم خطرت لزازا فكرة جديدة .

— تيجوا نتفسح فى المركب ؟ — أركب ! (قال توتو بسرور) .

— يالله يا احمد .. فرفعت يداً معترضة حازمة .

— لا يا ستى ، أنا موش فاضى للفسحة . ورايا شغل .

— شغل إيه ؟ — ح اقعد اكتب .

— إيه ؟ !— أكتب ، ماتعرفيش اكتب يعنى إيه ؟

— تكتب إيه يا أخينا ؟ أكتب قصة .

— قصة ؟ ! (صرخت فى استنكار) .

— آه قصة ، كتير على اكتب قصة ؟

— تكتبها لمين بقى ؟؟ سألتني ساخرة .

— للأجيال القادمة ، أجبتها بكبرياء .

فوقفت حيناً تشويني بنظرة استهزاء ثم التفتت إلى توتو .

— يالله بينا احنا ياتوتو .

وانطلقت تجري كالغزال الشارد ووراءها توتو ، قفزاً إلى المركب وانزلقا بها على الماء . وبالنظر إلى أن توتو لا يعرف التنكيت فلست أفهم سر تلك الضحكة العالية التي انبعثت من زازا .



الفصل الرابع والعشرون

ذلك أنى شعرت فجأة بأن الوقت قد حان لكى أشرع فى تدوين قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة الفذة . نعم يجب أن أكتبها وأن أعمل على وصولها إلى إخوتى من البشر ، لعلهم يتعظون بها إن هم وجدوا أنفسهم ذات يوم فى جزيرة مثلها . فقصدت إلى الحاج طلبة حيث جلس يسبح وجلست قبالته .

—إلا قول لى ياحاج ، (سألته باسماً) يا ترى دفتر الشيكات لسه معاك ؟ فومضت فى عينيه نظرة حادة وهو يدمدم بالصلوات .

— دفتر الشيكات ؟ ! (سألنى بعد حين بريبة) .

— آه (أجبته وأنا أنتزع من لحيته شوكة) . — ليه ؟

— أصلى عايز اكتب عليه .— تكتب ؟ !

— آه ، أكتب . — تكتب إيه ؟

— أكتب قصة . — قصة ؟ !

لست أدرى لماذا لا يصدق أحد أنى أستطيع أن أكتب قصة .

— أيوه يا سيدى (أجبته بملل) قصة . — قصة إيه ؟(قال ملحاً) .

— قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى هذه الجزيرة الفذة . فواصل تحديقه فى ثم بدا الغيظ فى عينيه .

— ما عنديش دفاتر ! قال فجأة بجفاء ، فدهشت .

— ليه يا حاج ؟ إنت لسه عايز منه حاجة ؟ — ما فيش دفاتر !

فاغتظت ، وقلت وأنا أتحسس المسدس :

— يا حاج اعقل . إنت موش عارف أنى أقدر آخده منك بالعافية؟

فلم يجب ، راح يزغر لى بكراهية واضحة .

— هات الدفتر يا حاج ، ماتبقاش رذل !

ومن سكات مددت يدى إلى جيبه أتلمس الدفتر ، فد يده يريد أن يمنعني . لكنه ما لبث أن استسلم ، تركني أدس يدى فى جيبه وأسحب الدفتر ، وأضفت : « والقلم لو سمحت » .

فتردد لحظة ثم أخرج القلم وناوله لى .

— مرسى يا حاج ، (قلت له بابتسامة صفراء) وما تخافش موش ح اكتب شيكات . وهممت بأن أنهض ثم ذكرت أمراً .

— على فكرة يا حاج الشيكات دى لها رصيد بحق وحقيق ؟

— إمال يعنى نصاب ؟ ! قال بغضب .

— طب ماتزعلش ، قول يا باسط .

وتركته وقصدت إلى شجرة التفاح ، جلست تحتها أبرى القلم بالخنجر ، جاعلا سنه أرفع ما يكون لكى يساعدنى على الكتابة بأصغر خط عندى . فالشيكات محدودة والقلم نفسه صغير ، أخشى أن ينفد هذا أو ذاك فأعجز عن مواصلة الكتابة وتنتهى قصتى بسؤال لا جواب له . فما كدت أشرع فى الكتابة حتى برزت لى مشكلة أخرى هى ماذا أكتب ؟ إننى لم أكتب أية قصة فى حياتى ، فكيف يبدأ كتاب القصص قصصهم ؟ أين لى بالأساليب الأدبى أنا المهندس الذى لم يكتب شيئاً سوى التقارير الهندسية ؟ لكننى يجب أن أحاول ، ويجب أن أنجح . بدأت بوصف منظر غرق السفينة وكيف أنقذتنى زازا ، ثم منظر تعلقنا بالخشبة الطافية والكلام الذى قلناه فى ضوء القمر ، أصارحك القول بأنى بدأت أعجب بأسلوبى . ساعة كاملة وأنا أكتب فى نشوة أدبية ممتعة .

— إنت لسه بتكتب ؟ (فوجئت بصوت زازا التى عادت من الفسحة) . — آه ، أجبتها بإيجاز .

— طب ورينى كتبت إيه . — لأ .

لكنها اختطفت الدفتر من يدى قبل أن أستطيع منعها وجلست

تقرأ . فراقبتها فى خوف من أن تسخر من كتابتى لكنها لم تفعل ، ما كادت تقرأ الشيك الأول حتى بدا عليها الاهتمام وابتسمت فى سرور . كلما أمعنت فى القراءة زاد اهتمامها ، شعرها يتهدل على الشيكات فتزيحه بيدها وتواصل القراءة . ومرة رأيت صدرها يهتز بضحكة مطربة ، سعادة فائقة غمرتنى وقد نجحت فى إثارة إعجابها .

— الغريبة انت فاكر كل كلمة قلناها (قالت ضاحكة) .

— ودى يا بنتى حاجات تتنسى ؟

— إلا واحنا واقفين عند الشجرة وانت ماسك لى المراية .

— وكان قميصك منشور بينشف (نبهتها) .

فواصلت القراءة حتى أنهت ما كتبت ، ثم واجهتنى بنظرة إعجاب صريح وقالت : « تعرف انك شاطر قوى فى الكتابة ؟ » .

فأحسست بوجهى يتورد .

— موش قوى ، قلت بتواضع . — وشك احمر !

— هاها .

ومالت على فقبلتنى ، وعندئذ فهمت لماذا يتخصص بعض الناس فى العمل الأدبى . وأسندت زازا رأسها إلى جذع شجرة التفاح وتطلعت إلى الدنيا بابتسامة مشرقة .

— موش عارفة انا سعيدة كده ليه ، سعيدة قوى قوى .

— والله ومن سمعك . — متهيأ لى انى أسعد من اللازم (أضافت) .

فرفعت حاجب الفلسفة الأيمن .

— الواحد عمره ما يكون أسعد من اللازم ، أتعس من اللازم معلهش . لكننى كنت أشعر فى داخلى أننى أنا الآخر أسعد من اللازم ، فكم من الناس أتيح لهم أن يستمتعوا بهذا المزيج النادر من الحب والحرية والفلسفة ؟ ثم سمعت زازا تتنهد وتتصعب ، سرحت ببصرها كالحالمة

إلى الشمس التى تنحدر عند الأفق .

— مالك ؟ سألتها . — لسه برضه ناقصنى حاجة ، عارف إيه ؟

— إيه ؟ — ولد ! — إيه ؟ ! — ولد .

— ولد ؟ !

— أيوه ، ولد أو بنت ما فيش مانع . حتى ولد وبنت يبقوا أحسن ! فخطرت لى أفكار كثيرة لكننى احتفظت بها لنفسى مكتفياً بالنحنحة .

— بس محتارة اسميه إيه ؟ — الولد ؟ — آه . فابتسمت ساخراً .

— الأسامى كتير ، عندك أحمد وطلبة وتوتو وكرشة !

— لا يا شيخ ، والنبى ؟ . وسكتت وشردت نظرتها إلى الأفق من جديد .

— أحمد (خاطبتنى بعد حين) . — قوليها تانى .

— بلاش دلع وقول لى ، ماعندكش أى أمل ان المركب تشتغل ؟

— المركب بتشتغل بس البحر ما بيحبش المراكب .

— أصلى الأيام دى نفسى أطلع من هنا قوى .

— سبحان الله ! بعد الحكاية ماهديت عاوزه تطلعى ؟

ففتحت فمها لتقول شيئاً ثم عدلت .

— كنتى ح تقولى إيه ؟ — ولا حاجة . إنت لازم تفكر شوية يا احمد .

— أفكر ؟ — آه ، فى طريقة نطلع بيها من هنا .

— العبد فى التفكير . — أصل أنا جت لى فكرة .

— إيه ؟ — واحنا غرقانين فى البحر انا وانت ، موش سمعنا فوقنا صوت طائر ؟

— حصل ، وكاتب عنه فى القصة . — الطائر ده راح فين ؟

— إيش عرفنى ؟ — شفناه فى الجزيرة هنا ؟

ــ لأ . ــ يبقى لازم راح حتة تانية . يبقى فيه بلاد تانية قريبة من هنا .
فسكت أستوعب كلامها واعترفت لها : « ساعات يطلع منك كلام معقول » .

ــ ومادام فيه بلاد قريبة (استرسلت) يبقى ممكن نوصل .

ــ نظريا . ــ بصفتك مهندس لازم تشوف لنا طريقة .

ــ كرشة قال لى « اطفو عليك مهندس ! » ثم أنا خلاص قررت اسيب الهندسة واتفرغ للأدب ! فرمقتنى لائمة .

ــ والنبي تفكر جد يا احمد ، عشان خاطرى أنا .

ــ حاضر يا ستى (قلت مستسلماً) أفكر .

فابتسمت فى رضاء حيث استندت إلى جذع الشجرة ، عينها ما برحت شاردة إلى الأفق الذى اكتسى بحمرة الشفق .

ــ مافيش فايدة (قالت بعد حين) موش عاجبنى ولا إسم .
فصوبت إليها نظرة ماكرة .

ــ قبل ما نفصل البدلة ، سألتها ، موش نحضر اللى يلبسها ؟

وابتسمت لها فابتسمت لى ، هناك حيث جلسنا تحت شجرة التفاح . ظلال المساء الزاحف تنتشر حولنا ، وشبح للحاج وهو يصلى العشاء ويتهيأ للنوم ، وتوتو جالس عند الشاطئ البعيد ينظر إلى البحر . وقرص فضى بزغ عند الأفق الشرقى ، وإذا بصوت تينور جميل يداعب آذاننا ، صوت توتو وهو ينشد أغنية جميلة غامضة .

ــ تمام زى زمان ! (قالت زازا ضاحكة) ــ زى زمان واحسن .

ــ إشمعنى ؟ ــ المسدس معايا أنا .

ــ إنت بتحب المسدس ؟ ــ أكرهه عمى ، لكن ما باليد حيلة .

فشاعت فى وجهها ابتسامة ماكرة . ــ بتضحكى ليه ؟ (سألتها) لكنها لم تجب على سؤالى . ثم قالت برقة : أحمد .

ــ قوليها تانى ــ بتحبنى ؟ (سألتنى) . فأجبتها .

الفصل الخامس والعشرون

ما كادت الشمس تشرق حتى أخرجت الورق والقلم وعكفت على الكتابة . من الصبح للظهر وأنا أكتب ، رفضت كل العروض التى حاولت زازا أن تغرينى بها . رفضت أن ألعب المساكة أو أنزل للسباحة . ورفضت لعب السيجة أو الحجلة أو كيكا ع الواطى مع أننى شاطر فى الأخيرة جداً . بل إننى رفضت أن أقوم للغداء قائلا إننى سآكل وحدى فيما بعد .

— يا أخى قوم كل قبل السمك ما يبرد ، قالت زازا بإلحاح . فنظرت إليها فى أنفة .

— ليس بالسمك وحده يحيا الإنسان ، أفهمتها .

وواصلت الكتابة كالمحموم ، لم أتوقف عنها إلا عدة دقائق لكى آكل سمكتى ، لم يهمنى أنها باردة . بل إننى لم آكلها إلا لما فى الفوسفور من فائدة لخلايا الفلسفة بالمخ .

— طب قوم نتفسح فى المركب ، اقترحت زازا .

— اتفسحوا انتم ، أجبتها بحزم .

— يا ساتر ! إنت ركبك عفريت ولا إيه ؟ — تقريباً .

فومضت فى عينها نظرة ماكرة .

— تعال نتفسح فى المركب انا وانت لوحدنا !

فأعجبتنى الفكرة لكننى تماسكت .

— ليس بالفسحة وحدها يحيا الإنسان (أجبتها بإباء) . — يا سم !

— أصل فيه حاجة مانتش فاهماها . أنا اكتشفت انى موش بس باكتب قصة ، لأ ، أنا باكتب فلسفة كمان .

ـــ فلسفة ؟ ! ـــ آه ، باتفلسف يعنى ، فهمتى ؟

فوقفت حيناً تلسعنى بنظرة ساخرة . ـــ طيب ياخويا ، اقعد اتفلسف! وتركتنى وانطلقت إلى المركب ووراءها توتو ، قفزا فى المركب وانزلقا بها على الماء ، لست أدرى ماذا يفعل ذلك الوغد لكى ينتزع منها تلك الضحكة العالية . كالأمس لم أتوقف عن الكتابة إلا عند حلول الظلام ، ومع شروق الشمس عاودتها .

ـــ دى ما كانتش قصة ! (قالت زازا مستنكرة) .

ـــ تاخدى تقرى ؟

ـــ لأ ، وسيبها شوية لأنى عايزة اكلمك فى حاجة مهمة .

ـــ أهم م القصة دى ؟

ورأيت فى عينها نظرة جادة فنحيت الورق وأنصت . نظرة فرح غامر لمعت فى عينها وهى تدنو بوجهها من وجهى وتضع فمها على أذنى .

ـــ أنا ح اولد يا احمد ! همست بفرح كالطفلة) ، ح اولد !

فذعرت ، ثم ابتسمت .

ـــ عارفة انا افتكرتلك قلتى إيه ؟ ـــ إيه ؟

ـــ إنك ح تولدى .

ـــ سبحان الله ، ما هو ده اللى قلته ! ـــ يا نهار اسود ! (هتفت فى ذعر) .

ـــ إسود فى عينك ! دنا فرحانة بشكل ! حاسة انى ح اطير من الفرح !

ـــ تبقى مجنونة . ـــ ليه ؟

ـــ دى جزيرة حد يولد فيها ؟ تربى العيال ازاى ؟

ـــ ما يهمنيش . كفاية أنى أولد وخلاص !

وبسطت ذراعيها حولها تريد أن تحتضن الوجود .

ـــ يا سلام ، قالت حالمة ، دنا لو جانى عيل كنت اعبده ! كنت

أبوس الأرض تحت رجليه ! فرمقتها بازدراء قائلا :

— حاجة موش صحية بالمرة ، وبقك يتملى رول .

فلم تجبني ، فرحتها قد استغرقتها إلى درجة مزعجة جداً .

— ثم انا متهيألى انك ناسية حاجة صغيرة ، أضفت بخبث .

— هى إيه ؟

— ناسية أنك ولا مؤاخذة موش متجوزة ! موش الحاج طلبة طلقك ؟

— طب مانا عارفة . إمال انا باقول لك الكلام ده ليه ؟

— ليه ؟ — علشان نصلح الحكاية دى .

فلعب الفأر فى عبى .

— نصلحها ازاى ؟ (سألتها بريبة) . — ح يكون ازاى ؟ بإنك تتجوزنى طبعاً !

— أنا ؟! (هتفت فى ذعر) . — طبعاً ، (أجابت ببساطة) .

فترددت لحظة ثم قلت أخيراً : « طب واشمعنى انا ؟

فزغرت لى قائلة : « بتقول إيه ؟ »

— قصدى يعنى ...

— قصدك إيه ؟ عايز ابنى يطلع مالوش أب ؟! يعيش ازاى فى وسط الناس ؟ فتلفت حولى .

— موش شايف أى ناس حوالينا !

— الناس اللى ح يعيش فى وسطهم بعد ما نرجع .

— إنتى خلاص قررتى اننا ح نرجع ؟

— طبعاً ، إنت موش وعدتنى انك تفكر ؟! . فضحكت .

— أشكرك على الثقة الغالية ! بس لسه ماخدناش موافقة البحر .

— العقل أقوى من البحر (قالت بكبرياء) .

— حلوة دى ، لازم حافظاها من حوار فيلم ، ومقتبس كمان !

— موش عايز تتجوزنى قول ! أنا فيه ألف من يتجوزنى ، آه .

وكان فى كلمتها الأخيرة زفرة بكاء ، ورفعت يدها إلى عينها لتمسح دمعة غير موجودة ، ثم أشاحت عنى بوجهها ملوية البوز . ففكرت فى كلامها ووجدته صحيحاً ، من الحمار الذى يرفض الزواج من زازا ؟ وأنا بالذات ألست مديناً لها بحياتى ؟ ألم تنقذنى زازتى من الموت ثلاث مرات ؟

— حبيبتى زازا (قلت لها برقة) عقد جوازك للحاج فين ؟

— وانت مالك ؟ (قالت غاضبة) .

— عايز اشوف صيغته عشان انقلها . فالتمعت عيناها فرحاً .

— إذا كان ع الصيغة انا حافظاها ! طب مليهالى .

— صحيح يا احمد ؟ ! صحيح ح تتجوزنى ؟ — أيوه ياستى ، أمرى لله .

— حبيبى أحمد ، قالت وهى تقبلنى ، إنت أنبل راجل شفته فى حياتى ! — مرسى ! قلت ساخراً من نفسى .

وأخرجت شيكاً فكتبت عليه الصيغة بإملاء زازا ، ذلك الشيك الذى وقعته وأسلمته لها فدسته فى صدرها . ثم تنهدت كمن تخلص من حمل ثقيل ، أسندت ظهرها إلى الشجرة وفى عينيها نظرة حالمة . فرحت أنا أفكر فى الداهية التى حلت بى ، والمصيبة التى ترصدنى فى جوف زازا . هل كان ينقصنى طفل لعين يقلقنى بصراخه ويستأثر دونى باهتمام زازا ؟ وكيف ينمو طفل فى هذه الجزيرة المسحورة ؟ هل ينمو ببطء كسائر الأطفال أو يتحول فى أسابيع — على إيقاع ساعاتنا المجنونة — من طفل إلى غلام إلى فتى يافع ؟ فإذا طالب هذا الفتى اليافع بالأنثى فأين هى ؟ وإذا كنا فى ذلك الوقت قد شخنا ووهن العظم منا ، كيف لنا أن نلم هذا الفتى الأهوج الذى لا نال تربية ولا دخل مدرسة ؟؟

ــ زازا ، قلت لها فى لهفة ، إحنا فعلاً لازم نخرج من هنا .

ــ موش باقول لك ؟ ــ لكن ازاى ؟

ــ فكر . وعلى بال ماتفكر أكون خدت لى حمام .

ونهضت فجأة وانطلقت تجرى إلى البحر ، كجنية بيضاء ألقت بنفسها بين أحضانه . فرفعت يدى أهرش رأسى فى حيرة وارتباك ، أطول أظافر تعبث بأطول شعر لعريس تزوج من دقيقتين .



الفصل السادس والعشرون

أنهت زازا حمامها فأتت وجلست أمامى تسرح شعرها فى المرآة التى أرفعها أمام عينيها ، بنسبة شعر تمسكها بين أسنانها . سألتنى والبنسة تهتز بين شفتيها : « فكرت ؟ » — فى إيه ؟ — فى طريقة نخرج بيها؟

— لا والله لسه !

فنزعت البنسة ورشقتها فى شعرها ، ثم تمددت على الرمال تأخذ حمام شمس . استلقت على وجهها مودعة خدها على يدها ، مسبلة العينين كقطة رومية نعسانة . المرآة فى يدى أفكر فى أن أنظر فيها لكننى أخاف ، إذ أعرف أى منظر سأرى فيها . لكننى ما لبثت أن تجرأت وأدرتها إلى وجهى ، فوالله كدت لا أعرف نفسى فى هذا الوجه الرهيب . شعرى الذى شاب أكثر من نصفه ، ولحيتى الكثيفة الشعثاء ، وغضون حول العينين لا أذكر أنها كانت هناك قط . سألتها بيأس : زازا ، بذمتك بتحبينى صحيح ؟ ففتحت عينيها وابتسمت . « طبعاً يا حبيبى »

فهززت رأسى متعجباً : « ذوقك غريب جداً ! »

وأبعدت المرآة عن وجهى وقلت لنفسى اننى قطعاً يجب أن أهرب من هذه الجزيرة . لو بقيت هنا شهراً آخر لوجدتنى أقطع من شجرة التفاح غصناً أحوله إلى عكاز ، مقوس الظهر أقبل زازا بفم لا أسنان فيه .

— عارف إذا جالى ولد ح اطلعه إيه ؟ قالت زازا بلهجتها الحالمة .

— إيه ؟ — عالم .

— فى الأزهر ؟

ــ لأ ، فى البيولوجى . ــ إشمعنى البيولوجى ؟
ــ إسمها حلو . ــ بس كده ؟
ــ آه ، وعلى فكرة ، إيه الفرق بين البيولوجى والفسيولوجى ؟
ــ البيولوجى تعلمنا ليه بنعيش ، والفسيولوجى تعلمنا ليه بنموت .
فرمقتنى بنظرة فاحصة .
ــ موش بطالة الكلمة دى . ــ وانتى سمعتى حاجة ؟ دنا عندى كلام كتير ، بس ماحدش ساب لى فرصة اتكلم .
ــ فعلا ، طول الوقت ــ وأنت بتجرى ! ــ وانتى بتربطى فى جروح .
ــ مع إننا كان ممكن نعيش مبسوطين .
فهممت بأن أعلق على كلمتها لولا الشىء الذى فوجئت به يسقط على دماغى ، تفاحة حمراء طابت واستوت فسقطت من الشجرة وحدها . فتناولتها وأنا أضحك .
ــ بتضحك ليه ؟ سألتنى زازا . فكرتنى بتفاحة نيوتن .
ــ يطلع مين نيوتن ده ؟
ــ واحد عالم ، تفاحة زى دى وقعت على دماغه طلع منها بفكرة الجاذبية . ــ الجاذبية ؟! .
ــ آه . ــ الجنسية ؟
ــ لأ ، الأرضية . ــ طب قشرها لى .
وبينما شرعت أقشر التفاحة زحفت زازا إلى ظل الشجرة وتمددت على ظهرها عاقدة يديها تحت رأسها .
ــ وتبقى شاطر إذا قشرتها قشرة طويلة ملولوة . ــ ملولوة ؟
ــ آه . ــ وتدينى إيه ؟
فطت بوزها وطرقعت بقبلة صغيرة .
ــ إتنين (قلت مساوماً) .
فأومأت برأسها موافقة ، وشرعت أنا أقشر التفاحة وفقاً للمواصفات ،

حيلة قديمة علمتنى إياها أيام الصبا خادمة كانت عندنا ، سمراء فى رقبتها حسنة ورائحتها بصل .

— إتفضلى يا ستى ، قلت فى انتصار ، ملولوة كفاية ؟

وأدليت فوق رأسها قشرة طويلة ملتوية كثعبان أحمر ، ثم تركتها تسقط فوق صدرها . — طب والنبى شاطر .

ومدت لى شفتيها فانحنيت وقبلتها قبلتين . فإنى لأهم بالثالثة إذ سمعنا نحنحة بالقرب منا ، ونظرنا لنرى الحاج طلبة واقفاً يزغر لنا .

— على جهنم ! (قال لنا بصوت ذابل مبحوح) على جهنم ! فضحكت زازا .

— لمعلوميتك ياحاج ، (خاطبته أنا بهدوء) إحنا خلاص اتجوزنا. تحب تشوف العقد ؟ ولو حت له بالشيك .

— بنفس الصيغة بتاعتك يا حاج ! (أضفت باسما) .

فلم يجب بشىء ، وقف حينا يزغر لنا بعينه الغائمة ثم ابتعد وهو يدمدم .

— دمه بقى خفيف قوى (قالت زازا ضاحكة) .

وبيدها اليسرى رفعت التفاحة إلى فمها ، فى حين مدت يدها اليمنى إلى القشرة الحمراء تسويها على صدرها فى خطوط حلزونية منسقة .

— عارف إذا جبت ولد ح اسميه إيه !

وذكرت اسما سمعته بنصف أذن ، وبنصف أذن سمعت كل ماقالت فى الدقيقة التالية ، كأن صوتها يصل إلى من مكان سحيق. ذلك بسبب الدوامة العنيفة التى اجتاحتنى فجأة مذ وقع بصرى على القشرة الحلزونية الحمراء فوق صدرها . القشرة حلزونية ونحن نعود إلى الجزيرة كل مرة فى دوائر حلزونية ، فما سبب ذلك ؟؟ لماذا لا نعود إلى الجزيرة فى خط عامودى كالخط الذى نغادرها فيه ؟ لماذا تصر تيارات هذا البحر

على أن تسير فى تلك الدوائر الحلزونية العجيبة ؟ فلو أننا ...

ـ أحمد ! أحمد ! (أيقظنى صوت زازا) سرحت كده ليه ؟

فلم أجبها ووجدتنى أقفز واقفا كالملسوع ، رعدة جامحة تهزنى هزا .

ـ زازا ! هتفت بصوت متهدج ، وجدتها !

ـ هى إيه ؟ ! (سألتنى فى دهشة) . ـ وجدتها يازازا ، وجدتها !

ـ هى إيه ياأخينا ؟ ! إنت اتجننت ؟

ـ تفاحة نيوتن نفعت معايا ! جت لى فكرة هايلة !

ـ فكرة إيه ، موش تفهمنى ؟ ـ هايلة والله ، هايلة !

وكالمجنون رحت أقطف التفاح بكلتا يدى كما رأيت توتو يفعل منذ أيام ، تساقط التفاح كالمطر حول زازا افنهضت مذعورة .

ـ قطعى معايا ، قطعى يابنت !

ـ لا .. إنت ماية المالية جرى لعقلك حاجة !

ـ قطعى ياولية ماتقفيش ساكتة ! ولاروحى قولى لتوتو يصطاد سمك كتير ! السمك اللى فى البحر كله ! ياسلام .. ده نيوتن ده سره باتع بشكل !



الفصل السابع والعشرون

ركن من المركب مليء بالتفاح الذى قطفناه ، وركن آخر ينتظر السمك الذى جلس توتو يشويه ، فأخذت زازا على جنب ورحت أشرح لها نظريتى التى لاأعرف بعد ماذا أسميها على وجه التحديد ، وبالطبع ستدخل فى التسمية كلمة الحلزونية — النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية أوشىء من هذا القبيل . إن التيارات المائية فى هذا البحر — شرحت لها — من دأبها أن تتجه إلى الجزيرة فى دوائر حلزونية ، الأمر الذى تحققنا منه مرة بعد مرة بالمشاهدة والتجربة . إذن فوفقـًا لقانون الاحتمالات يكون من شبه المؤكد أنها تيارات ذات طابع حلزونى . فماذا يحدث لتلك التيارات بعد أن تصطدم بأرض الجزيرة ، هل تتلاشى وتختفى كلية ؟ كلا بالطبع ، لابد أنها ترتد عن الجزيرة بعد أن تصطدم بها ، من ناحية بفعل الصدمة ومن ناحية أخرى لتفسح الطريق للتيارات الأخرى التى لاتبرح تتدفق على الجزيرة . إذن فهناك احتمال كبير فى أن تكون هناك — فى الوقت نفسه — تيارات تبتعد عن الجزيرة مثل التيارات التى تتوافد عليها ، وهى فى أغلب الظن تتحرك فى دائر حلزونية مشابهة. فأين تذهب تلك التيارات ؟ ما المانع نظريـًا من أن نفترض أن هذه التيارات يمكن أن تحملنا معها — إذا نحن وجدناها — إلى البحر الواسع العريض ؟ ؟

— فهمتى ؟ سألت زازا مستوثقـًا .

فلم تجبنى من فورها ، راحت تتفرس فى بنظرة تتضارب فيها معانى الشك مع الرغبة فى التصديق .

— طب ليه ماعترناش على التيارات دى قبل كده ؟ سألتنى بريبة .

— سؤال وجيه وجوابه سهل ، ماعترناش عليها لأننا كنا دايما نطلع من الجزيرة ف خط عامودى ، فهمتى ؟ فسكتت تتفكر فى الأمر حينا .

— ياسلام ، قالت أخيراً . — آه ، أجبتها .

وكان توتو قد انتهى من شى السمك فنقلناه إلى المركب ، ودفعنا المركب نفسها إلى الماء ، أنزلناها فى النقطة التى اعتاد التيار أن يرجعنا إليها فى كل مرة . وقبل أن نركب أخذت أستعرض الموقف .

— مليتى القلة ؟ سألت زازا . — أيوه .

— وجبتى غطاها ؟ — أيوه .

— وكيس النايلون ؟ — إمال ح اشيل المشط والمراية ف إيه ؟

— وأنا معايا الخنجر والمسدس ، ياالله بينا . — إستنى شوية .

— إيه ؟

فضحكت زازا لسبب لاأعرفه .

— هو احنا ممكن نطلع ولانرجعش هنا تانى ؟ سألتنى .

— فى الغالب ، ليه ؟ — إمال اما اجيب البتاع ده بقى !

— بتاع إيه ؟

لكنها لم تجبنى وانطلقت تجرى بعيداً ، انحنت فى آخر الجزيرة وراحت تنبش فى الرمال . فلما عثرت على بغيتها أقبلت على ومدت نحوى قبضتها المطبقة على شىء ما .

— إفتح إيدك ، قالت باسمة .

فبسطت راحتى لكى تودع فيها ماعندها ، عيون الجميع تركزت على يدى فى اهتمام . إحساس فى يدى بأجسام معدنية صغيرة توضع فيها ، ثم رفعت زازا يدها لكى أرى على راحتى ثلاث رصاصات من رصاص المسدس .

— إحشى مسدسك بقى ! قالت زازا ضاحكة .

فرحت أحملق فى الرصاص بقدر من البلاهة يبدو أنه كان أكبر

من اللازم ، وإلا فلماذا سخسخت زازا من الضحك ، ولماذا عدت توتو بضحكها فقهقه ، وحتى الحاج طلبة نفسه رأيته يهتز بضحكة مكتومة ؟ تعليقات كثيرة دارت فى دماغى لكننى كتمتها ووقفت أحشو المسدس فى صمت .

– ماليش دعوة (قالت زازا) إنت اللى علمتنى كده !

– طب معلهش ، قلت لها ، هى لك والزمن طويل . يالله بينا .

إلى المركب صعدنا وفيها جلسنا وهم ينتظرون تعليماتى ، إذ تناول توتو المجداف وهم باستخدامه فمنعته .

– موش ح نقدف ؟ تساءلت زازا فى دهشة .

– نقدف ليه ؟ سألتها باستعلاء علمى ، إحنا عارفين التيارات المرتدة ماشية ازاى ؟ ماحدش يتحرك خالص .

– لكن . . – هس !! اكتموا نفسكم .

صمت عميق خيم علينا حيث جلسنا فى المركب ، أربعة صدور تغلى كلها بأمل واحد . دقيقة من الصمت والمركب ثابتة فى مكانها لا تتحرك ، أنظار الجميع مركزة على فى رجاء تمازجه ريبة ، وتحفز واضح للعن أبى إذا فشلت الخطة . فتقبضت يداى بقوة على حافة المركب ، أنظر إلى البحر فى استعطاف ذليل . وفجأة تقلقلت المركب على سطح الماء مع أن أحداً منا لم يتحرك ، بدأت تدور حول نفسها ببطء وتغير من وضعها . تقدمت خطوة نحو الشاطئ كأنها ستنغرس فيه ، لكنها مالبثت أن غيرت فكرها وبدأت تتأرجح مبتعدة عن الشاطئ برفق ، لا فى خط عامودى عليه وإنما بمحاذاته كأنها تنوى أن تدور حول الجزيرة .

– دى مشيت ! (هتفت زازا فى دهشة) مشيت !

والحاج طلبة أسرعت شفتاه بالدمدمة ، وتوتو لمعت خلال ابتسامته أسنانه البيضاء . والمركب تنزلق على الماء بحذاء الشاطئ مبتعدة عنه رويداً رويداً .

ــ احنا بنبعد عن الأرض ! (هتفت زازا بفرح) والله بنبعد !

شيئاً فشيئاً نبتعد عن الجزيرة ، فى دقائق قليلة كنا قد درنا حولها دورة كاملة . ثم دخلنا فى الدورة الثانية وشرعنا فى الثالثة ، صارت الجزيرة على مسافة لاتقل عن مائة متر . ومع الدورة الرابعة تضاعفت المسافة ، وبانتهاء الخامسة والسادسة كان الجزيرة قد أصبحت على مدى الشوف .

ــ حاجة مش معقولة أبدا ، قالت زازا وهى تضرب كفاً بكف ، دى معجزة ! فأنذرتها : « طولى بالك ، لسه ما تأكدناش » .

إذ أننا لانكون قد نجحنا إلا إذا تجاوزنا تلك المنطقة المشئومة التى مابرحت تصدنا فى كافة المحاولات السابقة ، إذ تصيدنا فى دوامة التيارات العائدة إلى الجزيرة . فسكتت زازا وسكتنا جميعاً ، أنفاسنا محبوسة ونحن ننظر تارة إلى البحر العريض المنبسط أمامنا ، وتارة إلى الجزيرة التى أصبحت مجرد نقطة صغيرة فى آخر الدنيا .

ــ تفتكرى عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ ؟ (سألتها مستوثقاً) .

ــ ماأظنش (قالت بشىء من التردد)

واكتفى الحاج بالدمدمة وهو يجيل حوله نظرات عصبية زائغة ، والمركب تسير وتسير مدفوعة برياح غير محسوسة . ماهى إلا ساعة حتى كانت الجزيرة قد اختفت تماماً عن أبصارنا .

ــ عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ تساءلت من جديد وفى صوتى نبرة انتصار .

ــ أبدا ، هتفت زازا بفرح ، أبداً ! عمرنا مابعدنا كده أبداً !

ــ أبداً أبداً ! ردد توتوهتافها ، وهو يتقفز ويضرب على فخذيه بيدى طفل فرحان . .

فملأت صدرى بشهيق عميق من هواء البحر المنعش ، وللمرة الأولى أطلقت زفيراً حراً طويلا مع آهة تجمع بين الراحة والظفر . ثم وجدتنى

أتنحنح فى كبرياء وأنا أرفع حاجب العلوم الأيمن .

– باقول ادخل فيها إسمى (قلت لزازا) . – هى إيه ؟

– النظرية طبعاً . أصلى كنت ح اسميها النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية لكن غيرت فكرى . ح اسميها نظرية الحركة الأحمدية ، حاجة كده زى الحركة البراونية .

فراحت زازا تحدق فى حيناً ثم غمزتنى بابتسامة تسيل حباً وإعجاباً ، بل إنها مالت على فطبعت قبلة سريعة على خدى .

– والنبى انت مافى منك أبداً (قالت بلهجة صدق) .

– لاماتبالغيش (أجبتها بتواضع العلماء) لازم برضه فيه هنا ولاهنا ، هاها .

وسفينتى تنزلق على الماء كالبجعة الحسناء بغير قلع أو مجداف ، تشق عباب البحر باسم الله مجريها ومرساها . فبورك فى يوم ولدت ويوم ركب فى دماغى هذا المخ العلمى الفذ .

– متهيأ لى سرعتنا (قالت زازا بعد حين فى قلق . – « ده بس متهيألك (أجبتها بثقة) . – طب والله قلت (قالت مصرة) .

فنظرت إلى الماء وأرهفت السمع ، خيل إلى أنا الآخر أنها نطقت صدقاً .

– على كل حال ده شيء طبيعى ، قلت لها مطمئناً ، التيارات ضرورى تنتهى . لازم نبتدى نقدف . خد ياتوتو .

وناولته المجداف الذى هم باستخدامه ثم توقف بادى الحيرة .

– مالك ؟ (سألته) .

فأشار بإصبعه إلى الأمام وإلى الوراء ، ثم إلى الشمال واليمين .

– والله له حق (قالت زازا) ح يقدف على أى ناحية ؟

وكانت هذه مشكلة حقاً ، فإلى أين نحن ذاهبون ؟ البحر عريض فسيح لانهائى أزرق ، شماله كجنوبه كشرقه كغربه ،

وسفينتى غير ذات بوصلة .

ــ أحسن حاجة نخلى الشمس ورانا ونمشى (قلت مقترحاً)

ــ إشمعنى ورانا ؟ (تساءلت زازا) .

ــ ح يكون ليه ؟ علشان ماتزغللش عنينا ، صعبة دى ؟

فبدأ توتو يجدف بنشاط ، فرحا بالفرصة التى أتيحت له لكى يعمل شيئاً .

ــ تعرفى ان توتو نفعنا جداً ؟ ــ فى إيه ؟

فى أنه أكسب المركب هذا القدر من الخفة والنعومة ، لم يكن مستبعداً أن تعجز التيارات عن حمل السفينة الخشنة الثقيلة السابقة .

ــ ربنا يبارك لنافيه (قالت زازا) وهى تربت على ظهره بحنان . كتفاه عريضان وجانباه ضلعا مثلث ينتهى عند خصره النحيل ، عضلاته لا تبرح تنقبض وتنبسط فى ظهره البرنزى المتين ــ لكننى أنا الذى رسمت الخطة .

ــ ناولينى سمكة بس تكون كبيرة (قلت لزازا) .

فناولتنى سمكة والحاج طلبة مثلها ، كادت نسبة الأشواك فى لحيته تطغى على نسبة الشعر . فلما تغديت تناولت المجداف من توتو ريثما يتغدى بدوره ، وسمعت من زازا ضحكة مطربة .

ــ حقا انت المرة دى نوح بحق وحقيق !

ــ نيوتن من فضلك (نهبتها) .

ــ بس إياك نوصل حته حلوة .

ــ دى بقى معرفهاش ، أنا موش مغسل وضامن جنة .

ــ عشان كده انا خلاص نويت على حاجة ، عارف إيه !

ــ إيه ! ــ خلاص ح اسمى ابنى أحمد .

ــ ده أقل مايجب عليكى . ــ آه ، أسميه أحمد وادلعه توتو .

فزغرلنا الحاج طلبة ولم يقل شيئاً ، بينما رحت أنا أجدف وأجدف

— يظهر انهاح تليل علينا (قالت زازا بعد حين بقلق) .

فالتفت خلفى نحو الشمس ، رأيتها قد انحدرت عند الأفق ماونة إياه بحمرة الشفق . وبحركة لاشعورية نظرت إلى ساعتى فسرعان ما جمدت عينى عليها .

— زازا ! هتفت فى دهشة ، زازا ! — إيه ؟

— بصى ! ؟ ساعتى عقلت !

وأدنيت الساعة من وجهها ، راحت تتفرس فيها حينا ثم هزت كتفها .

— آهى زى ماهى (قالت باستخفاف) . — دى زى ماهى دى ؟ !

— آه .

— طب دى موش بس هديت عن الأول ، دى بقت أهدى من كل الساعات اللى فى الدنيا .بصى كويس! فهل كان عقرب الثوانى يدور فى سالف الزمن بهذا البطء الشديد ؟؟ إنه يتفسح على الميناء أكثر منه يدور ، يتلكأ عند كل علامة كأنه لايريد أن يفارقها ، فهل أنا أعمى؟

— يازازا بصى ! (هتفت فى فرح وحشى) بصى !

— والنبى بلاش عباطة وقدف .

— إنتى عارفة الحكاية دى معناها إيه ؟

— معناها إنلك مجنون ! ياتقدف ياتدى توتو يقدف .

— قدف ! (قال توتو باسماً) .

فناولته المجداف وأخرجت أوراقى بأنامل مرتعدة ، سجلت عليها هذه الملاحظة عن الساعة .

— يا خسارة، قلت بحسرة ، الورق قرب يخلص ولسه فيه كلام كتير .

جربت الساعة حين تجرى بسرعة ، وخبرت الشعر حين يتهدل

ويشيب بين عشية وضحاها ، فماذا يكون الأمر لوحدث العكس ؟
— مافيش فايدة (قالت زازا بمرارة) مافيش ريحة أرض حوالينا . ضرورى ح نبات فى البحر.

نعم يبدو أننا سنفصل ، حمرة الشفق ذابت فى لون البحر الزادى ، وعتمة المساء أخذت تنتشر حولنا . والليلة ليست مقمرة ، نجمة واحدة لمعت جهة الشرق وربما كانت الزهرة .

— ما كفاية تفديف ياتوتو (قالت زازا) الدنيا ضلمت .

فأطاعها وترك المجداف ، ثم انخفض فى قاع المركب وهو يلهث . والحاج طلبة كف عن المهمهمة حيث تكدس فى ركن المركب .

— تتعشوا قبل ماتناموا ؟ (سألتنا زازا) .

فطرقعت شفاهنا بالنفى ، من الذى تروح نفسه للأكل فى هذه الظروف ؟ البحر الداكن العريض ، الصامت كالقبر مع أنه يعج بالحياة . رحلة إلى المجهول فى الظلام الذى لايبرح يتكاثف حولنا. صامتين جميعاً نلوك أفكاراً واحدة ، لاصوت حولنا إلاخفق الماء على جنبات المركب. وزازا أراحت خدها على حافة المركب وأدلت يدها فى الماء ، شاردة تفكر . شيئاً فشيئاً يتكاثف الظلام ويحول الجميع إلى أشباح ، حتى ظهر زازا العاجى فى قميصها الممزق كاد يتوه فى الظلام . وبعد قليل تاه فعلا ، غاب الجميع عن بصرى . وصوت أنفاس منتظمة لتوتو والحاج طلبة تدل على أنهما قد ناما ، فدهمنى فجأة شعور مفزع بالوحدة والعزلة ، خيل إلى أنه ليس فى العالم كله إنسان غيرى . برودة سرت فى بدنى ورعدة ، وتسارعت كل من أنفاسى ودقات قلبى .

فددت يداً مرتعشة أتلمس بها كتف زازا .

— زازا (همست بوجل) نمتى ؟

فسمعت طرقعة شفتيها ، وأحسست بها تستدير نحوى .

— خايفة يازازا ؟ — إنت خايف ؟

— قوى ، شوفى إيدى باردة ازاى ؟ — ياحبيبى ، دانت بترعش. وتناولت يدى بين يديها وكانتا دافئتين ، ثم وجدتها تجذبنى نحوها فى حنان وتميلنى لكى أنام ، أراحت رأسى على حجرها كأننى طفل صغير .

— خايف من إيه ياحبيبى ؟ سألتنى برقة وهى تمسح بيدها شعرى.

— البحر كبير قوى ، قلت بصوت متهدج . — ماهو طول عمره كبير.

— والنجوم كتير قوى . — برضه طول عمرها كتير .

— موش للدرجة دى !

ملايين ملايين النجوم تبعثرت فى القبة السوداء ، بعضها نجوم وحيدة ترتعد مثلى، وبعضها أكداس من نجوم نحاسية صدئة أنظر إليها فيخيل إلى أنها قد تتهاوى فجأة فوقى ، أو أننى قد آخذ شهيقاً قوياً فتتسرب مثل ذرات التراب إلى صدرى .

— ماتخافش ياحبيبى ، أنا معاك .

بيدها الحنون مشت على جبينى ، شيئاً فشيئاً سرى دفئها فى جسمى وأخذ يطرد الرعدة عنى . تسارعت أنفاسى حيناً ثم هدأت ، بدأت أسترد سكينتى . بل ونشوة غريبة جرفتنى فجأة ، وشعور طارئ بالخفة وبالاستخفاف بكل ماكان يفزعنى ، فوجدتنى أقهقه .

— مالك ؟ سألتنى زازا . — حاجة غريبة قوى ، عمرى ماخفت بالشكل ده .

— أصلك مجنون . — هاها .

فماذا يمكن أن يحدث لنا ؟ تنقلب المركب ويأكلنا السمك ؟ أكلناه كثيراً فلماذا لايأكلنا مرة من نفسه ؟ وماذا لو تحولت من آكل للبروتين إلى جزىء بروتين فى خلية سمكة ؟ ماالفرق فى النهاية بين أن أعيش فى خلية أو فى الغلاف الجوى الكوكب ؟

— فكريني بكرة أكتب الحكاية دى . — إنت لسه ح تكتب ؟

نعم وبأصغر خط عندى ، وبدون أن أترك فى الوريقات المتبقية مليمتراً واحداً أبيض ، كأننى خطاط يستعرض مهارته فى تدوين كتابه المقدس على بيضة . إلاقول لى (قالت زازا) تزعل لو ماسميتش الواد أحمد ؟ وليه ماتسميهش أحمد ؟ نفسي ف اسم جديد . إننى حرة . طب اسكت وفكر معايا ف اسم . ماأعجب ذلك الخوف الذى دهمنى ، وما أعجب النشوة التى تعتريني الآن ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . أنا الآخر لايعجبنى اسم الثلرية الأحمدية ، ترن فى سمعى كأنها إحدى الطرق الصوفية ، افتكرت اسم . إيه هو؟ إيه رأيك فى حلزونية أحمد الكبرى ؟ طب بلاش عباطة وخلينا فى الواد . جنين فى جوفها بجانب رأسى ، لو أن سمعى أقوى لسمعت دقات قلبه . عجينة تختمر فى ظلام الرحم وتتشكل ، ضفدعة تتلوى فى قربة ماء ، عفريت مقلوب على رأسه لايرى ولايسمع ولايتنفس لكنه يعيش وينمو . على دقات ساعتى ينمو ، وكم تطربنى تلك الدقات الجديدة المتباطئة ، إلا قولى لى . . إيه ؟ تعملى إيه لو الواد نزل براسين ؟ إن شاالله انت يارب ! ليه ، يبقى بمخين . هاها ، طب والنبى فكرة . بس يضطر يحلق دقنين . طب لوجبت بنت نسميها إيه ؟ عندى فكرة . إيه ؟ إذا جت بنت سميها تفاحة ، وإذا جه واد سميه جمجمة ! ياسم كده ! على فكرة تعرفى إن الجمجمة صعبانة على ؟ ليه ؟ وحدها كده فى الجزيرة . وبين قال إنها فى الجزيرة . يعنى إيه ! يعنى جبتها معايا ! إيه ؟ ! طبعاً جبتها . ح اسيبها مسكينة وحدها هناك ؟ أما انتى بقى . أحمد ، بلاش دوشة خلينى افكر . كانت دائماً أنثى لا معقولة ، وكنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة . جثت على ركبتيها دامعة العين من الضحك وقالت شوفوا لى أى عريس — أحمد . قوليها تانى . تفتكر ح نوصل ؟ ؟ قولى يا باسط . اااح ! الحاج

بيحلم . ده دليل على إنه لسه ما ماتش . والنبى بقى دمه خفيف . إنتى عندك حد دمه تقيل ؟ يا خسارة . إيه ؟ كان ممكن نعيش سعدا . كان . ضيعوا الوقت فى الخناق . بهدلونا ولاد الإيه . هاها ، دانت يا بنى جريت جرى! من يضحك أخيراً ، أحدهما فى القبر والآخر غصت لحيته بأشواك السمك . إلا الشيك أبو ألف جنيه لسه معاك ؟ مكتوب عليه فصل من الرواية . يا ترى يرضوا يصرفوه لك بالشكل ده ؟ بس الأول يكون له رصيد . وبس نوصل . موش شايفة حاجة فى البحر ؟ غير الضلمة مافيش . وحتت تانية طالعة فيها الشمس . تيجى اسمى بنتى شمس ؟ موش سخنة شوية ؟ البنت شمس والواد تعرف إيه؟ إيه ؟أسميه بحر . إشمعنى بحر؟ موش اتقابلت معاك فى البحر؟ حصل . وموش هو اتخلق فى جزيرة ؟ فعلا . وكمان مركبنا غرقت فى البحر ؟ معقول . هاها . بتضحكى ليه ؟ تصور أن قاع البحر دلوقت فيه كل الحاجات اللى كانت فى المركب؟ كراسى مدهب وترابيزات . أى والله . ودواليب مبلولة وتسريحات . سمكة ف درج التسريحة . وقرموط فى الشيفونير . وابو جلمبو لابس بيجامة . وأخطبوط لابس فستان . وعلب روج وقزايز بارفان . قلتى شانيل ؟ آربيج ، وكتب بايشة ودوسيهات . وبانيوهات وسيفونات . الله يقرفلك ، وغوايش وبروشات . ولاتلسكوب القبطان . وإيه كمان ؟ تمايم دهب وصلبان . وعقود لولى ومرجان . وسبح كهرمان ، وزراير جبة وقفطان . إحنا ح نشعر ولا إيه ؟ ليه لأ ، ولا مخلفات الحرب . بوارج وغواصات . وطرادات ونسافات . وليه نسيت الطيارات ؟ والقاذفات والنفاثات . ولا حروب زمان . خوذ لميع نحاس . وسهام وأقواس . ورماح ودروع . وسيوف وبتوع ، والنبى لعبة حلوة ! وخنجر بتاع راجل قرصان . وإيه كمان ؟ مفاتيح واقفال ، وترابيس أشكال . موش لاقية حاجة تتقال . وحزام عفة من عصر الفرسان . هاها ، والنبى لاسميه بحر . وخزن حديد

فيها وثائق سرية. طب قول رسائل غرامية. وإيه الفرق ؟ على رأيك. وتاج دهب كان فوق دماغ سلطان . طب انت عارف انا نفسي ف إيه ؟ إيه؟ نفسى التى خاتم سليمان. لو لقيتيه تطلبى إيه ؟أطلب أطلب أطلب حزر أطلب إيه؟ إيه؟ أطلب العفريت وأقول له عارف إيه؟هيه؟ أقول له يسحرنى ويعملنى عارف إيه ؟؟ إيه ؟ يعملنى نسمة هوا. بالألف ولا اليه ؟ما نفسكش تبقى نسمة ؟ما عنديش مانع ، حد يكره الطيران ؟ أنا وانت وتوتو نسمة واحدة . دى تبقى زوبعة . نطير لفوق فى العلالى ، لفوق . أى والله ،. ندوى فوق فوهة بركان . ولما نزهق م العلالى ؟ ننزل نصفر فى الوديان . ولا ابجنابن والغيطان. من غيط قمح أصفر لبستان.

نلاعب السنابل . ونشم زهر البرتقان . يرقص علينا الفراش ، وترفرف العصافير. ويا الحدادى والغربان . نميل فروع الشجر . ونردد صدى الألحان . فردى وباخ وموزار . وليه نسيتى شوبان ؟ ننفخ قلوع المراكب. وتزغزغ الربان . تيجى نغرق مركب ؟ إذا كانت مركب قرصان . ونروح فى كل مكان . لا سور يحوشنا ولا قضبان . وإيه كمان ؟ نلعب ضرورى ف شعر البنات . ونطير الباروكات. والله فكرة ، ونطير ديل الفستان . ونطرى ع الحران . ونفوق السكران . والتعبان . والهيمان . والغفلان . والزهقان . والحرمان . والعدمان . والصدمان . هاها ، بس يا احمد احسن دخت . أحب الدوخان . أحمد ! قوليها تانى . أحمد ! رق صوتها وما أحلاه حين يرق ، أحمد ! إيه يا روحى ؟ بتحبنى أدما باحبك ؟ يا سلام يازازا ، موش عارفة انك روحى ؟ صحيح ؟ طبعاً ، المهم تكونى انتى بتحبينى . وانت عندك شك يا عنية ؟ جد بتحبينى ؟ قوى والنبى . الحمد لله انك موش فرسة النبى . ليه ؟ كنتى كلتينى . هى فرسة النبى بتاكل جوزها ؟ بعد ما يستنفد أغراضه . موش معقول اقصدى أغراضها . طب أنا فرسة . وشعر زازا تهدل على وجهى وهى تتظاهر بأنها تأكلنى فى حين أنها — كما تلاحظ — تقبلنى .

زازتى الحلوة تقبلنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . ثم رفعت رأسها عن شهاب سرى فى السماء بسرعة ، توهج لحظة ثم خبا . يا ترى الشهاب ده معاه ساعة ؟ شهاب ؟ آه ، لو معاه ساعة كان قال انه عاش مليون سنة . أحمد ، ده وقت تخريف ؟ وانحنت من جديد فقبلتنى ، ونشوة عجيبة غمرتنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . المركب تمايل فكأننى فى أرجوحة ، ووشوشة الماء حولى أغنية من أغانى المهد . الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة ، كاللحظة التى عاشها ذلك الشهاب ، فلو أن — أحمد . إيه يا روحى ؟ أحمد ! إيه يازازا ؟ إلحق يا احمد ! ألحق إيه ؟ أنا يظهر ح اولد ! إيه ؟ ! ح اولد يا احمد . ح اولد! يا نهار اسود ! إسود فى عينك ، ح اولد ! مش معقول ! والنبى ح اولد ! زازا ! أحمد ! زازا ، إعقلى يا بنتى ، ده وقت حد يولد فيه ؟ !



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٨٣٥/١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

